نور الحقيقة ونور الحديقة

في علم الأخلاق

للشيخ عز الدين
الحسين بن عبد الصمد الحارثي الهمداني العاملي
٩١٥هـ - ٩٨٤هـ
والد الشيخ البهائي

حققه
محمد جواد الحسيني الجلالي

منشورات
مؤسسة النور للمطبوعات
بيروت - لبنان

نورُ الحقيقة ونورُ الحَديقة

الطبعة الثانية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

مؤسسة النور للمطبوعات
بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة ص . ب - ١١/٨٦٤٥

المؤلف والكتاب

بقلم

محمد حسين الحسيني الجلالي

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤلف هذا الكتاب من أشهر علماء جبل عامل الذين واصلوا نشر العلوم الاسلامية في كافة الاقطار التي رحلوا اليها .

وهو الشيخ الحسين بن عبدالصمد بن محمد الحارثي الهمداني الجبعي العاملي المولود عام ٩١٨ هجرية والمتوفى سنة ٩٨٥ هجرية . ونسبه ينتهي الى الحارث الهمداني المعروف .

لازم المؤلف شيخه الشهيد الثاني [ت / ٩٦٥ هـ] في الحضر والسفر وارتحل الى مختلف البلاد الاسلامية في سبيل نشر الحديث النبوي الشريف منها حلب الشام وخراسان وهرات ومكة، واستوطن آواخر أيامه في البحرين حتى وافاه الاجل المحتوم في سنة ٩٨٥ هـ .

لقد أشادت كتب التراجم بالمؤلف ومكانته السامية في العلم والورع ومما

ذكره فيه استاذه ـ الذي هو أعرف به ـ الشيخ الشهيد الثاني ، مانصه :

«الشيخ العالم الاوحد ، ذو النفس الطاهرة الزكية ، والهمة الباهرة العلية والاخلاق الزاهرة الانسية ، عضد الاسلام والمسلمين عز الدنيا والدين ...»

[لؤلؤة البحرين للبحراني ص٢٤]

وقال فيه الشيخ الحر العاملي [ت/١١٠٤ هـ] :

«كان عالماً ماهراً محققاً مدققاً متبحراً جامعاً أديباً منشئاً شاعراً عظيم الشأن جليل القدر ثقة ثقة من فضلاء تلامذة شيخنا الشهيد الثاني ...»

[أمل الامل ج٧٤/١ طبع النجف سنة ١٣٨٥ هـ]

ونقل المحدث النوري عن الافندي في كتابه الرياض قوله :

« ... توجه الى حضرته الطلبة ، بل العلماء والفقهاء ، من الاطراف والاكناف ، من أهل ايران وتوران ، لاجل مقابلة الحديث ، وأخذ العلوم الدينية ، وتحقيق المعارف الشرعية» .

ثم توجه هذا الشيخ من هراة الى قزوين ، لادراك خدمة السلطان المذكور (طهماسب) ثانياً ، واسترخص من السلطان لزيارة بيت الله الحرام لنفسه ولولده الشيخ البهائي ، فرخّص هذا الشيخ لزيارة البيت ولم يرخص ولده ...»

[مستدرك الوسائل ج٤٢١/٣]

ومن هذا النص يظهر انهما كانا كارهين لشيخوخة الاسلام ، تلك فتخلص منها الاب دون ولده .

ولما بلغ وفاته الشيخ البهائي رثاه بقصيدة منها :

ياجيرة هجروا واستوطنوا هجرا	واهـا لقلب المعنّـى منكم واهـا
ياثاوياً بالمصلى من قـرى هجر	كسيت من حلل الرضوان ابهاهـا
أقمت يابحر بالبحريـن فاجتمعت	ثلاثـة كـنّ أمثـالا و أشباهـا

وتربته اليوم واضحة المعالم في شمالي المسجد في المقبرة المعروفة بمقبرة الشيخ راشد .

[أنوار البدرين ص٤٦ ط النجف سنة ١٣٧١ هـ] .

آثاره:

له من المؤلفات :

١ ــ ثقة أهل الايمان في قبلة عراق العجم وخراسان .

٢ ــ حاشية على الارشاد (في الفقه) .

٣ ــ شرح ألفية الشهيد (في الفقه) .

٤ ــ العقد الحسيني (في الفقه) .

٥ ــ مناظراته ، (توجد نسخة منها في مكتبة السيد محمد صادق بحر العلوم في النجف الاشرف وهي في العقائد) .

٦ ــ وصول الاخيار الى أصول الاخبار .

(وقد طبع هذا الكتاب على الحجر في ايران عام ١٣٠٦ هـ و توجد منه نسخة مقروءة على المؤلف في آخرها قراءة بخط المؤلف مؤرخه ليلة السبت عاشر شهر جمادي الاخر سنة تسع وستين وتسعمئة وهذه النسخة في مكتبة السيد محمد المشكاة بطهران برقم ١٠٤٤ و عندي منها نسخة مصورة ذكرتها في الصيانة) .

٧ ــ هذا الكتاب المسمى نور الحقيقة ونور الحديقة .

النسخة الوحيدة من هذا الكتاب التي هي بخط المؤلف كانت في مدينة كربلاء ثم انتقلت منها الى ايرلندة ولاتزال محفوظة بها في

مكتبة جستربتي، تحت رقم، ام . اس – ٣٨٢٠ .

وأمـا تاريخ انتقالها وكيفيته فلا يزال مجهولا ، ومن المرجح ان النسخة نقلت بعد وفاة مالكها الشيخ عبد الحسين الطهراني المعروف (شيخ العراقين) والمتوفى سنة ١٢٨٦ هـ .

وكانت مكتبة شيخ العراقين في كربلاء من عيون المكتبات، وصفها شيخنا العلامة بقوله :

«مكتبة عظيمة فيها كثير من نفائس المخطوطات ونوادر الكتب والاسفار المهمة القيمة وكان الكثير منها بخطوط المؤلفين ومنحصراً بالفرد وقد وقفنا على عدد لابأس به من مخطوطاتها ففهرسناه ووزعناه على أبواب الذريعة ، وتلفت المكتبة» . [البورة الكرام ج٢/٧١٥]

وكان من حسن الصدف أن شيخنا العلامة قد وقف على النسخة ووصفها في الذريعة وصفاً يـرفع اللبس لذلك نورد كلامه دام ظله بطولـه . قال دام ظله :

نور الحقيقة ونور الحديقة في الاخلاق لعزالدين الحسين بن عبدالصمد الحارثي[1] والد الشيخ البهائي ، أوله :

(الحمد لله الذي خلق العقل بكمال قدرته ، وجعله مستنداً لعلم مايكتمل به النفس الناطقة بلطيف حكمته وأرشدها (به)[2] الى وجوه المعايش ...)

وفي آخره: (فرغ من مشقة مشقه مؤلفه الفقير رحمة ربه (الغني)[3] حسين

---

(١) فى النسخة المطبوعة من الذريعة أضيف هنا مايلي : (٩ / ٢٤٩ وصاحب الاجازات ١/١٨٥ – ١٨٦) .

(٢،٣) لم يذكر العلامة الشيخ آغا بزرك هاتين الكلمتين وانما أضفناهما لوجودهما فى النسخة الخطية (المحقق) .

ابن عبد الصمد الحارثي . لثلاث خلت من شهر رمضان سنة ٩٤٥) .

وفي أوله فهرس أبوابه الاثنين والعشرين .

١ ـ العقل ، ٢ ـ العلم ، ٣ ـ الكتابة ، ٤ ـ الالغاز ، ٥ ـ الدنيا ٦ ـ أدب النفس ، ٧ ـ الكلام ، ٨ ـ الصدق والكذب ، ٩ ـ الخير و الشر ، ١٠ ـ الاستشارة ، ١١ ـ الكبر ، ١٢ ـ الحلم ، ١٣ ـ الصبر ، ١٤ ـ السخاء والشح ١٥ ـ حسن الخلق ، ١٦ ـ الحياء ، ١٧ ـ المصاحبة ، ١٨ ـ المزاح ، ١٩ ـ الحسد ، ٢٠ ـ باب الطيرة ، ٢١ ـ باب الامل ، ٢٢ ـ باب الموت والقبر ، وهوخاتمة الكتاب .

رأيت النسخة قديماً بخط المؤلف [1] في مكتبة الطهراني بكربلاء وقد كتب على النسخة تقريضات للادباء بخطوطهم :

منها تقريض تقي الدين بن علاء الدين بن تقى بن عبد الصمد من أحفاد المصنف [2] وهي رباعية :

هذا الكتاب قد حوى	نكتاً و أقوالا دقيقة
نور الحقيقة اسمه	لكنه عين الحقيقة

ومنها رباعيتان للحسن القتال النجفي ، احديهما في أول الكتاب :

تأمل بما فيه جميعاً فانه	تروق معانيه لدى القلب واللب
تضمن آداباً حساناً وحكمة	ومنها قداستولى على القلب واللب

والاخرى بخطه على آخر الكتاب :

طالعته مستوعباً فوجدته	جم الفوائد زينة لمجالس
كم نكتة ونصيحة قد ضمها	و لطيفه هي نزهة لمجالس

(١ ، ٢) انظر مقدمة المحقق ص ٢٦.

وكتب منصور بن علي عقيل الحسيني الخادم رباعية هي :

كتاب حوى فضلا وعلماً وسؤدداً ونظمــاً وايقاظـاً وعقـلا وأفكارا
فللـه درّ السالكيـن طريقـه ففـي طرقه حور حسان وأبكـارا

وغير ذلك ، وعليه تملك درويش محمد العيفاوي النجفي ثم تملك ولده ابراهيم بخطيهما والاسف خلو الخطوط عن التاريخ) .

(الذريعة/حرف النون/مخطوط) (*) .

مصادر الكتاب :

ولم يذكر المؤلف (ره) في مصادر كتابه هذا سوى كتابين هما :

اولا : البيان والتبيين : لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنه ٢٥٥هـ وقد ذكر هذا المصدر في مورد واحد فقط واليك نص كلامه مع بيان مواضع الاختلاف في النسخة المطبوعة من البيان و التبيين قال في ص ٢٨٢ مانصه :

قال الجاحظ في كتاب البيان : وجد مكتوباً على حجر(١) يا (٢) ابن آدم لو (٣) رأيت يسير ما بقي من أجلك لزهدت في طويل ما ترجو من أملك ، ولرغبت في الزيادة من (٤) عملك ، ولقصرت من حرصك وحيلك (٥)، وانما يلقاك بغتة (٦) ، وقد زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك وحشمك ، وتبرأ منك القريب ، وانصرف عنك الحبيب (٧).

وقد جاء هـذا النص في النسخة المطبوعة بمصر عام ١٣٣٢ هجرية من

(*) قد طبع هذا الجزء أخيراً ، والنص المذكور هو في الجزء ٢٤ ص ٣٦٧ ــ ٣٦٨ (المحقق) .

البيان الجزء ٣ الصفحة ٨٤ وفيها من اختلاف النسخة مايأتي :

(١) في حجرمكتوب .

(٢) ليس فيها حرف النداء (*) .

(٣) لو أنك رأيت .

(٤) في عملك .

(٥) من حرصك .

(٦) وانما يلقاك غداً ندمك لو قد زلت .

(٧) فيها هذه الزيادة : فلاأنت الى أهلك بعائد ولافي عملك بزائد .

ثانياً :كتاب منثور الحكم :

ينقل عنه المؤلف فيموارد عديدة كالاتي: ٣٨، ١٠٠، ١٥١، ١٥٤، ١٨١ ١٨٦،١٩٠،١٩٤،١٩٥، ١٩٧، ٢٠٩، ٢١١،٢١٣،٢١٨ ٢٢٦،٢٤٣، ٢٦٥،٢٦٦ .

ولم أقف على نسخة من الكتاب ولاعلى مؤلفه وانما أورده الحاجي خليفة في كشف الظنون ووصفه بقوله :

منثور الحكم مختصرعلى ثمانية أبواب في الكلمات الحكمية :

الاول : في العلم والعقل ، الثاني : في الزهد والعبادة .

الثالث : فيأدب اللسان .الرابع :فيأدبالنفس.

الخامس : في مكارم الاخلاق ، السادس : فيحسن السيرة.

السابع : في حسن السياسة ، الثامن : في حسن البلاغة .

(كشف الظنون : ١٨٥٨/٢)

ولم يذكر المصنف غيرهذين المصدرين مصدراً آخرفي كتابه، ويظهرمن الجملة التالية، أنه ألف كتابه هذا معقلةالمصادر حيث قال فيص ٧٩مانصه : وربما استثقل المتعلم الدرس والحفظ واتكل بعدفهم المعاني على الرجوع

(*) وفي النسخة المطبوعة عام ١٣٦٨ هـ ج٣ص١٦٦ وردت مع حرف النداء (المحقق)

الى الكتب عند الحاجة فلايكون الاكمن أطلق ماصاده ثقة بالقدرة عليه بعد الاطلاق ، فلايعقبه التفريط الا ندماً وهذاكما ابتلينا به زماناً طويلا ...)

وهذا كلام جوهري لايصل الى غوره الامن ابتلى بما ابتلي به (قدس الله روحه الطاهرة) .

والغالب على أسلوبه سرد كلمات الحكمة منسوبة الى قائليها، والابيات والمقطوعات الشعرية الى ناظميها .

والغالب على اسلوبه أيضاً في صورة الاختلاف في الاراء هو ايرادها مع محاولة الجمع بينها والتوفيق ماامكن، فهو مثلا يقول في باب الاستشارة في ص١٩٧ مانصه :

وذهب اخرون الى ان الاولى افرادكل واحد بالمشورة ليجيل كل واحد منهم فكرته فى الرأي طمعاً في الحظوه بالصواب ، فان القرائح اذا انفردت استكدها الفكر واذا اجتمعت فوضت فيه .

ولكل من المذهبين وجه ، ولعل كل واحد في محله اللائق به احسن وذلك بحسب اختلاف المستشير والمشيرين على انه اذا امكن افرادهم اولا ثم جمعهم كان اولى بغير شك» .

ولم يحد المؤلف عن هذا الاسلوب الابالنسبة الى المعتزلة فانه حمل عليهم قائلا في الصفحة ١٤٠ مانصه :

«وان خفي شيء من ذلك فلا يخفى ماكان بين المعتزلة ـ قابلهم الله بما يستحقونه ـ وبين اهل الحق ـ رفع الله درجاتهم ـ من المعاداة والبغض والتعصب والحمية والتشنيع الفضيع الى ان أحق الله الحق بكلماته وابطل دابرهم وخسر هنالك المبطلون » .

وعلى النقيض من وصفه للمعتزلة ، تجده يصف الشافعية في الصفحة ٤٠ بقوله : (أمة من اصحابنا الشافعية) .

كلمات الحكمة :

وقد أورد المؤلف كلمات الحكمة عن حكماء من مختلف الامم والملل على اختلاف قومياتهم ومذاهبهم وعقائدهم ، فنقل عن أهل التأويل ص١٢٧ والفرس ص٢١٦ وبعض أشراف الاشراف ص٢٥٨ وبعض الحكماء (في مواضع كثيرة) ، وبعض الهاشميين- من دون تعيينة بالاسم- ص١٧٢

الحكماء قبل الاسلام :

كما نقل عن حكماء كانوا قبل الاسلام وهم : اقليدس : ١٠٩ واردشير : ١٦٠ ، ٢٢١ ، وبرزجمهر : ٦٦ ، ٧١ ، ١٥١ ، ١٩٨ ، وكسرى : ١٤٨ ، ١٦٦، ٢٣١ ، ولقمان : ٦١ ، ٦٥ ، ١١٨ ، ١٩٥ وملك الصين : ١٦٦ ، وملك الهند : ١٦٦ ، وقيصر : ١٦٦ ، والاسكندر : ١٣٢ ، ٢١٢ ، ٢٨٣ ، ونقل عن التوراة : ١٤٩ ، ٢١٥ .

الحكماء المسلمون :

واما في العصر الاسلامي فقد نقل احاديث كثيرة عن الرسول الاعظم ﷺ في مطاوي الفصول ، ومرّة واحدة عن جبرائيل ص٢١٠ واليك ثبتاً باسماء حكماء الاسلام حسب القرون وقد ذكرنا الاسماء كاملة مع تاريخ وفياتهم .

١- ابو بكر ص١٨٤ .

هو عتيق بن ابي قحافة التيمي المتوفى عام ١٣ (الخليفة الاول) .

٢ - ابو عبيدة بن الجراح ص١٤٠

هو عامر بن عبد الله الفهري المتوفى عام ١٨هـ

٣ـعمر بن الخطاب ص١٣٥ ، ١٤٣ ، ٢٠٨ ، ٢٨١

هو عمر بـن الخطاب بن نفيل العـدوي المتوفى عـام ٢٣ هـ (الخليفة الثاني) .

٤ ـ أسماء بنت يزيد ص١٨٦

هي أسماء بنت يزيد بن السكن الانصارية، كانت من اخطب نساء العرب توفيت نحو عام ٤٥ هـ .

٥ ـ عبد الله بن مسعود ص٦٥ ، ٨٢ ، ١٠١ ، ١٣٠ .

هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي المتوفى عام ٣٢ هـ

٦ ـ سلمان الفارسي ص٢٧٤. المتوفى سنة ٣٦ هـ .

٧ ـ صهيب بن سنان ص٢٦٤ .

لعله بن سنان بن مالك المعروف بـ (صهيب الرومي) المتوفى سنة ٣٨هـ .

٨ ـ علي عليه السلام (في مواضع كثيرة من الكتاب) .

هو الامام علي بن أبي طالب المستشهد سنة ٤٠ للهجرة .

٩ ـ لبيد ص٢٧١ .

هو بن ربيعة بن مالك العامري المتوفى سنة ٤١ هـ .

١٠ ـ ابن الزبير (ص١٠٤ ٢٠٩ ٢١٤) .

هو عبدالله بن الزبير بن العوام القرشي المتوفى سنة ٧٣ هـ .

١١ ـ الحطيئة (ص ١٧٩) .

هو جرول بن اوس بن مالك العبسي المتوفى نحو سنة ٤٥هـ .

١٢ عدي بن حاتم (ص١٨٥) .

هو ابوطريف بن حاتم الطائي الجواد المشهور، شهد صفين مع علي عليه السلام ومات بعد الستين من الهجرة .

١٣ ـ عقيل (ص١٧٦) .

هو ابن عبدمناف (أبي‌طالب) المتوفى سنة ٦٠ للهجرة .

١٤ ـ قيس بن‌سعد ص ١٥٤.

هو ابن‌سعد بن‌عبادة الخزرجي المتوفى سنة ٦٠ للهجرة .

١٥ ـ معاوية (ص١٧٦، ١٧٨) .

هو ابن‌صخر (أبي‌سفيان) الاموي المتوفى سنة ٦٠ للهجرة .

١٦ ـ ابن‌عباس (ص٤٤،٤٨، ٦٣، ٨٤، ٨٨، ٩٤، ٩٦، ١٠٩، ١١٥، ١٤٥، ١٥٠، ٢١٨، ٢٢٦، ٢٦٥ .

هو عبدالله بن‌عباس الهاشمي المتوفى سنة ٦٨ هـ .

١٧ ـ أبو الاسود الدؤلي ص١٧٢، ١٩٤ .

هو ظالم بن‌عمرو المتوفى سنة ٦٩ هـ .

١٨ ـ الأحنف ص٢١١ .

هو ابن‌قيس التميمي من الفصحاء الدهاة، توفي سنة ٧٢ هـ .

١٩ ـ عبدالله بن‌عمر ص١٨٠ ٢٧٤ .

هو: ابن عمر بن‌الخطاب العدوي (الخليفة الثاني) ، توفي سنة ٧٣هـ .

٢٠ ـ عبدالله بن‌جعفر ص٢٤٢ .

هو ابن أبي‌طالب ـ عبدمناف ـ الهاشمي، المتوفى سنة ٨٠ هـ .

٢١ ـ الربيع ص٢٨٤ .

الظاهر انه بن‌خثيم بن‌عائذ بن‌عبدالله بن‌موهبة بن‌منقذ الثوري، أبويزيد الكوفي الذي قال عنه ابن‌حبان مانصه :

«أخباره‌في‌الزهد والعبادة أشهر من‌ان يحتاج الى‌اغراق، ذكره‌العسقلاني في تهذيب التهذيب ج٢ ص٢٢٣، وقد توفي عام ٨١ هـ » .

٢٢ ـ المهلب ص٢٠٣ .

هو ابن ابي صفرة، ظالم بن سراق الازدي، المتوفى سنة ٨٣ هـ .

٢٣ ـ سعيد بن المسيب ص١٢١ .

هو بن حزن بن أبي وهب المخزومي ، المتوفى سنة ٩٤ هـ .

٢٤ ـ عمر بن عبدالعزيز ص٥٧، ١١٩، ١٥٢، ٢١٦، ٢٦٢، ٢٨١ .

هو ابن مروان بن الحكم الاموي، المتوفى سنة ١٠١ هـ .

٢٥ـ مجاهد ص١١٠، ١٢٣، ١٣٤، ١٥٠، ١٥٣ .

هو ابن جبر أبوالحجاج المخزومي، المتوفى سنة ١٠٤ هـ .

٢٦ ـ عكرمة ص٤٨، ١٤٧، ٢١٥ .

هو بن عبدالله البربري المدني المتوفى سنة ١٠٥ هـ .

٢٧ ـ الحسن ص٥٦، ١٥٢، ١٩٢ .

الظاهر انه الحسن البصري بن يسار (أبوسعيد) المتوفى سنة ١١٠ هـ .

٢٨ ـ ابن سيرين ص١٨٤، ١٨٥ .

هو ابن محمد الانصاري المتوفى سنة ١١٠ هـ .

٢٩ ـ محمد بن علي ص٢٠٥ .

هو الامام الباقر محمد بن علي بن الحسين عليه السلام المتوفى سنة ١١٤ هـ .

٣٠ ـ قتادة ص ١٥٠، ١٩٢ .

هو ابن دعامة بن قتادة المتوفي سنة ١١٨ هـ.

٣١ ـ محمد بن واسع ١٢٢ .

هو بن جابر الازدي المتوفى سنة ١٢٣ هـ .

٣٢ ـ ابن المقفـّع ص١٠٩، ٢٠٦، ٢١٨، ٢٥٤ .

هو روزبه المعروف بعبدالله المتوفى سنة ١٤٢ هـ .

٣٣ - مقاتل ص١٢٧ .

هو ابن سليمان بن بشير الازدى المتوفى سنة ١٥٠ هـ .

٣٤ - محمد بن مروان ص١٣٤ .

هو ابن الحكم الاموي المتوفى سنة ١٠١ هـ .

٣٥ - الأوزاعي ص٧٤، ١٥٠ .

هو عبدالرحمن بن عمرو بن يحمد المتوفى سنة ١٥٧ هـ .

٣٦ - صالح بن عبدالقدوس ص٢٨٣ .

هو ابن عبدالله بن عبدالقدوس الازدى المتوفى نحو سنة ١٦٠ هـ .

٣٧ - سفيان الثوري: ص١٠٢، ١١٢، ١٢٧، ١٣١ .

هو ابوعبدالله بن سعيد بن مسروق المتوفى سنة ١٦١ هـ .

٣٨ - أبوزياد ص١٥٤ .

الظاهر ان المراد به هو الكلابي اللغوي يزيد بن عبدالله بن الحارث بن همام بن دهر بن ربيعة الذي توفي في زمن المهدي العباسي نحو ١٦٨ هـ في بغداد .

قال عنه الخطيب: ان له شعراً كثيراً .

وقال علي بن حمزة البصري في كتاب التنبيه على اغلاط الرواة ما نصه :

(انما بدأت بنوادر أبي زياد لشرف قدرها ونباهة مصنفها.)

٣٩ - المنصور ص٢١٤ .

هو الخليفة العباسي عبدالله بن محمد (أبوجعفر) المتوفى سنة ١٦٨ هـ.

٤٠ - الخليل بن أحمد ص٩٦، ٩٨ .

هو ابن أحمد بن عمرو الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٠ هـ .

٤١ - بشر بن منصور ص٢٨١ .

لعله أبومحمد البصري السلمي المتوفى سنة ١٨٠ هـ .

٤٢ - عبدالحميد ص١٥٥، ٢٤٣، ٢٦٩ .

هو أبوغالب بن يحيى بن سعد الكاتب العامري من أئمة الكتاب توفي سنة ١٣٢ هـ .

٤٣ - عبدالله بن المبارك ص١٠٢ .

هو ابن المبارك بن واضح المروزي المتوفى سنة ١٨١ هـ .

٤٤ - جعفر بن يحيى ص١٠٩ .

هو بن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد المتوفى سنة ١٨٦ هـ .

٤٥ - المؤمل ص٢٧٣ .

هو ابن أميل بن اسيد المحاربي المتوفى نحو سنة ١٩٠ هـ .

٤٦ - يحيى بن خالد ص٢٣٨ .

هو ابن خالد بن برمك الوزير المتوفى سنة ١٩٠ هـ .

٤٧ - الرشيد ص١٠٥، ١١٩، ١٢٠، ١٧٣، ٢٢٢، ٢٨١ .

هو هارون بن محمد بن المنصور العباسي المتوفى سنة ١٩٣ هـ .

٤٨ - الفضل بن سهل ص٢٠٨ .

هو السرخسي أبو العباس وزير المأمون المتوفى سنة ٢٠٢ هـ .

٤٩ - الشافعي ص٢٠٣، ١٥٦، ٢٤٢ .

هو محمد بن ادريس أبوعبدالله المتوفى سنة ٢٠٤ هـ .

٥٠ - الفضل بن الربيع ص ١٧٣ .

هو أبو العباس ابن يونس وزير المأمون المتوفى سنة ٢٠٨ هـ .

٥١ - محمد بن بشير ص٢٢١، ٢٧٧ .

هو أبوجعفر الرياشي البصري المتوفى سنة ٢١٠ هـ .

٥٢ ــ أبوالعتاهية ص١١٨، ١١٩، ١٢٤، ٢٧٩ .

هو اسماعيل بن قاسم بن سويد المتوفى سنة ٢١١ هـ .

٥٣ ــ سهل بن هارون ص٢٤١ .

هو بن هارون بن داهون أبوعمر المتوفى سنة ٢١٥ هـ .

٥٤ ــ الاصمعي ص١٠٥، ١١٩، ١٦٠، ١٧٣ .

هو عبد الملك بن قريب بن على البصري المتوفى سنة ٢١٦هـ .

٥٥ ــ المأمون ص١٤٨، ١٧٧، ٢٥٤ .

هو عبدالله بن هارون الخليفة العباسي المتوفى سنة ٢١٨ هـ .

٥٦ ــ عبدالله بن طاهر ص١٩١ .

لعله ابن الحسين بن مصعب بن زريق الخزاعي المتوفى سنة ٢٣٠ هـ .

٥٧ ــ أبوتمام ص٢٥٦، ٢٦٨ .

هو حبيب بن أوس بن الحارث المتوفى سنة ٢٣١ هـ .

٥٨ ــ الحسن بن سهل ص٢٣٤ .

هو ابن عبدالله السرخسي وزير المأمون المتوفى سنة ٢٣٦ هـ .

٥٩ ــ يحيى بن أكثم ص٢٦٤ .

هو ابن محمد المروزي المتوفى سنة ٢٤٢ هـ .

٦٠ ــ المتوكل ص١٧٧، ١٧٨ .

هو جعفر بن محمد العباسي المتوفى سنة ٢٤٦ هـ .

٦١ ــ الجاحظ ص١٦٣، ٢٨٢ .

هو عمرو بن بحر البصري المتوفى سنة ٢٥٥ هـ .

٦٢ ــ الرياشي ص١٤٥ .

هو العباس بن الفرج البصري المتوفى سنة ٢٥٧ هـ .

٦٣ ـ ابن الرومي ص٢٢٢ .

هو علي بن العباس بن جريج البغدادي المتوفى سنة ٢٨٣ هـ ،

٦٤ ـ أبو العيناء ص١٧٧ ، ١٧٨ .

هو محمد بن القاسم بن خلاد المتوفى سنة ٢٨٣ هـ .

٦٥ ـ ابن المعتز ٦٧، ٧٢، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٨٢ .

هو عبدالله بن محمد بن المتوكل المتوفى سنة ٢٩٦ هـ .

٦٦ ـ ابن دريد ص٢٢٧ .

هو محمد بن الحسن بن دريد البصري المتوفى سنة ٣٢١ هـ .

٦٧ ـ الفارابي: ص٦٥ .

هو أبونصر محمد بن محمد بن اوزغ المتوفى سنة ٣٣٩ هـ .

٦٨ ـ المتنبي (ابو الطيب) ص٧٧، ١٢٦، ٢٢٩ .

هو أحمد بن الحسين بن الحسن الكوفي المتوفى سنة ٣٥٤ هـ .

٦٩ ـ ابراهيم بن هلال الكاتب ص٢٢٣ .

هو ابن هلال بن ابراهيم الصابىء المتوفى سنة ٣٨٤ هـ .

القرن الخامس .

٧٠ ـ أبو الفتح البستي ص١٦٩، ٢٦٣ .

هو على بن محمد البستي المتوفى سنة ٤٠٠ هـ .

٧١ ـ ابن البواب ص١٠٩ .

هو علي بن هلال البغدادي المتوفى سنة ٤٢٣ هـ .

٧٢ ـ عمر بن علي ص٢١٢ .

الظاهر ان المراد به أبو حفص المطوعي النيسابوري المتوفى نحو ٤٤٠هـ .

له شعر رقيق عارض يتيمة الدهر للثعالبي .

هذا ولم يذكر من القرنين السادس والسابع احداً .

وذكر من القرن الثامن واحدا وكذلك من التاسع وهما :

٧٣ ـ محمود الوراق ص١٥٦ .

محمد بن حقي بن محمد الوراق المتوفى حدود سنة ٧٩٨ هـ .

٧٤ ـ البسطامي ص١٢١ .

والظاهر ان المراد به عبدالرحمان بن محمد بن علي المتوفى سنة٨٥٨هـ .

وفي الصفحة ١٠٨ نقل عن مسعدة ، والظاهر ان المراد بـه : مسعدة بن المبارك، الذي ورد ذكره مرة واحدة في كتاب البيان للجاحظ . ـ في آخر الكتاب، باب حكمة كلام النوكى ـ والحكمة التي نقلها الجاحظ عنه هي قوله: الاقلام مطايا الفطن .

وهي تدل على علو كعب قائلها .

وبهذا المقدار نكتفي من التعريف بالمؤلف والمؤلّف. وأما التفصيل عن تخريج الاحاديث والحكم والاشعار والابيات وتراجم أصحابهـا فموكول الى التعليقات بالتسلسل[1] .

وكان الله في عون كل مخلص أمين .

محمد حسين الجلالي

---

(١) نود أن نذكر للقراء الاعزاء : أن تلك التعليقات فقدت بنوائب الدهر وغير الزمان التي دارت به. ادام الله ظله .

وقد قمنا بتسجيل تخريجات النصوص والاشعار أثناء تحقيقنا للكتاب ، ولكننا لم نثبتها في هذه الطبعـة . على أمل ان نعيد طبع الكتاب مع التخريجات ، اضافـة الى تعليقات العلامة المحقق، اذا يسر الله وجودها، ان شاءالله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

لايصل الانسان الى الكمال الا بالتزكية والتربية الخلقية فبقدر مايكتسب من مكارم الاخلاق ومحاسنها يكون حائزاً على الكمال والشرف .

فالاخلاق هي التي تبني شخصيـة الانسان وهي التي تشكّل البعد الاخر والاساسي لوجوده وتضفي عليه الجمال والبهاء .

وما الانسان ـ لولا الاخلاق ـ الا كالبهيمة السائمة أو الوحش الضاري بل قد ترتفع قدر البهائم عنه ـ لو عدم هذه الفضيلة ـ فيكون كماقال تعالى : «أولئك كالانعام بل هم أضلّ»[1] .

وهذا هو الواقع، فان البهيمة ان كانت تكتفي بمايسد رمقها فان الانسان ـ الذي ينسلخ من الاخلاق ـ لن يرتوي باراقة الدماء وقتل الابرياء ابداً، بل يظلّ يمارس القتل والفساد حتى يعجز بالموت .

والنماذج لهذا ـ في عصرنا الحاضر ـ عديدة: فسوموزا، ومار كوس ، وكارمل،وبيگن ، وصدام، وهيلاسيلاسي . . جاوزوا بارهابهم وسفكهم للدماء

---

(١) سورة الاعراف: ١٧٩/٧ .

الزكية، وقصفهم المدن الاهلة بالسكان العزّل، كل التصورات ..

ومن يتابع حياة هؤلاء يجد انهم لم يدعوا مأثماً وجريمة الا ارتكبوها وان مالم يفعلوه ، فلم يكن لزهد فيه ، بل لعدم مقدرتهم عليه .

ومن هنا فان جميع رسالات السماء جاءت لتحفظ الانسان في مسير التكامل وتمنعه من الانحراف والانزلاق في مزالق الهوى والشذوذ .

والاسلام ـ كخاتمة لشرائع السماء ـ جاء ليتابع هذا الموضوع بجدية وشمول فقد قال الرسول الاعظم ﷺ : انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق .

فكم من دروس وعظات قدّمها ﷺ لامته ، وكم من تعاليم ووصايا اجتماعية حرص على تطبيقها .

وحث ﷺ المسلمين على اتباع أفضل الاساليب في المعاشرة والسلوك مع بني نوعهم بل مع جميع الموجودات . .

وعلى هذا أيضاً سار الائمة الهداة من آل البيت عليهم السلام فأكّدوا على الالتزام بشريعة الاسلام من اجل بناء مجتمع أفضل في عالم أفضل ، وأشادوا بالمكانة السامية (لعلم الاخلاق) في تعديل السلوك ، وتوجيه الغرائز نحو الخير والسلام .

ولهذا فقد اهتمّ علماء الاسلام بدراسة هذا العلم وألّفوا فيه العديد من الكتب ، والتي تعدّ ـ بحق ـ فخراً لامتنا في عرض المنهج الصحيح للحياة ..

وأتخذ علماء الاخلاق أساليب مختلفة في عرض هذا العلم الشريف :

فبينما يسلك العلامة ابن مسكويه (٣٢٠ هـ ـ ٤٢١ هـ) ، المنهج الفلسفي في تدوين كتابه : (تهذيب الاخلاق، وتطهير الاعراق) فيعتمد على الادلة العقلية والبراهين المنطقية، نجد العلامة الغزالي (٤٥٠ هـ ـ ٥٠٥ هـ)، يعتمد في تأليف

كتابه: (احياء علوم الدين) على الاحاديث النبوية والايات القرآنية في عرض القضايا الاخلاقية ، بعيداً عن الاستدلالات العقلية والبراهين الفلسفية .

والى جانب هذين الاسلوبين في عرض علم الاخلاق يطالعنا مؤلف هذا الكتاب: (الشيخ عزالدين الحسين بن عبدالصمد) باسلوب ثالث يجمع بين عمق الاسلوب الاول وأصالة الاسلوب الثاني، وهو اسلوب عرض الاخلاق على ضوء القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة متبوعة بالادلة العقلية وأقوال الحكماء والعلماء في ذلك الشأن .

ولعل أهم مايتميز به (نور الحقيقة) من بين كتب الاخلاق الى جانب استيعابه لاهم البحوث الاخلاقية هو : انه يعرض مكارم الاخلاق بابلغ لفظ وأوجز كلام ، ممايشدّ القارىء بالكتاب ويجذبه الى المزيد من القراءة فلا يكاد ينتهي القاريء من تلاوة حكمة الا و يرغب في قراءة الاخرى ولا ينتهي من فصل الا ويبدأ بآخر .

نسخ الكتاب :

نسخ هذا الكتاب قليلة، ولعل نسخته الكاملة منحصرة بالفرد ، وقد يكون السبب في هذا هو: هجرة الكتاب الى ايرلندة، وعدم وجوده في متناول ايدي علماء الاسلام . وعلى كل حال فقد اعتمدنا في تحقيق نص الكتاب على :

١ ـ مصورة عن نسخة مكتبة جستربتي برقم (ام ـ اس ـ ٣٨٢٠) وهي النسخة التي رآها العلامة الشيخ اغا بزرك الطهراني في كربلاء ، ووصفها في :كتاب الذريعه ج٢٤ ص٣٦٧ [١].

---

(١) قد مضى وصف الشيخ لهذا الكتاب في ص٨ ـ ١٠ .

ولهـذه النسخة فهرس وضع في أول الكتاب زهـاء صفحتين ونصـف الصفحة .

ذكر فيها ابواب الكتاب الاثنين والعشرين مع ذكر فصولها وعبارة من اول كل فصل .

فمثلا : في باب العلم نجد الفهرس لفصوله بالشكل الاتي :

(فصل : ومما يجب على العلماء ان لايبخلوا . .

فصل : المتعلم ضربان طالب ومستدعى ...

خاتمه : ربما كان لبعض السلاطين رغبة في العلم) .

وفي باب الكتابة :(فصل : قد يعرض للخط مايمنع من فهمه).

وكتب في اخر الفهرس :

(باب الموت فصل : القبر، وهو خاتمة الكتاب والفصول

اللهم اختم اعمالنا بالقبول ، وسهـل لنا بلوغ المأمول وانظمنا في سلك اصحاب العقول انك انت اللطيف الخبير وبالقبول حريّ جدير) .

والفهرس بهـذا الشكل ان دل على شيء فهـو يدل على ان الفهرس قـد وضع بعد الانتهاء من تدوين الكتاب .

وعدد صفحات هذه النسخة ١٨٤ صفحه .

وفي كل صفحة ٢١ سطراً وطول كل سطر ٧ سانتيمترات ونصف.

وليس على هـذه النسخة هوامش كثيرة ـ غير ما كان للسقط الطـارىء أثناء الاستنساخ ـ الاهامشين كتبـا بخط يغاير الخط الـذي كتب به المتن ، وهذا يعني : انهما كتبا بعد كتابة المتن استدراكاً وتعليقاً اضافياً .

وقد اشرنا الى كليهما في الهامش انظرص٣٨ وص٢٥٣أدرجنا السقط في المتن من دون اشارة الى موضعه في النسخة .

ولهذه النسخة تعقيبات تدل على اول كلمة في الصفحة المقابلة

وأما التملكات فيمكن قراءة تملك درويش محمد العيفاوي النجفي ثم تملك ولده ابراهيم بخطيهما .

وهناك تملك اخر لم يتبين لنا اسم المالك الا كلمة الموسوي .

وكتب منصور بن على عقيل الحسيني عليها انه نظر وطالع في هـذا الكتاب .

وجميع هذه التملكات خاليه عن التاريخ ..

ويحتمل قوياً ان لاتكون هذه النسخه هي نسخة الاصل التي كتبها المؤلف وذلك لما يلي .

اولا : ان رسم الخط الذي كتب به الكتاب هو بعينه الرسم الذي كتب به احد ابناء عم المؤلف رباعيته :

فيحتمل ان يكون ناسخ النسخة هو: تقي الدين بن علاء الدين بن تقي بن عبد الصمد، ان لم يكن الناسخ متأخراً عنه أيضاً.

وثانياً ان فهرس مواضيع الكتاب قد وضع في اوله وليس الفهرس على نحو يحتمل فيه : أن يكون لتذكر المطالب . بل قد ذكر في الفهرس سطراً أونصف سطر من أول كل فصل من فصول الكتاب. وهذه قرينة على ان الكتاب وجد مكتوباً فبدأ باستنساخ ووضع لفهرس قبل استنساخ الكتاب .

ولو كان المؤلف هو نفسه قد كتب الكتاب لوضع الفهرس آخر الكتاب كما هو العادة .

وثالثاً كثرة السقط الموجود في هوامش الكتاب، حتى انه احياناً تسقط كلمة واحدة أونصف سطر ،اوسطر ،مما لايكون ذلك من شأن المؤلف عند تأليف

الكتاب .

ثانياً: النسخة التي وقفنا عليها في مكتبة اية الله العظمى السيد شهاب الدين النجفي المرعشي في قم ضمن المجموعة رقم ٣٩٣ منسوخة عن نسخة اخرى كما ورد في وصف المخطوطة [1].

ويحتمل ان تكون النسخة المنقولة عنها هي النسخة الاولى والذي يؤيد هذا الاحتمال ان العبارات الغير واضحة في النسخة الاولى كتبت كما هي في هذه النسخة وايضاً فان موارد السقط مشتركة بين النسختين .

وفهرست مواضيع الكتاب قد وضع في اول الكتاب كالنسخة الاولى .

وقد اثبت على الورقة الاولى من هذه النسخة :

نور الحقيقة ونور الحديقة مما عني بتأليفه وترصيفه أفقر عباد الله تعالى واحوجهم الى رحمة ربه الغني حسين بن عبد الصمد الحارثي الهمداني ، أصلح الله شأنه وصانه عما شانه في حاله ومآله بمحمد وآله ..

وقد كتب السيد المرعشي على الصفحة الاولى من المجموعة :

(في هذه المجموعة كتابان احدهما للشيخ حسين بن عبد الصمد، والآخر كتاب حياة الارواح ومشكاة المصباح ، للشيخ الجليل ابراهيم بن على بن الحسن بن محمد بن صالح بن اسماعيل اللويزاني الجد، الجبعي الاب الكفعمي «صاحب المصباح» «والبلد الامين» وغيرهما .

والكتابان في غاية النفاسة ولم يطبعا بعد، وقد أكرمني بهذه النسخة الفاضل الاديب المؤلف الميرزا محمدعلي صفوت التبريزي زمن مجاورته بقم المشرفة

(١) فهرست كتابهاى خطى كتابخانه آية الله مرعشي ج ١ ص ٤١٠ ما ترجمته :النسخة المنقولة عنها هذه النسخة كان فيها سقط ، ولم يكتب مقداراً من أول الكتاب ، والباب السابع عشر، ومقدارا من آخر الكتاب .

حرره العبد شهاب الدين الحسيني المرعشي ١٣٨٠هـ) .

واما ناسخ الكتاب فهو كماورد في الصفحة الاخيرة من هذه المجموعة: ـ

تم تحريره على يد الفقير الحقير المقر بالتقصير أقل عباد الله تراب اقدام المؤمنين عين علي بن طهماسب ملا رجاني بتاريخ شهر جمسادى الاخر سنة تسع وخمسين بعد الالف (١٠٥٩ هـ) .

هذا وقد كتبت جميع المجموعة بخط واحد ..

وهذه النسخة ناقصة من الأول بمقدار ثلاث صفحات ومن الاخر بمايقرب من نصف الكتاب ـ كما اشرنا اليه ـ

وعدد صفحات هذه النسخه حسب ترقيم المكتبة ٦١ صفحة مزدوجة .

وفي كل صفحه ٢١ سطراً .

وطول كل سطر ٧ سانتيمترات ونصف .

وتبدأ النسخة بقوله: أما الغريزي و ونعني به ماسماه الحكماء عقلا بالملكة وجعله الشارع مناط التكليف فقيل هو العلم ببعض الضروريات . . .

وهذا هو في الصفحة (٣٦) من هذا الكتاب .

وتنتهي بقوله : وليس قولنا ذلك، اغراء بتحكيم الغضب ، بل المراد انه اذا صدر مايغضب أوقع الحلم على احد الوجوه التي .

وهذه العبارة هي في اواخر الصفحة ١٣٥ من نسخه الاصل، وفي هذا المطبوع تكون في الصفحة (٢١٤) .

ومن الجدير بالذكر ان الناسخ قد تصرف في بعض عبارات التسليم والترضية .

فغير عبارة (عليه السلام) الى (صلى الله عليه وآله) عند ذكر الرسول

الاعظم ﷺ .

وغيرعبارة (رضي الله عنه) او (كرم الله وجهه) الـى (عليه السلام) عند ذكر الإمام علي عليه السلام .

وحذف عبارة الترضية التي ذكرها المصنف لبعض الصحابة .

واما العبارات المشطوبة عليها في نسخة الاصل فلم يوردها الناسخ رأساً ولم يشر اليها .

وعنوانات هذه النسخة مكتوبة بالاحمر، بينما اصل الكتاب مكتوب بالاسود .

وأما تملكات هذه النسخة .

فاول ما يطالعنا تملك ذوالفقار الرضوي . وتاريخ الختم غير واضح .

وقد استعار الكتاب لعدة أيام، زين الدين حسين الرضوي سنه ١١٥٦هـ .

ثم انه قد اشتراه من مالكه كما يدل عليه ما كتبه على اخر المجموعة بنفس التاريـخ .

وكان آخر من تملكه قبل اهدائه الى مكتبة السيدالمرعشي هو محمدعلي صفوت . الذي اهداه بدوره الى السيد المرعشي بتاريخ ١٣٢٦/٧/٢٠ هـ .

منهجنـا فـي التحقيق

١ ـ عمدنا الى تغيير رسم الخط لبعض الكلمات الى ماهو المتداول المعمول به في الوقت الحاضـر .

مثل: مساويه ص ٢٠٨ ، أوكد ص ٢٠٩ و٢١١ ، جبريـل ص ٢١٠ مخط ص ٢٣٨ ، سخاوان ص ٢٣١ ، السايل ـ الوفا ص ٢٣٨ المصايب ص ٢٧٧ بقاك ـ قناك ص ٢٨١ . فقد ابد لناهذه الكلمات وامثالها الى الرسم المتدوال.

٢ ـ ابدلنا رموز التسليم على الرسول الاعظم ﷺ الى عبارة التسليم وذلك

مشاكلة لاكثر الموارد التي ورد التسليم على الرسول ﷺ فيها صريحاً .

واما عبارات الترضية فالواضحة منها اوردت كما هي ، وغير الواضحة اوردت بـالرمز (رضه).

٣ ـ وقد سمّينا النسخة التي رآها الشيخ اغابزرك الطهراني بكـربلاء بـ (نسخة الاصل) بينما سمّينا النسخةالتي وقعناعليها فيمكتبةاية الله المرعشي في مدينة قم بـ (نسخة المرعشي) .

٤ ـ هذا وقد اعرضنا عنالاخطاءالكثيرةالتي كانت في النسخة الثانية بعد ان تأكدنا من خطئها بمراجعة نسخة الاصل ولم نشر في الهـامش الا الى ما احتملنا صحته .

٥ ـ لم نورد العبارات المشطوبة عليها في نسخة الاصل خصوصاً وان النسخة الثانية كانت قد اعرضت عن ايرادها رأساً .

٦ ـ أما بالنسبة الى مصادر التحقيق فقد راجعنا مصادر كثيرة للتأكدمن صحة ما احتملناه الا انالم نشرالا الى بعضها فيهوامش الكتاب .

واخيراً: نظراً لعدم وجود علامات التشكيل في المطبعة لم يمكننا تشكيل الايات القرآنية ونصوص الاحاديث مع ان نسخة الاصل كانت تحتوي على موارد مشكولة . على امل ان نعمد الى ذلك في الطبعات القادمة باذن الله .

وفـي الختام

وانا اذ اقدم هذا الكتاب القيّم الىالامة الاسلاميةأسأل الله سبحانهوتعالى أن يتقبّل هذا المجهود بقبول حسن وان ينفع به المسلمين مناجل بناء حياة افضل وافساح المجال لوعي اسلامي متفتح ينطلق في التقدم والازدهار علـى اساس تفهمالقرآن الكريم واستيعابالسنة النبوية الشريفة . ويعمل علىتوفير الرفاه والسعادة لجميع بني الانسان انه ولي قدير . محمد جواد الجلالي

قم المقدسة : فى رمضان سنة ١٤٠٣ ﻫ

نور الحقيقة ونور الحديقة

في علم الأخلاق

للشيخ عز الدين

الحسين بن عبد الصمد الحارثي الهمداني العاملي

٩١٥هـ - ٩٨٥هـ

والد الشيخ البهائي

حققه

محمد جواد الحسيني الجلالي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق العقل بكمال قدرته وجعله مستودعاً للعلم
ما تكمل به النفس الناطقة بلطيف حكمته وارشدها به الى
وجوه المعاش بنعمته وندبها به الى التحلي بمحاسن الآداب
والكون على اعدل الحالات برأفته الذي تنزه بسطوة
سلطانه عن الصاحبة والرفيق وتقدس بعظمة عزته
عن الولد والشفيق فمن يكفر بالله فكأنما خر من السماء
فتخطفه الطير او تهوي به الريح في مكان سحيق
أحمده حمداً استدر به ينابيع آلائه واشكره
شكراً استمطر به سحائب نعمائه واشهد ان لا اله الا الله
شهادة يسلم شاهدها من اقتحام المهالك وينجو جاحدها
عند انسداد المسالك واشهد ان محمداً عبده ورسوله
الذي انزل الهدى على موضوعات الوجود تشريفاً له
وتعظيماً وجعل نفسه المقدسة في حضرة جلاله قدسية ازلاً
له وتكريماً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

افقر عباد الله الى رحمة الله ...
... غفرانه واحسانه
... قد

صورة الصفحة الاولى من نسخة الاصل التي رآها الشيخ آغا بزرك الطهراني في كربلاء

[illegible] موت و وجد مكتوبا على قبرهما

ثم [illegible] ثم صرنا [illegible] ووجد

على فرس [illegible] وقد راى [illegible]

[illegible] وحيش [illegible] كان

[illegible] فها انا ذا قد قطعت الكلام

حامدا [illegible] شاكرا على انعم الكرام

مصليا على محمد النبي والدعاء [illegible] الائمة الاعلام

[illegible] ان ينفع به المسترشد الطلاب

[illegible] يوم الحساب

[illegible] ان يكون نظره

بعين [illegible] الا الاستقصاء [illegible]

فليسدل ثوب الستر وليفتح باب العذر

[illegible] في تاليفه وترصيفه فكري

[illegible] فيه وزري فاني

قد [illegible] ولكن ليس من [illegible] كتاب انسان

[illegible] ليس [illegible] من [illegible] انسان

[illegible]

[illegible]

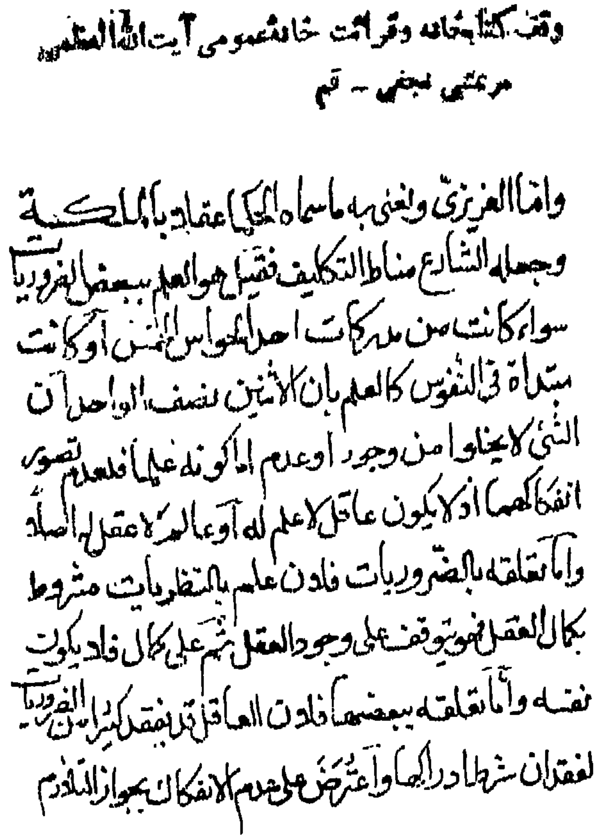
[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

صورة الصفحة الاخيرة من نسخة الاصل بتاريخ ٩٤٥/٨/٣ هـ .



واما العزيزي ونعني به ما سماه الحكماء عقلا بالملكة
وجعله الشارع مناط التكليف فقيل هو العلم ببعض الضروريات
سواء كانت من مدركات احد الحواس الخمس او كانت
مبتداة في النفوس كالعلم بان الاثنين نصف الواحد وان
الشئ لا يخلوا من وجود او عدم اما كونه علما فلعدم تصور
انفكاكهما اذ لا يكون عاقل لا علم له او عالم لا عقل له اصلا
واما تعلقه بالضروريات فلان العلم بالنظريات مشروط
بكمال العقل فهو يتوقف على وجود العقل ثم على كماله فلا يكون
نفسه واما تعلقه ببعضها فلان العاقل قد يفقد كثيرا من الضروريات
لفقدان شرط ادراكها واعترض على عدم الانفكاك بجواز التلازم

صورة الصفحة الاولى من نسخة مكتبة آية الله المرعشي ضمن المجموعة رقم/ ٣٩٠٣ .

كما ندم المغبون لما تفرق ح الخوف من العقوبة على الجواب

وهذا من ضعف النفس وربما اوجبه الراى واقتضاه الحزم فقد

قيل الحلم حجاب الآفات [illegible] الغاليد سالفه وحرمة لازمة

وهذا يكون من الوفا وحفظ العهد ففي منثور الحكم الكريم [illegible]

للذمم قال الشاعر ان الوفا على الكريم فريضة واللوم مقرون بذي

الاخلاق فترى الكريم لمن يعاشر منصفا وترى

اللئيم مجانب الانصاف [illegible] المكسر وتوقع الفرص في الخفية

وهذا من الدها ففي منثور الحكم من ظهر غضبه قل كيده وقال

بعض الادبا غضب الجاهل في قوله وغضب العاقل في

فعله [illegible] قصد ايذائه وتزايد غيظها بالسكوت عنه [illegible]

واهمال الشاتم في بعض الموارد ربما كان اوجع لقلبه

واشد على نفسه قال بعض الحكما اذا سكت عن الجاهل فقد

اوسعته جوابا واوجعته عقابا وقال الشاعر واكف

عن شتم اللئيم تكرما اضر له من شتمه حين يشتم فهذه اسباب

الحلم وبعضها افضل من بعض والاولى ان يدعو المرء الى الحلم

افضل اسبابه واذا عري عن احد هذه الاسباب كان ذلا لا حلما

لان من ذكرنا في حده انه ضبط النفس عن هيجان الغضب

فاذا فقد الغضب بعد سماع ما يغضب كان ذلك من ذل

النفس وصغارتها وقلة الحمية وفقد الشجاعة والغيرة

والدفاع والاخذ بالثار وليس قولنا ذلك اغرى بتحكيم الغضب

بل المراد انه اذا صدر ما يغضبه اوقع الحلم على احد الوجوه التي

صورة الصفحة الاخيرة من نسخة مكتبة آية الله المرعشي .

«وهي في الصفحة ٢١٣ من هذا المطبوع» .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق العقل بكمال قدرته ، وجعله مستعداً لعلم ماتتكمل به النفس الناطقة بلطيف حكمته ، وأرشدها به الى وجوه المعايش بنعمته، وندبها به الى التحلي بمحاسن الاداب ، والكون على أعدل الحالات برأفته ، الذي تنزه بسطوة سلطنتـه عن الصاحبة والرفيق ، وتقدس بعظمة عزتـه عن الولـد والشفيق «ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق»[1].

أحمده حمداً أستدرّ به ينابيع آلائه ، وأشكره شكراً أستمطربه شآبيب نعمائه ، وأشهد أن لااله الا الله شهادة يسلم شاهدها من اقتحام المهالـك ، ويندم جاحدها عند انسداد المسالك .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، الذي أخذ له العهود على موضوعات الوجود ، تشريفاً له و تعظيماً ، وجعل نفسه المقدسة في حضرة جلال قدسه ، اعزازاً له وتكريما ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً .

---

(١) سورة الحج : ٣١/٢٢ .

[ـوبعد فيقولـ](١) أفقرعباد الله الى رحمة ربه الغني[...](٢) بغفرانه واسكنه [...](٣) مما قد [...](٤) ونواهيهم ونوافلهم (٥) وأورادهم (٦) [....](٧) أعمالهم ، فبذلوا في سبيل الله أنفسهم وأموالهم ، فنسج غيرهم بعدهم على منوالهم ، واقتدى بهم في أقوالهم وأفعالهم .

فخلد الله على ذلك عز دولته (٨)، وبلغه من أعدائه ـ أعداء الدين ـ فوق أمنيته ، وحرس من الغير(٩) سلطانه ، وقرن بنفاذ الامرفي الاقاليم السبع يده ولسانه ، ليدوم على أهل الايمان عموم التفضل والعز والامان .

ولما كان لكل مخلوق في هذا الدعاء حظ وافر يصل اليه كان جديراً بالحكيم المتفضل قبوله ، بل والزيادة عليه ، انه هو الرؤف الرحيم .

ثم اني تحريت في كتابي هذا الاختصار على حسب الحال ، وقدر سعة

(ـ) هكذا ظاهراً والاصل بياض .

(٢) بياض في الاصل مقدار خمس كلمات .

(٣) بياض في الاصل مقدار ست كلمات .

(٤) بياض في الاصل مقدار ستة أسطر تقريباً .

(٥) النافلة : مايفعله الانسان مما لا يجب عليه وفي التنزيل العزيز : فتهجد به نافلة لك (لسان العرب) .

(٦) الورد : النصيب من القرآن . ـ قال أبو عبيد : تأويل الاوراد انهم كانوا أحدثوا ان جعلوا القرآن أجزاء كل جزء منها فيه سور مختلفة من القرآن على غير التأليف جعلوا السورة الطويلة مع اخرى دونها في الطول ثم يزيدون كذلك حتى يعدلوا بين الاجزاء ويتمموا الجزء ، ولايكون فيه سورة منقطعة ولكن تكون كلها سوراً تامة . والورد أيضاً: الجزء من الليل يكون على الرجل يصليه (لسان العرب)

(٧) بياض في الاصل مقدار كلمتين .

(٨) الضمير عائد الى السلطان الذى له هذا الدعاء .

(٩) الغير: جمع غيره ، وغير الدهر : أحداثه المغيرة .

الاحتمال ، ولم أطلق للقلم العقال ، والا لقال في هذا النحو فأطال فربما أفضى الى الملال فالاهمال .

و هـا أنا استمنح من كرم الجواد المتعال أن يجعلني من أهـل الفعـال [...][1]

(١) بياض في الاصل مقدار ثلاثة أسطر تقريبـاً . وحسب تتبعنا فلابد أن يكون عنوان الباب الاول وهو (باب العقل) ضمن هذا الساقط والبياض الممسوح .

باب العقل [1]

. . . .

وكونه ذا اعتبارات ...[2] ومايترتب على ذلك وتقسيمهم العقـل للنفس الناطقة على أربعة أقسام .

والكلام على ذلك مبيّن في الكلام [3] وانما كلامنا هنا في العقل المصطلح وهو قسمان : غريزي ، ومكتسب :

اماالغريزى [4] ونعني به ماسماه الحكماء عقلا بالملكة وجعله الشارع مناط التكليف فقيل : هو العلم ببعض الضروريات ، سواء أكانت من مدركات أحد الحواس الخمس ، أوكانت مبتدأة في النفوس ،كالعلم بأن الاثنين نصف الواحد ، وأن الشيء لايخلو من وجود أو عدم :

أما كونه علماً : فلعدم تصور انفكاكهما ، اذ لايكون عاقل لاعلم له أوعالم

---

(١) العنوان زيـادة منا ، وفي النسخة نقص ـ كما اشرنـا ـ وتبدأ من قولـه : وكونه ...

(٢) كلمة غيرمقروءة .

(٣) أى فى علم الكلام .

(٤) من هنا تبدأ نسخة مكتبة آية الله المرعشى .

لاعقل له أصلا .

وأما تعلقه بالضروريات : فلان العلم بالنظريات مشروط بكمال العقل فهو يتوقف على وجود العقل ثم على كماله ، فلايكون نفسه .

وأما تعلقه ببعضها : فلان العاقل قد يفقد كثيراً من الضروريات لفقدانه شرط ادراكها .

واعترض على عدم الانفكاك بجواز التلازم بينهما .

وقال الامام [١]: العقل غريزة يتبعها العلم ببعض الضروريات عند سلامة الالات ، اذ النائم لم يزل عقله ، وهوغيرعالم ـ في حالة النوم ـ بشيء من الضروريات ، وكذا اليقظان الذي لايستحضر شيئاً لدهشة وردت عليه ، فمن ثم ظهر أن العقل ليس عبارة عن العلم بالضروريات لابعضها ولا كلها، أما اذا كان سالماً عن الافات كلها في الالات كلها فانه يكون مدركاً لبعض الضروريات قطعاً .

وقد ظهرمن حال النائم أن العلم قد ينفك عن العقل فلايتم ماذكر أولا [٢] كما لم تتم الملازمة .

وفيه شيء .

نكتة : وانما سمي العقل عقلا ، تشبيهاً بعقال الناقة، فكما أن العقال يمنع الناقة من الشرود اذا نفرت ، كذلك العقل يمنع صاحبه من القدوم على شهواته اذا قبحت.

واما المكتسب : فهو من نتائج الغريزي : وهوعبارة عن نهاية المعرفة،

(١) هو الامام الفخر الرازى .

(٢) في نسخة المرعشي ماذكر فيه .

وصحة السياسة ، وحسن المداراة فـي كل الامور ، وأصابة الفكر [١] وليس لهذا حد ّ لانه ينمو اذا استعمل ، وينقص اذا أهمل، واستعماله بكثرة التجارب لان التجربة مرآة العقل ، والغرة ثمرة الجهل ، قال الشاعر:

ألم تر أن العقل زين لاهله ولكن تمام العقل طول التجارب

وقال الشاعر:

اذا طال عمر المرء في غير آفة أفادت لـه الايام في كرها عقلا

ولهذا حمدت العرب آراء الشيوخ ، ومن أ كثر من ممارسة الامور، فقالوا: المشايخ أشجار الوقار ومنابع الاخبار لا يطيش [٢] لهم سهم ولا يسقط لهم وهم .

وقالوا : عليكم بآراء الشيوخ فانهم ان فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر ، وتصد ّت أسماعهم لاثار الغير.

وفي منثور الحكم : من طال عمره نقصت قوة بدنه وزادت قوة عقله .

وقد يكون نمو ّه لفرط الذكاء وحسن الفطنة ، فانهما اذا امتزجا بالعقـل الغريزي صار نتيجتها نمو العقل المكتسب .

وهذا كالذي يكون في الاحداث من وفور العقل وجودة الرأي ولقد قالت العـرب : عليكم بمشاورة الشبّان فانهم ينقلون رأياً لم يقله طول القـدم ولا

---

(١) ورد فى هامش نسخنا هذه العبارة : (هذه الامور ، فى حقيقة الامر ، تصدر عن العقل المكتسب ، فيدل عليه دلالة الاثر على المؤثر ، وليست منه كما لايخفى ، الا أنه لما لم يمكنني تعريفه تحررت فى التفرعة) الا انها فى نسخة المرعشى ذكرت فى المتن . وانما ذكرناها فى الهامش لمغايرتها فى الخط لمتن نسختنا ولعله توضيح منه (قدس سره) .

(٢) طاش : مال عن الهدف .

استولت عليه رطوبة الهرم وقال بعض شعرائهم :

رأيت العقل لم يكن انتهاباً ولم يقسم على عدد السنين

ولـو أن السنيـن تقاسمته حـوى الاباء أنصبة البنيـن

ثم ان العقل المكتسب لاينفك عن العقـل الغريزي ، لانه نتيجته ، وقـد ينعكس ، فيكون صاحبه مسلوب الفضائل ، موفور الرذائل ، ملحقاً بالبهائم ، شبيهاً بالجماد أو النائم .

فصل(١)

واماالدهاء والمكر : فهومذموم لان صاحبه صرف فضل عقله الى الشر، ولوصرفه الى الخير لكان محموداً .

وقد اختلف فيمن صرف فضل عقله الى الشروالدهاء ك(زياد) وأشباهه من الدهاة هل يسمى ذلك منهم عقلا أم لا ؟

قال بعضهم : اسميـّه عاقلا ، لوجود العقل فيه .

وقيل : بل لايسمي عاقلا حتى يكون فاضلاخيراً ديناً ، لان الخير والدين من مقتضيات العقل، أما الشرّير : فلايسمى عاقلا ،بل صاحب فكرة ورويـّة .

واقول : (٢) لكل من الاصطلاحين وجه ، وان تأيد الثاني بأمور :

منها . ماقيل : العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه .

وأقول : لعله محمول على كمال العقل وسقوط غيره عن درجة الاعتبار ، وأمثاله كثير.

ومنها : ماقاله امة من أصحابنا الشافعية : انه لو أوصى لاعقل النـاس ؟ يكون مصروفاً الى الزهاد الاتقياء ، لانهم انقادوا للعقل ولم يغتروا بالامل .

ومنها : ما روي عن رسول الله صلى الله عليه أنه قال : يا عويمر ، ازدد

---

(١) العنوان زيادة في نسخة المرعشي فصل : الدهاء والمكر.

(٢) ليس في نسخة المرعشي .

عقلا تزدد من ربك قرباً ، وبه غنى .

قال : فقلت : فداك أبي وأمي ، ومن لي بالعقل ؟

فقال : اجتنب محارم الله، وأدّ فرائض الله ، تكن عاقلا .ثم تنفل صالحات الاعمال ، تزدد في الدنيا عقلا ، وتزدد من ربك قرباً وعزاً.

وأقول : لادلالة في الموضعين الاخرين [١] أيضاً على المطلوب [٢]،لان الكلام ـ فيهما ـ في زيادة العقل ، كما يدل عليه لفظ « أفعل التفضيل » في الاول ، ولفظ «ازدد» في الثاني .

والكلام في قوله : «تكن عاقلا» على نحوماتقدم [٣].

فيكون القول الاول قوياً ، ان كان الاختلاف في التسمية لغة ، وان كان بحسب الاصطلاح فلانزاع فيه ، والله تعالى أعلم .

(١) هما ١/ماقاله جماعة من الشافعية ، ٢/المروى عن رسول الله (ص) .

(٢) وهو القول الثاني ، وهو ان العاقل من كان خيراً دينا .

(٣) وهو الحمل علي كمال العقل .

فصل

والعقل من أشرف مخلوقات الله تعالى ، وأدلها علـى وجوده ووحدانيته وقدرته التامة وحكمته البالغة .

وقد روي ان الله جل وعلا خلق العقل قبل كل شيء ثم قال له : أقبل ،فأقبل ثم قال له : أدبر، فأدبر، فقال تعالى : وعزتي وجلالي ماخلقت خلقاً أشرف منك ، ولاجعلنّك في أحب الخلق الي .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال :العقل نور يقع في القلب يفرق به بين الحق والباطل .

وقال بعض الحكماء : اذا عقلك عقلك عما لايعنيك فأنت عاقل .

وقال بعض العلماء : العاقل اذا والى بذل في المودة نصره ، واذا عادى رفع عن الظلم قدره ، فيسعد مواليه بعقله ويعتصم معاديه بعدله .

وقال بعض الصلحاء : أعقل الناس رجل وسع الله عليه في الدنيا، فشكر ليوسّع عليه في الاخرة ، ورجل ضيق الله عليه في الدنيا ، فصبر، لئلا يضيّق عليه في الاخرة .

وقال بعضهم : حسن العقـل الجمال الباطن ، وحسن الصورة الجمـال الظاهر.

وقال بعض الشعراء :

مـا وهب الله امـرءاً هبـة ... أحسن من عقله و من أدبـه

هما جمال الفتى فان فقدا [فـ] فقده للحياة أجمل بـه

وقال بعض البلغاء : العقل ملك ، والخصال رعيّته ، فاذا ضعف عن القيام عليها ، وصل الخلل اليها .

سمع هذا بعض الاعراب فقال : هذا كلام يقطر عسله .

فالحاصل : ان العقل رأس كل صلاح دنيوي وأخروي :

أما الدنيوي : فواضح مايترتب عليه في أمور المعاش واكتساب الفضائل والودّ من الناس ، وغير ذلك .

وأما الاخروي : فأبلغ من ذلك بأضعاف مضاعفة ، من حيث أنه دال على معرفة الله تعالى ، ومعرفة أنبيائه ، ومعرفة ما جاءوا به من الاوامر والزواجر والمعارف .

ثم انه باعث على امتثال الاوامر والكف عن الزواجر ، لما يعلمه (١) مما يترتب على ذلك من الثواب الجزيل والنعيم الدائم الذي لايحصى عدده ولاينقطع أمده . مع النجاة من العذاب الاليم كذلك ، وهل فوق هذا سعادة ؟ أو يتصور أحد عليه زيادة ؟

ومن ثم اعتقد أولياء الله تعالى أن من لم يطع الله فلا عقل له . ولعمري لقد أصابوا الصواب في ذلك لان الناس تحكم بعدم عقل من أذهب ماله في مضيعة ، فكيف بمن (٢) أذهب دينه ؟

وتحكم بحمق من أقبل على مخالفة سيده في الامور المقدورة الموجبة اساءة سيده اليه، فكيف من أقبل على مخالفة خالقه ورازقه وهو يعلم أنه مقتدر عليه ؟

---

(١) في نسخة المرعشي : لما يعلم .

(٢) في نسخة المرعشي : من

وأبلغ من ذلك: أن أحداً لايشك في جنون من عمد الى زوجته ـ مثلا ـ فجامعها والناس تنظر اليه، على أنهم لايقدرون له على ضر"، فكيف من يتعاطى المعاصي وهو يعلم أن موجد العالم ومدبره مطلع عليه ؟ هل هذا الامحض الجنون؟!

ولهذا قيل : الجنون على فنون .

اللهم اسلك بناسبيل الرشاد ، واجعلنا من أهل السداد، انك انت الكريم الجواد .

ومن ثم ذهب بعض السلف الى: أن الفاسق سفيه لاتصح معاملته ولاعقوده فقال : يحجر عليه في تبذير ماله ، ولايحجر عليه في تبذير دينه ؟!

وممن ينسب اليه أيضاً هذا القول ابن عباس رضي الله عنهما وأرضاهما

ويقرب من هذا قول الشاعر :

أبني" ان من الرجال بهيمة	في صورة الرجل السميع المبصر
فطناً بكل مصيبة في ماله	واذا أصيب بدينه لم يشعر

فصل[1]

وأما الحمق : فكله رذائل .

فعن النبي صلى الله عليه أنه قال : الاحمق أبغض خلق الله اليه ، اذ أحرمه الله تعالى أعز الاشياء اليه .

وعنه صلى الله عليه : الاحمق كالفخار لايرقع ولا يشعب .

قال الجنيد : فاسق عاقل أحب الي من قارىء أحمق .

وقال بعض العلماء : يحترز الاحمق من كل شيء الا من نفسه .

وقال بعض البلغاء : الاحمق ضال مضل أن أونس تكبر ، وان أوحش تكدر ، وان استنطق تحلف ، وان ترك تكلف ، مجالسته مهنّة ،[2] ومعاتبته مجنة [3] ومجاورته تغر[4] ، وموالاته تضر ومقاربته عمى، ومفارقته شفاء.

قال الشاعر :

لكل داء دواء يستطاب به ... الا الحماقة أعيت من يداويها

وكانت ملوك الفرس اذا غضبت على أحد حبسته مع احمق .

---

(١) في نسخه المرعشي فصل : الحمق .

(٢) مهنة : موجبة للوهن والخفة .

(٣) مجنه : مخجلة .

(٤) تعر : توجب الغرر والغفلة .

وربما أساء الاحمق الى غيره وهويظن أنه قد أحسن اليه، فيطالبه بالشكر!
وأقول: ان مساوىء الاحمق لاتنتهى، وعيوبه لاتنقضي فليس لعار الجهل غاية ، ولالمضار الحمق نهاية ، فما أكثر العبر لمن نظر ، وأنفعها لمن اعتبر.
فاذا رأيت الدنيا قد أقبلت على الاحمق بالاتفاق ، وأدبرت عن العاقل بغير استحقاق ، فلا يحملنك ذلك على الرغبة في الحمق، والزهد في العقل ، فدولة الجاهل كالغريب الذي يحن الى الرحلة، ودولة العاقل كالنسيب الذي يحن الى الوصلة .

فصل[1]

ومما يضاد العقل ويصد عن الصواب ويحذره أو لو الالباب : الهوى، وهومن هوى اذا سقط من علوفكأنه لماكان يهوي بصاحبه من المحل الاسنى الى الحضيض الادنى اشتق له منه اسم ، فكماان الشيء اذا سقط لايمكن رجوعه من قبل نفسه حيث أنه يقصد المركز بطبعه[2] ، فكذلك هوى النفس اذامال الى شيء لايمكن رجوعه من قبل نفسه ، لوجود الداعي وفرض عدم المانع .

وكما ان الشيء اذا هوى من علو أمكن رده الى مستقره الاول أو دونه، او فوقه، في محله بحسب قوة الراد وضعفه، وذلك الراد أمر أجنبي عارض من فعل حي أو غيره .

فكذلك الهوى اذا هوى بالنفس الى الشهوات أمكن رده الى محله بحيث كأن لم يهو ، أو دونه ، أو فوقه ، بحسب قوة الراد وضعفه، وذلك الراد هو العقل وذلك لاجل مايتدبره من المضار الدينية او الدنيوية عاجلا أو آجلا.

فالحاصل : أن الهوى للعقل مضاد ، وعن الصلاح صاد ، فهو مهلك ان لم يكن مغلوباً .

قال بعض الحكماء : الهوى صدأ يعلو القلب فلاتنطبع فيه صور حقائق

---

(١) فى نسخة المرعشي فصل : الهوى

(٢) يقصد مركز الكرة الارضية التى تجذب اليها الاجسام الساقطة .

الاشياء على مـا هي عليه ، فلا ترشد تابع الهوى في حال استيلاء الشهـوة والغضب عليه ، لانها حال احتجاب عقله .

ولهذا قيل : الهوى كالنار ، اذا استحكم ايقادها عسر اخمادها .

وقالوا : ليس الاسير من أوثقه عداه ، بل من أوثقه هواه .

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : الهوى الاه يعبد من دون الله ، ثم تلا قوله تعالى : «أفرءيت من اتخذ الهه هواه » [١].

وقال عكرمة ، في قوله تعالى : «ولكنكم فتنتم أنفسكم» : يعني بالهوى والشهوات .

«وتربصتم» ؟ يعني بالتوبة[٢]

« وارتبتم » : يعني في أمر الله .

«وغرتكم الاماني» : يعني التسويف.

«حتى جاء أمر الله» : يعني الموت .

«وغركم بالله الغرور»: يعني الشيطان .[٣]

وقد وصف بعض البلغاء الهوى ومايقارنه من محن الدنيـا فقال : الهوى مطية الفتنة ، والدنيا دار المحنة ، فانزل عن الهوى تسلم وأعرض عن الدنيا تغنم ولا يغرنك هواك بطيب الملاهي ولاتفتننك دنياك بحسن العوادي ، فمدة اللهو تنقطع، وعارية الدهر ترتجع ويبقى عليك ضرر ماترتكبه من المحارم وتكتسبه من المآثم .

أما اذا غلب العقل على الهوى . فانقاد له ، صار الهوى بالعقل مدحوراً،

(١) سورة الجاثية : ٤٥/٢٣

(٢) في الاصل : وغرتكم الحياة الدنيا ، بعد قوله (بالتوبة)

(٣) الاية المفسرة من سورة الحديد : ٥٧/١٤ .

وباليقين مقهوراً ، فله الحظ الاوفى من ثواب الخالق وثناء المخلوقين .

قال الله تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فان الجنة هي المأوى»(١).

وقال بعض الحكماء : أعز العز التخلص من تملّك الهوى .

وقال آخر: من أطاع هواه أهلكه وأرداه.

وقال بعضهم : الهوى هوان غلط باسمه.

واخذ هذا المعنى الشاعر فقال :

ان الهوى لهو الهوان بعينه فصريع كل هوى صريع هوان

وقال بعض الحكماء : أشجع الناس من غلب هواه .

وقال بعض العارفين : جاهدوا هواكم أشد مما تجاهدون أعدائكم .

وكان علي عليه السلام اذا رجع من جهاد الكفار يقول :رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر .

يعني : مجاهدة النفس والهوى.

وقال بعض العلماء : ركّب الله الملائكة من عقل بلا شهوة، والبهائم من شهوة بلا عقل ، وابن آدم منهما، فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم .

ولله دره على ما قال .

---

(١) سورة النازعات : ٧٩ / ٤٠

فصل

قد يخفي الهوى مكره فينمو على العقل ويغلب عليه بقهره، فيتصور القبيح حسناً ، والضرر نفعاً ، وذلك لشدة ميل النفس ، فيخفى عنها القبح .

ولذلك قال النبي صلى الله عليه : حبّك للشيء يعمي ويصم .

اي : يعمي عن الرشد ويصم عن الموعظة .

وقال ﷺ :الهوى عمى .

قال الشاعر:

ولست براء عيب ذي الودّ كله ... ولا بعض مافيه اذا كنت راضياً

فعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدى المساويا

وقال بعضهم : الهوى يقظان والعقل راقد ، فمن ثم غلب عليه .

وقيل في المثل : العقل وزير ناصح ، والهوى وكيل فاضح .

وطريق التخلص من هذا المكر: أن يجعل فكر قلبه حكماً على نظر عينيه، فان العين رائد الشهوة، والشهوة من دواعي الهوى، والقلب رائد الحق ،والحق من دواعي العقل .

وقال بعض الحكماء : نظر الجاهل بعينه وناظره ، ونظر العاقل بقلبه وخاطره .

وقال بعضهم أيضاً: شهوات العاقل من وراء فكرته، فاذا انبعثت له شهوة

مرت بفكرته فنظر في مبادئها وعواقبها وتدبر فيها بحكم الرأي، وعمل بمقتضى العقل لا الشهوة وفكرة الاحمق من وراء شهوته ، فكلما انبعثت له شهوة مرت نافذة لوجهها لا يردّها شيء .

ثم ليتهم نفسه في تصويب ما أحبت وتحسين ما اشتهت فان أشكل عليه أمران اجتنب أحبهما اليه، وأسهلهما عليه ، فان النفس عن الحق أنفر وللهوى آثر .

فائدة :

وأما الفرق بين الهوى والشهوة : فقد قيل فيه :

ان الهوى يكون في الاراء والاعتقادات ، والشهوة تختص بنيل المستلذات فتكون الشهوة من نتائج الهوى فهي أخص ، والهوى أصل فهو أعم .

ونحن نسأل الله اللطيف أن يكفينا دواعي الهوى ، ويصرف عنا سبل الردى، ويجعل العقل لنا مرشداً ، والتوفيق لنا قائدا، انه هو الرحيم الكريم.

فصل

ومن أعظم وانفع مايبعث عليه العقل : تقوى الله تعالى، لانها أربح المتاجر وأكبر الذخائر عند الله تعالى ولهذا أكثر من مدحها والامر بها في كتابه العزيز كما في قوله تعالى : «ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (١) « يا أيها الناس اتقوا ربكم » (٢) « واتقوا الله لعلكم ترحمون »(٣) « واتقون يا اولي الالباب »(٤) وامثال ذلك كثير .

وعلى نحو ذلك جاءت الاحاديث المطهرة من الرسول ﷺ ،وعلى نحو ذلك كانت وصايا العلماء والاتقياء والصالحين لمن بعدهم .

وقد صفحنا عن رقم(٥) شيء من ذلك خوف الاطالة وان كان معظم كتابي هذا فيما يبعث على التقوى .

---

(١) (سورة الحجرات : ١٣/٤٩)

(٢) قد ورد في الكتاب العزيز : في ثلاثة موارد وهي : (النساء: ١/٤) و(الحج ١/٢٢) و(لقمان : ٣٣/٣١) وورد قوله تعالى : «ياايها الذين آمنوا اتقوا الله» في ستة موارد انظر المعجم المفهرس ص٧٦٠

(٣) (الحجرات: ١٠/٤٩)

(٤) (البقره : ١٩٧/٢)

(٥) الرقم : الكتابة .

فصل

وهي تكون بطاعة الله تعالى في امتثال أوامره والكف ّعن زواجره ، وهي عند الاولياء الخلّص ألذ ّ من كل مايتعاطونه في دار الدنيا من أنواع المستلذات على اختلاف أنواعها ، لما قد أشربت قلوبهم من حبّها ، فاستنارت وأشرقت وابتهجت بها، لاسيما وقد شابوها بالذكر والعبادة والاعمال الراجحة، فحقرت نفوسهم الدنيا وما عليها .

قيل لراهب : متى عيدكم ؟ فقال : كل يـوم لانعصي الله تعالى فيه فهو يوم عيد.

وخرج بعض الزهّاد في يوم العيد في هيئة رثّة فقيل له : أتخرج في هذا اليوم بمثل هذه الهيئة ، والناس يتزيّنون ؟ !

فقال : ما تزيّن أحد بمثل طاعة الله .

ثم اعلم : أن الداعي اليها لايخرج عن ثلاثة أمور:

أحدها : حب الله تعالى ، وتصور [ه] طرفاً من جلاله وكماله وافضاله ، بمعنى انـه يجد الله عـزوجل ـ بما هو عليه مـن الصفات ـ أهلا لان يعبد ويطاع، مع قطع النظر عن وعد أووعيد .

كماروي عن علي رضي الله عنه انه قال: ماعبدتك طمعاً في جنتك، ولاخوفاً من

نارك ، ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك [١] .

وهذه عبادة المحبين . قال الله تعالى:«والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله» .[٢]

ثم كلـّما از داد حبّاً لله ، از داد في العمل والخضوع والخشوع .

وثانيها: الرغبه في ثواب الله عزوجل الذي وعدبه .

وثالثها : الرهبة من عقابة الذي أوعد به .

امـا الداعي الاول : فهو داعي المقربين الاخيارالمنزهين عـن شوائـب الكدورات النفسيـّة والطبعيـّة ، فهذه المرتبة مـن أعلى المراتب وأشرفها ، لان الداعي اليها أشرف الدواعي ، أعني علـّة العلل «عزوجل» .

وأما الداعي الثاني : فهوداعي المتقين الراغبين وهودون الاول في الرتبة بكثير ، حتىأن أصحاب الرتبة الاولى يجعلون هذا والذي بعده شـركاً بالله تعالى ، لانـه لم يعبد عبادة مخلصة ، بل مشوبة بالرغبة أو الرهبة ، ويجعلون معنى الاخلاص في قوله تعالى: «وما امروا الا ليعبدواالله مخلصين له الدين»[١] قطع النظر عن كل ما سواه .

ومن ثم قيل: حسنات الابرار سيئات المقرّبين. الا أن الرامق[٢] لهذا الداعي أكثر ، وهو فيما بين الناس اشهر، والنفع به أعمّ . ولهذا جاء القرآن العزيز والاحاديث المطـّهرة مشحونين بـالوعد الاخروي مـن الجنـّات والانهار ، والحور العين والولدان وما شاكل ذلك مـن النعيم المقيم ، ليحث النفوس ويهيـّجها على الطاعة فيكون ذلك سلـّماً ومرقى الى الدرجة الاولى .

---

(١) (سورة البقرة : ٢/١٦٥) .
(٢) سورة البينة : ٩٩/٥) .
(٣) الرامق : الناظر والمتطلع .

ثم. كلّما ازداد شوقاً الى الجنة وتصوّر ما اعده الله فيها من النعيم ازداد بذلك رغبة فيزيد في العمل الصالح .

واما الداعي الثالث: فهو داعي الخائفين وهوقريب من الثانى بل لايكاد ينفكّ عنه بدليل ما قد قرن الوعد بالوعيد في الكتاب المجيد والاحاديث النبوية ولما قد علمه المسلمون من أن المآل امّا الى جنة او الى نار اذ لاثالث لهما .

فصل [1]

واشد مايخاف على المتقي شيئان : الرياء ومنازعة الهوى .

اما الهوى : فقد تقدم الكلام فيه . [2]

واما الرياء : فهو من اكبر الافات على المتقي لانه اسرع شيء تطرقاً ، لايسلم منه السلامة الكليّة الامـن ايّـد بعناية الله تعالى فملك عقله على نفسه وهواه ،

واما الكثير منه فلايوجد الا في خسيس النفس ، مهان القدر فيقصـد به استعطاف القلوب النافرة . وقد يكـون لرغبة دنيوية ، او خـوف يد قوية ، فيتشبّه بالصلحاء وليس منهم ويتدلس بالاخيار وهـو ضدهم قال الله تعالى : «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه احدا»[3]

قال جميع أهل التاويل : معنى لايشرك هنا لايرائي بعمله أحدا ، فجعل جل وعز ، الرياء شركاً وناهيك بذلك ذما وقانا الله منـه ومن شرور أنفسنـا وسيئات أعمالنا .

قال الحسن البصري في قوله تعالى :

---

(١) في نسخة المرعشي : فصل الرياء .

(٢) في ص ٤٧ .

(٣) (سورة الكهف : ١٨ / ١١٠) .

«ولاتجهر بصلاتك ولا تخافت بها»[1] .

لاتجهر بها رياء ولاتخافت بها حياء .

وعن النبي ﷺ أنه قال : اخوف ما أخاف على امتي الرياء الظاهر والشهوة الخفية .

وبالجملة : فالمرائي اخسر الناس لانه لم يقصد وجه الله فيؤجر ، ولايخفى رياؤه على احد فيحمد أو يشكر ، اذ لا يرتفع الا من رفعه الله جل وعز ، وكل عزيز غالب الله مغلوب ، فهو من : «الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا»[2] .

وقد يفضي الرياء بصاحبه الى استهزاء الناس به ، حكى الاصمعي : أن أعرابياً صلّى والى جانبه جماعة ، فقالوا : ما أحسن صلاتك ؟ ! .

فقال : وانا مع ذلك صائم .

فاستسخروا به وانشد له بعضهم :

صلى فأعجبني وصام فرابني نحّ القلوص عن المصلي الصائم

وقد يحس ذو الفضل بنفسه ميلا الى المراءاة فيبعثه فضله وبصيرته الى هتك ذلك ، ويكون ذلك أبلغ في فضله ، كما حكي عن عمر بن عبد العزيز (رضه) انه قال لمحمد بن كعب : عظني .

فقال لاأرضى نفسي لك لاني أجلس بين الغني والفقير فأميل على الفقير واوسّع للغني .

وقد يفضي الرياء بصاحبه الى الاخلاص، لما ينظره ببصيرته من أن الله

---

(١) (سورة الاسراء : ١٧/ ١١٠) .

(٢) اقتباس من قوله تعالى : «قل : هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا ؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا». (سورة الكهف : ١٨ / ١٠٤).

تعالى أحق أن يخشى ، وأنه لايغلب في شأنه، ولاينازع فى سلطانه وأنالناس اشخاص مثله ، لايقدرون له على نفع ولاضر الا باذن الله . ولهذا قيل : الرياء قنطرة الاخلاص .

حكى :ا ن بعض الشبان اتفق أنه وقع نظرة على ابنة الملك فوقع حبها في قلبه موقعاً قوياً ، حتى تمكنفيه العشق والشغف ، وكان ذاعقل وروية الا أنه كان فقيراً جداً ، خامل الذكر والقدر ، فكتم ذلك زماناً طويلا لخوفه من القتل ان افشاه ، ولما التهبت فيه نيران العشق والهيجان حتى عيل صبره [١] وانتحل جسمه وايقن بالهلاك أطلع على سره شيخاً عالماً صالحاً من تلك المدينة ، وقال : اني هالك لامحالة فهل تجد لي حيلة أو دواء أو ما اتسلى به ؟ .

فقال:نعم، ان فعلت مااقول لك رجوتان تبلغ مرادك، وذلك : أن تمضي الى الصفة الفلانية في الجامع الكبير فتجلس ثم ليلا ونهاراً ، صائماً نهارك قائماً ليلك ، تالياً للقرآن ، راكعاً ، وساجداً ، باكياً خاشعاً مطمئناً في كل الاوقات ، واياك ان تنظر الى أحد أو تكلمه او تاخذ منه شيئاً أو تلتفت اليه بوجه من الوجوه ــ وان كان السلطان نفسه ــ ، أوتمضي اليه ان طلبك فعند ذلك يشيع خبرك في المدينة ويتصل بالسلطان ، ولايخفى عليك أنه يحب الصلحاء والعباد ، فيوشك عند ذلك أن يختارك زوجاً لبنته .

فوقع ذلك في قلب الشاب وسر به ، وفعل كل ما أمره به على أبلغ مما قال ، واستمر كذلك زماناً طويلا، حتى شاع أمره فيالمدينة، وصيامه،وصلاته وبكاؤه ، وخشوعه ، وزهده ، واعتقدوا أن مابه من الاصفرار والنحول لشدة خوفه وكثرة صيامه وقيامه .

---

(١) اى غلب صبره .

فكانوا يأتون اليه ويسألون منه الدعاء ، ويقبلون يديه ورجليه ، وهو مع ذلك لايلتفت الى أحد ، بل مستمرعلى البكاء والذكر والصلاة وتلاوة القرآن حتى اتصل خبره بالسلطان ، فكان يأتي اليه مع وجوه دولته فيتبركون به . ويخضعون له ، وهومع ذلك مقبل علىشأنه لايلتفت اليهم، فازداد بذلكقدره وعظم أمره ، حتى أوقع الله في قلب السلطان أنه لا يصلح لابنته بعلا الا هذا العابد ـ ان كان يرضى بذلك ـ . ورأى الملك أنه ان تقرّب الىهذاالملك الاخروي وزوّجه بنته فقد تمّتلهالسعادة في الدارين، فوجّه اليه جماعة من علماء البلد وصلحائها ليسئلوا منه ذلك بالرفق والخضوع ، ويقولوا له : ان السلطان يفرد لك مكاناً للعبادة ، ولا يكلّفك بشيء من أمور الدنيا أصلا ، فذهبوا اليه ورغّبوه فى النكاح، وبسطوا له فضائله ، وأنه أفضل من التخلّي للعبادة، وأنه لاينافي ما أنت فيه بوجه ، فسمح لهم بذلك بعد أن أظهر لهم الكره الزائد وعدم الرغبة في ذلك .

فسرّ السلطان بذلك كثيراً وأعدّ له ولبنته مايحتاجان اليه من كل شيء ، وجمع الناس وأوقعوا العقد وهيّأ لهمكاناً للخلوة من أحسنالاماكن وزيّنوه بمحاسن الزين فلما دخل الى ذلك البيت ورأى نضارته وما فيه من الامتعة الفاخرة ، ورأى ابنة الملك وماهي عليه من الجمال الباهر واللباس الفاخر ، أدهشه ذلك وحار عقله فيه ورجع الى عقله وبصيرته وقال لنفسه : ويحك يانفس ، اذا كان شبه طاعة الله تعالى أو صلنى الى هذا الأمر العظيم الذي لا أستحق شيئاً منه ، فكيف لو اطعت الله حق طاعته وعبدته حق عبادته ، فالى ايّ منزلة ، والى اي مرتبة كنت . تصلين بكرمالله تعالى في الدار الاخرة.. في جنّات النعيم ؟ ! ثم خلع ماكان عليه من الثياب ، ولبس ثيابه الاول وعاد الى أكثر مما كان عليه من العبادة والخشوع والصوم والصلاة وتلاوة القرآن

كل ذلك مع الاخلاص التام .

فهذا أوصله رياءه لحسن نظره واستقامة عقلة الى السعادتين والفوز بالمرادين (١) .

كذا الظاهر ، والكلمة غير واضحة في النسختين .

فصل

[محاسبة النفس][1]

ومن أحسن ما يبعث عليه العقل السليم والطبع المستقيم محاسبة النفس فان من أهمل محاسبة نفسه ومعاتبتها لم يكن لنفسه مراعياً ، فيوشك أن يكون عن الخيرات . ساهياً ، وبالقبائح لاهياً ، فلايكون الله عزوجل عليه راضياً .

قال علي « رضي الله عنه » : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا .

وقال : ومن حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر .

وقال لقمان الحكيم : المؤمن من أبصر العاقبة فأمن الندامة .

وقال بعضهم : ينبغي للمرء ان يحاسب نفسه كل صباح ومساء محاسبة الرجل الشحيح .

قال هذا الفقير الحقير الجامع لهذا الكتاب رحمه الله واستعمله فيمايرضاه: ومما يشبه المحاسبة ماأورده على نفسي كثيراً ، وأذكره لاصحابي ، فأقول : كيف يعوّل العاصي على كرم الله وعفوه، فيغرّ نفسه بذلك، ويتّبع هواها، فيرتكب ما اشتهته من معاصي ربه ، ويقدم على ترك أوامره ، ولايعوّل على كرم الله تعالى وجوده في تكفله بالرزق وضمانه له على نفسه ، مع أنا نشاهد سوق الرزق الى من لم يسع ، لانّ الله تعالى جلّ وعزّ قد قسّمه وقدّره بين عباده فيكون وجود الرزق معلوماً، وأما وجود الغفران والعفو فأنّه مظنون

---

(١) العنوان زيادة في نسخة المرعشي .

فانّ الله عزوجل قد حث في كتابه العزيز على الطاعة و وعـد عليها الثواب الجزيل ، وخـوّف من المعصية ، وتوّعد عليها بـالعذاب النكيل ، وقال الله تعالى جلّ وعز : « فمـن يعمل مثقال ذرة خيـراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » [١] هب أن الغفران وجد ، فاين منازل المقـرّبين ودرجاتهم الرفيعة في الجـنّه ؟ وكيف يقابل الله جـلّ وعز بالمعصية ولايستحيي مـنه ، والمرء يستحيي من أدنى أفراد الناس ، والجزاء بيد الله لابيد ذلك الدّني ؟ !

فمن لم يتبـّصر بمثل هذا فهو الاعمى الذي يكون .

: « في الاخرة أعمى واضلّ سبيلا »[٢] .

ثم أقول : لو أن يهودياً أخبر عن طعام أنّه ضار ، لتركه المرء ، ولوأن نصرانياً قال لمسلم : أنت الليلة في ضيافتي ، لترك الاهتمام بمأكله لتلك الليلة.

ولو أن مجوسـّيا جاء في طريق وأخبر انه كثير الخوف باللصوص وقطاع الطريق أو قليل الماء او الزاد ، لم يقدم على السفر فـي تـلك الطريق أحد الاّ بعد الوثوق من أمر نفسه بـكثرة الرفقة ، وتهيئة العـّدة واحكامها بحيث يأمن على نفسه بذلك ، وبعد استعداد الزاد والماء اللذين يغلب على ظنه أنهما بقدر كفايته ، ونحن قد أخبرنا نبـّينا الصادق الذي لانشك في صدقه وعصمته عن خالق الاشياء وعالم كنه حقيقتها ومآلها، بأنّ المعاصي طعام مضـّر بل مهلك، ولانجتنبه ؟ !

وبأن رزقنا على الله ، ولانترك الاهتمام به ؟ ! .

وبأن الطريق الى الجنة مخوف ، بعيد ، كثير المهالك، يحتاج الى الزاد

---

(١) سورة الزلزلة : ٩٩ / ٧ — ٨ .

الكثير والعدة المتقنة ، ولا نعتني بشيء مـن ذلك ؟ ! بل نذهل عنه في غالب الاوقات ! فانالله وانا اليه راجعون ، ولاحول ولاقوه الابالله العلي العظيمولهذا قال علي « رضي الله عنه » : من تفكر أبصر .

وقالوا : الفكرة قلب العقل .

وقالوا : الفكرة مرآة تريك حسناتك من سيئاتك .

فالتفكر سراج المؤمنين ، وروضة المقـّربين.

قال ابن عباس « رضي الله عنهما » : التفكر في الخير يدعو الى العمل به ، والندم على الشر يدعو الى تركه .

وبكى بعضهم ، فقيل له : مايبكيك؟فقال : تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي .

ثم انه من أشرف مايبعث عليه العقل ويكتسب به :«العلم» ، مع أنه يقوى العقل ويسدده ويشر ّفه ويكون به نوراً ساطعاً ، فلنتكلم فيه :

---

(٢) اقتباس من قوله تعالى : «ومن كان في هذه اعمى فهوفي الاخرهاعمى واضل سبيلا » الحاشية للصفحة ٦٢ (سورة الاسراء : ١٧/ ٧٢)

باب العلم

الخلاف في كونه من مقولة الكيف أو الانفعال وامثال ذلك مبسوط في كتب الحكمة فايراده هنا خروج عن موضوع الكتاب .

فصل

العلم أشرف مارغب فيه الراغب، وأفضل ماطلبه وجدّ فيه الطالب، لان شرفه يتم على صاحبه ، وفضله ينمو عند طالبه .

قال الله تعالى : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون»[1].

فمنع من المساواة ـ لفضل العلم ـ أبلغ منع [2].

وقال الله تعالى : « ومايعقلها الا العالمون» [3] .

فنفى ان يكون غير العالم يعقل عنه أمراً أو يفهم عنه زجراً .

وعن النبي ﷺ : أن الله تعالى أوحى الى ابراهيم : أني عليم أحب كل عليم .

---

(١) (سودة الزمر : ٩٣٩)

(٢) اى بلغ غايه المنع .

(٣) (سودة العنكبوت ٢٩/٤٣)

وعنه صلوات الله عليه : ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب .

وعنه عليه السلام : فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلا .

وسأل رجل رسول الله عن أفضل الاعمال؟ فقال عليه السلام : العلم بالله، والفقه في دينه .

فقال : يارسول الله ، أسألك عن العمل ، فتخبرني عن العلم ؟

فقال عليه السلام : ان العلم ينفعك مع قليل العمل ، وان الجهل لاينفعك مع كثير العمل .

وقال لقمان الحكيم : جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فان الله تعالى يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الارض بوابل السماء (١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : « منهومان لايشبعان طالب علم وطالب دنيا ، أما طالب العلم فانه يزداد من الرحمن قرباً ، ثم تلا : « انما يخشى الله من عباده العلماء » وأما طالب الدنيا : فانه يزداد طغيانا ، ثم تلا : «ان الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى» (١)

وقال علي عليه السلام : العلم أفضل خلف ، والعمل به أكمل شرف .

وقال بعض البلغاء : تعلّم العلم فانه يقوّمك ويسددك صغيراً ، ويقدمك ويسوّدك كبيراً ، ويصلح زيغك وفاسدك ، ويرغم عدوك وحاسدك .

ومما ينسب الى ابي نصر الفارابي رحمه الله :

هذّب النفس بالعلوم لترقى وترى الكل فهي للكل بيت

---

(١) الوابل : المطر الشديد .

(٢) (من سورة فاطر : ٣٥/٢٨)

انما النفس كالزجاجة والعقل سراج وحكمة الله زيت
فـاذا أشرقت فانك حيّ واذا أظلمت فانك ميت

ولبعضهم :

اذا ما المال لم يقرن بعلم فليت المال في درك السعير
هب الدنيا لك اجتمعت جميعاً أترضى أن تعدّ مع الحمير؟

فصل

لايجهل فضل العلم الا أهل الجهل، لان فضل العلم انما يعرف به، ولهذا استرذل الجهال اهله وتوهموا أن الاموال وماتميل اليه نفوسهم من متاع الدنيا خير، فانصرفوا عنه انصراف الزاهدين وأعرضوا عنه اعراض المعاندين، لان من جهل شيئاً عاداه .

قال ابن المعتز : يعرف العالم الجاهل لانه كان جاهلا والجاهل لايعرف العالم لانه لم يكن عالماً .

وقيل لبزر جمهر: العلم أفضل أم المال ؟ فقال : العلم .

فقيل : فما بالنا نرى العلماء على أبواب الاغنياء ، ولانرى الاغنياء على أبواب العلماء ؟ .

فقال : ذلك لمعرفة العلماء بفضل المال ، وجهل الاغنياء بفضل العلم.

فصل

العلوم كلها شريفة ، ولكل منها فضيلة ، والاحاطة بجميعها محال .

قال الشاعر :

ماحوى العلم جميعاً أحد ‏‏ لا ، ولو مارسه ألف سنه

انما العلم بعيد غوره ‏‏ فخذوا من كل شيء أحسنه

وقيل لحكيم : من يعرف كل العلم ؟ فقال : كل الناس .

وعن النبي عليه السلام : من ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حظه ، ووضعه في غير منزلته التي وضعه الله تعالى بها حيث يقول : «ومـا أوتيتم من العلم الا قليلا»(١) .

وقال بعض العلماء : المتعمق في العلم كالسابح في وسط البحر ، ليس يرى أرضاً ، ولايعرف طولا ولاعرضاً .

واذا لم يكن الى معرفة جميع العلوم وسيلة وجب صرف الاهتمام الى معرفة أهمها وأفضلها وذلك علم الدين اصولا و فروعاً ، لان الناس بمعرفته يرشدون ، وبجهله يضلون ويضلون ، وهو لازم لكل مكلّف .

قال النبي عليه السلام : طلب العلم فريضة على كل مسلم .

وفيه تأويلان :

---

(١) الاية من (سورة الاسراء : ١٧/ ٨٥) . والحديث .

أحدهما : علم مالايسع أحداً جهله .

وثانيهما : جملة العلم، اذا لم يقم بطلبه من فيه كفاية .

وعنه عليه السلام : من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين .

وعنه عليه السلام : خيار أمتي علماؤها، وخيار علمائها فقهاؤها .

وعنه عليه السلام أنه قال : علي بخلفائي . قيل : ومن خلفاؤك ؟ قال : الذين يحيون سنتي ويعلمونها عباد الله .

وعنه عليه السلام : ماعبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد .

ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه .

فصل

في موانع الطلب

قد يترك طلب العلم لتعذر المادة ، والاشتغال باكتسابها وهذا قلّما يكون الا عند ذوي الشره والشهوة المستعبدة .

لان الزمان كله ليس زمان اكتساب ، فينبغي أن يصرف الى التحصيل ما فضل عن قدر الحاجة (١).

وقد يترك ، لما يظن من صعوبته، وبعد غايته ، أو لما يخشى من قلة الذهن وبعد الفطنة .

وهذا اعتذار ذوي النقص ، وصفة أولي العجز .

ولهذا قالوا : الهيبة مقرونة بالخيبة .

وقالوا: عليك بالاقدام ولو على الضرغام .

وجاء رجل الى بعض العلماء فقال : اني أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيّعه .

فقال: كفى بترك العلم اضاعة .

فحينئذ، لاينبغي لبعيد الفهم أن يقنط من نيل القليل الذي يخرج به من حدّ

---

(١) أى لايصرف جميع الوقت فى الكسب والتجارة بل يقتصر فيهما على مقدار الحاجة والضرورة ويصرف ما فضل من الوقت عنهما الى طلب العلم .

الجهالة ، فان الماء مع لينه يؤثر في الصخر، فكيف لايؤثر العلم الزكي فى نفس الراغب الشهي لاسيما وطالب العلم معان(١) .

نكتة :

وقد يتركه ذو السفاهة، لمايرى من فقر أهله للاشتغال به ، فان رأى كتاباً أعرض عنه، أومتحليساً بحلية أهل العلم هرب منه . قدغلبت نفسه عليه لحب الدنيا، وأشرب في قلبه بغض العلم وأهله، وهذا ممن لايرجى له صلاح، ولا يؤمّل له فلاح .

فعن النبي ﷺ: اذا استرذل الله تعالى عبداً حظر عليه العلم .

قيل لبرز جمهر: مالكم لاتعاتبون جهّالكم ؟

فقال: لانّا لانكلّف العمي أن تبصر ، ولا الصم ان تسمع. فكأن هذا السفيه لمّا رأى عاقلا غيرمحظوظ، وعالماً غيرمرزوق ، ظن أن العقل والعلم هماالسببفيقلة حظه ورزقه، وانصرفت(٢)عنهلجهلهعنحرماناكثر النوكى(٣) وادبار اكثر الجهال .

على أن الرزق بالجد والحظ لابالعقل والعلم ، حكمة من الله تعالى يدل بها على قدرتـه ، قالت الحكماء : لوجرت الارزاق على قدر العقول لم تعش البهائم ..

(١) حسب الروايات الكثيرة التى توكد ان الله سبحانـه وتعالى قد تكفل رزق طالب العلم .

(٢) كذا فى النسختين.

(٣) النوكى: جمع أنوك بمعنى احمق .

(٤) روى عبدالله بن سليمان قال سمعت أبـاعبدالله يقول : ان الله وسع أرزاق الحمقى ليعتبر العقلاء، ويعلموا أن الدنيا ليس ينال مافيها بعمل ولاحيلة وسيأتى من قول ابراهيم بن هلال الكاتب في الباب: ١٣/الصبر ، الفصل الثانى ماپناسب المقام .

ولاشك ان العقل والعلم سعادة، وان قلّ معهما المال، والحمق والجهل حرمان وادبار، وان اتسعت معهما الحال .

وكيف يكون الجاهل الغني رفيعاً والجهل وضعه ؟

أم كيف يكون العالم الفقير وضيعاً والعلم رفعه ؟

ولهذا قالـوا : الجاهل صغير وان كان شيخـاً ، والعالم كبير وان كان صغيراً .

قال ابن المعتز: نعمة الجاهل كروضة على مزبلة .

وقالـوا : الجهل من أعظم المصائب وأخذل الصواحب ، لانـك لاترى الجاهل الا مفرطاً اومفرّطاً .

وقال علي عليه السلام: لا داء أعيى من الجهل .

وقالوا: لسان الجاهل مفتاح حتفه .

وحينئذ أقول: ان العلم لشرف عظيم فى نفسه مع قطع النظر عمايترتب عليه في الدنيا والاخرة، وأدنى ماهناك : أن من لم يكتسب بالعلم مالا اكتسب به في الدنيا جمالا وفي الاخرة اقبالا .

وأما مايحصل بـه من الابتهاج النفسي واللذة العقليّة فمما لايتصور أدناه الجنان، ولايعرب عن مباديـه ذوالفصاحة والبيان ، اذ هو مختلف المقادير و الاحوال بحسب اختلاف الرجال في الاكثار منه والاقلال .

بل غاية ماأقول: من لم يذق لم يعرف المحصول .

فينبغي لمن زهد فيه أن يكون فيه راغبـاً، ولمن رغب فيه أن يكون لـه طالباً، ولمن طلبه أن يكون منه مستكثراً، ولمن استكثر منه أن يكون به عاملا، ولايطلب لتركه احتجاجـاً ، ولا لتقصيره عذراً ، ولايسوّف نفسه بالمواعيد الكاذبـة، ويمنّيها بانقطاع الاشغال المتصلة فان لكل وقت شغلا ولكل زمان

عذراً .

قال بعضهم :

نروح ونغدوا بحاجاتنا وحاجة من عاش لاتنقضي
تموت مع المرء حاجاته ويبقى له حاجة مابقي

وقال آخر :

لا فراغاً الا عن الاشتغال والمنى لا تنال بالآمال
بعدت شقة المهامه[1] ان تقطع الا بالشد و الترحال
وأبى الفضل ان ينال بغير الجد فلتنله عقول الرجال

(١) المهامه: الصحارى .

فصل

وليقصد الطالب العلم واثقاً بتيسير الله تعالى ، قاصداً وجهه بنيّة خالصة وعزيمة صادقة .

فقد روي عن النبي ﷺ: من تعلم علماً لغيرالله أو أراد به غيرالله فليتبوأ مقعده من النار .

وعنه ﷺ: المماري به مهجور لاينتفع ، والمرائي به محقور لايرتفع.

وعنه ﷺ : من تعلم العلم للتكبر مات جاهلا ، ومن تعلمه للقول دون العمل مات منافقاً، ومن تعلمه للمناظرة مات فاسقاً، ومن تعلمه لكثرة المال مات زنديقاً، ومن تعلمه للعمل مات عارفاً .

وقال الاوزاعي: اذا أراد الله بقوم شراً أعطاهم الجدل ومنعهم العمل .

فليكن طالب العلم راغباً في ثواب الله تعالى كطالب مرضاته وحافظ مفترضاته ، راهباً من عقاب الله عزوجل كتارك أوامره ومهمل زواجره، فاذا اجتمعت الرغبة والرهبة اديّا الى كنه العلم وحقيقة الزهد. لان الرغبة أقوى الباعثين على العمل ، والرهبة أقوى السببين في الزهد واذا اقترن العلم والزهد فقدتمت السعادة ونمت السيادة. وان افترقا فياويح مفترقين، ماأقبح افتراقهما!

فعن النبي ﷺ : من ازداد في العلم رشداً ولم يزدد في الدنيا زهداً لم يزدد من الله الا بعداً .

اللهم أعمر بنا مجالس الاخيار ، وبوّئنا مقعد صدق في دار القرار انك أنت الوهاب الغفار .

فصل

وللعلوم أوائل تؤدي الى أواخرها، فليبدء الطالب بها لينتهي الى حقائقها ولايعكس فلا يدرك الاخر، ولايعرف الحقيقـة ، لانّ البناء على غير أس ّ لا يستقيم .

ولذلك اسباب فاسدة :

منها : قصد نوع من العلم لغرض يتعلق بـه ، فيعدل عن مقدماتـه ، كمن يؤثر القضاء والتصدي للحكم، فيقصد من الفقه أدب القاضي، ومايتعلق به من الدعوى والبينّات، فاذا أدرك ذلك ظن أنه قدحاز من العلم جمهوره، ولم ير أن في طلب مابقى الا العناء ، لقصور همّتـه على ما أدرك وانصرافهما عمّا ترك .

ولو أنصف نفسه علم ان ماترك أهم مما أدرك ، لان بعض العلـم مرتبط ببعض، ولكل باب منه تعلق بماقبله، ولاتقوم الاواخر الا باوائلها، ويصح قيام الاوائل بانفسها، فيكون طالب الاواخر تارك الاوائل، تاركاً لهما .

ومنها: أن يحب الاشتهار بالعلم، فيقصد منه مايشتهر من مسائل الجدل ، ويتعاطى علم مااختلف فيه دون مااتفق عليه ليناظر بـه. وهو لايعرف الوفاق فمثل هذا اذا أخذ في المناظرة ظهر كلامـه ، واذا سئل عن واضح المذهب ضلت أفهامه، فتخبط في الجواب خبط عشواء ، فهذا قدجهل من المذهب ما

يعلمه المبتدىء ويتداوله الناس ، فهو دائماً في غلط مضل، ولفظ مزل ، وهذه طريقة من يقول « اعرفوني » وهو غيرمعروف ، وبعيد ممن لايعرف العلم أن يعرف به .

ومنها : أن يشتغل به في الكبر فيستحي أن يبتدء بما يبتدء به الصغير ، لكراهة أن يساويه ، فيبدأ بأواخر العلوم ليساوي الكبير. ويتقدم على الصغير وهذا ممن رضي بخداع نفسه ، لان كل ذي عقل يشهد بفساد هذا التصور ، لان جهل مايبتدء به المتعلم أقبح من جهل ماينتهي اليه العالم .

فصل[1]

والمانع من حفظ العلم بعد تصوره وفهمه : النسيان الحادث عن غفلة التقصير، فينبغي لمن بلي بأن يستدرك تقصيره بكثرة الدرس والمذاكرة .

أما الاول : فلما قيل : لايدرك العلم من لم يطل درسه . وكثرة الدرس من المتعبات ، لايصبرعليها الا ذو عقل صحيح ، يرى العلم مغنماً والجهالة مغرماً، فيحمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم ، وينفي عنه معرّة[2] الجهل، فان نيل العظيم لايكون الا بعظيم .

ولهذا قيل الراحة في قلة الاستراحة .

قال أبو الطيب المتنبي يخاطب نفسه :

ذريني أنل ما لا ينال من العلى
فصعب العلى في الصعب والسهل في السهل

تريدين ادراك المعالي رخيصة
ولابد دون الشهد من ابر النحل

وأما الثاني : فلانه اذا ذاكر بها رسخت واستقرت .

قال بعض الحكماء: من أكثر المذاكرة بالعلم لم ينس ماتعلم واستفاد ما

---

(١) في نسخة المرعشي فصل : النسيان .

(٢) المعرة : الاثم . والمنقصة .

لم يعلم .

وقالوا : المذاكرة صيقل العقل .

وقال بعضهم : لكل شي حياة ، وحياة العلم مذاكرته .

قال الشاعر:

اذا لـم يذاكر ذو العلوم بعلمه ولم يستفد علما نسى مـا تعلما

فكم جامع للكتب في كل مذهب يزيد مع الايام في جمعه عمى

فصل

وربما استثقل المتعلـم الدرس والحفظ ، واتكل بعد فهم المعاني علـى الرجوع الى الكتب عند الحاجة ، فلايكون الا كمن أطلق ماصاده ثقة بالقدرة عليه بعد الاطلاق ، فلايعقبه التفريط الا ندماً .

وهذا كما ابتلينا به زماناً طويلا .

وهذه الحالة :

أما أن يدعوا اليها الضجرمن الحفظ .

أو طول الامل في التوفير عليه عندنشاطه ، كما كان يدعونا ذلك .

أو فساد الرأي في عزيمته .

وليس يعلـم أن الضجر خائب ، وان طويـل الامل مغرور ، وأن الفاسد الرأي مصاب .

وقد قالت العرب : حرف في قلبك خيرمن ألف في كتبك .

وقالت : لاخيرفي علم لايعبرمعك الوادي ولايعمر بك النادي [1].

وقالت : علم لايعبرمعك الى الحمام لايرفعك على الانام .

وقال الشاعر :

اذا لم تكن فطناً واعياً فجمعك للكتب لاينفع

---

(١) النادى : مجلس القوم يتخذونه للمحادثة وتبادل الاراء .

طريفة :

وقد يعتني الطالب بالحفظ فقط ـ من غير تصور معنى ـ فيتعب بذلك نفسه ، ويكدّها كل الكد ،ويصرف لذلك زماناً طويلا من عمره حتى يصير حافظاً بجملة من الكتب ، وربما ابتهج بذلك ، وافتخر به بين الناس ، ولا يشعر أنه من: «الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً»(١) وأن مثله : «كمثل الحمار يحمل أسفارا»(٢) أو أنه كالكتاب الجماد الذي لايدفع شبهة ولايوجد حجة .

فعن النبي ﷺ : أنه قال: همّة السفهاء الرواية ، وهمّة العلماء الرعاية .

---

(١) اقتباس من قوله تعالى : «هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا ؟ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . (سورة الكهف : ١٨ / ١٠٤) .

(٢) اقتباس من قولـه تعالى : مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً (سورة الجمعة : ٦٢/٥) .

فصل

ينبغي أن يكون الطالب سائساً لنفسه مدارياً لها في حال تعلمه ، فإن للنفس ثلاثة أحوال :

عدلوانصاف ، وعلوّ واسراف ، وتقصير واجحاف .

فالعدل : أحمد الاحوال ، ويكون من جهتين :

جهة طاعة مسعدة ، وجهة شفقة كافّة .

فطاعتها تمنع من التقصير، وشفقتها تصد عن السرف . وأما حال العلو : فيكون باختصاص النفس بقوة الطاعة ، وعدم قوة الشفقة ، فيؤديها ذلك الى عجز الكلال [1] ثم الى الترك والاهمال ، فتصير الزيادة نقصاناً ، والربح خسراناً .

وقد قالت الحكماء : طالب العلم وعامل البر كآخذ الادوية التي القصد منها الدواء ، ومجاوزة الحد فيها هو الداء .

وأما حال التقصير: فباختصاص النفس بقوة الشفقة وعدم قوة الطاعة ، فتدعوها الشفقة الىالنفور ، فلاتطلب شارداً ولا تقيّد عائداً ، فتفقد الموجود ولمتجد المفقود، ومن هذا شأنه فهومصاب مغبون .

فليرض العاقل نفسه لتلبث على ماذكرناه من أحمد الحالات ، فان أهمل

---

(١) الكلال : الىمى والتعب .

سياستها ورام أخذها بالعنف نفرت ، وعاندت فلم تعد الى الطاعة، ولم تنكف عن المعصية .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : للقلوب شهوة واقبال ، وفترة وادبار ، فأتوها من قبل شهواتها : لامن قبل فتراتها .

فان استصعب عليه قياد نفسه مع سياستها تركها راحة ثم عاودها بعد الاستراحة ، ، فتنقاد له ان شاء الله تعالى .

فصل

الشروط التي ينتهي معها كمال الراغب مع الامداد بالتوفيق والمعونة من الله تعالى ، تسعة : —

أحدها : العقل الذي يدرك به حقائق الامور .

وثانيها : الفطنة التي يتصوّر بها غوامض العلوم.

وثالثها : الذكاء الذي يستقرّ به حفظ ما تصوّره وفهم ما علمه .

ورابعها : الشهوة التي يدوم بها الطلب.

وخامسها : الاكتفاء بمادة تغنيه عن تكلّف السعي .

وسادسها : الفراغ الذي يكون معه التوفير .

وسابعها : عدم القواطع المذهلة من هموم وأمراض .

وثامنها: طول العمر واتساع المدة لينتهي بالاستكثار الى مراتب الكمال

وتاسعها : الظفر بمعلّم حاذق ناصح ذي همّة عالية وسماح بعلمه .

فاذا استكملت هذه الشروط فهو أسعد طالب وأنجح راغب .

فصل (١)

لابد للمتعلم من ملق (٢) وتذلل ، لانّ الملق للعالم يظهر مكنون علمه ، والتذلل سبب لادامة صبره وحلمه .

فقد روي عن النبي صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه أنه قال : ليس من أخلاق المؤمن الملق الافي طلب العلم .

وقال ابن عباس : ذللت طالباً فعززت مطلوباً .

وقال بعض الحكماء: من لم يحتمل ذلّ التعلّم ساعة، بقي في ذلّ الجهل أبداً .

ثم ليعرف له فضل علمه ، ويشكر له جميل فعله ، وليكن له موقّراً معظّماً في كل الحالات ، فقد روي عن النّبي عليه السلام أنه قال : من وقّر عالماً فقد وقّر ربّه .

وقال بعض الشعراء :

أن المعلّم والطبيب كلاهما	لاينصحان اذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك ان جفوت طبيبه	واصبر لجهلك ان جفوت معلّما.

وايضاً : فان الحكماء قد رجّحوا حقّ المعلم على حق الوالد حتى قال

---

١) فى نسخه المرعشى فصل: فى اداب المتعلم .

٢) الملق : التودد والتلطف فى الكلام مصحوبا بالخضوع والتذلل .

بعض الشعراء :

آباء اجسادناهم سبب لان جعلنا عوارض التلف

معلم العلم صار خير أب ذاك أبو الروح لا أبو النطف

ثم لايمنعه من توقيره والتذلل لـه علوّ منزلته ، وان كان العالم خاملا ، فان العلماء بعلمهم استحقّوا التعظيم لابالقدرة والمال .

قال ابن دريد رحمه الله :

لاتحقرن عالماً وان خلقت أثوابه في عيون رامقه

وانظر اليه بعين ذي ثقة مهذّب الرأي في طرائقه

فالمسك بيناتراه ممتهناً [١] بفهر[٢] عطاره وساحقه

حتى تراه بعارضي ملك اوموضع التاج من مفارقه

ثـم يجب ان يكون مقتديا بهم في رضيّ أخلاقهم وصدق أقوالهم ، متشبهاً بهم في جميل أعمالهم ، ليصير لهاالفاً وعليها ناشئاً ، ولما خالفها مجانباً .

فقد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال : خيار شبّانكم المتشبّهون بشيوخكم وشرارشيوخكم المتشبّهون بشبّانكم .

وعنه ﷺ : من تشبّه بقوم فهو منهم [٢] . ثم ليحذر التبسّط على معلمه وان كان له مؤانساً ، فانه ربما يفضي بـه الى حصول الحقد عليه والانقباض عنه ثم ليحذر ـ أيضاً ـ أن يظهر لـه الاستغناء عنه ، فان في ذلك كفراً لنعمه ، واستخفافاً بحقه وكرمه، فانه ربما وجد بعض المتعلمين قوة في نفسه ، وحدة

---

(١) حقيراً .

(٢) هى فارة المسك ونافجته تكون عند العطار فتسحق ويستخلص منها المسك .

في ذكائه ، فيقصد من يعلّمه بالاعنات[١] له والاعتراض عليه ، ازراء [٢] به وتكبيتاً [٣] له ، فيكون كمن تقدم فيه المثلُ السائر في الافاق :

اعلّمه الرماية كل يوم فلما استد[٤] ساعده رماني

وكم علمته نظم القوافي فلما قال قافية هجاني

وهذا من مصائب العلماء، وانعكاس حظوظهم: أن يصيروا عند من علموه مستجهلين، وعند من قدموه مسترذلين .

قال ابن عبد القدوس :

وان عناء أن تعلم جاهلا فيحسب جهلا أنه منك أعلم

---

(١) ايجاد التعب والمشقة .

(٢) اذ لالا له .

(٣) الصرف والاذلال يقال كبت الله العدو اى صرفه واذله .

(٤) صار سديداً في رميه .

فصل

ولا ينبغي ان يبعثه معرفة الحق له على قبول الشبهة منه ، ولا يدعوه ترك الاعنات له على التقليد فيما أخذ عنه ، فانه ربما غلا بعض الاتباع – ممن عاصرناهم – فيعالمهم ، حتى رأوا ان قوله دليل وان لم يستدل ، وان اعتقاده حجة وان لم يحتج ، وهذا ذهول عن الصواب ، لانهم قد لايرون من يأخذ عنهم كما اخذوا ، فيطالبهم بالبرهان فيعجزون .

فحق على المتعلم أن يكون معتدل الرأي حتى لايحمله الاعنات على اعتراض المبكتين ، [1] ولا تبعثه الثقة به على تسليم المقلدين .

وليس كثرة السؤال فيما التبس اعناتاً ، ولا قبول ما صلح في النفس تقليداً بل يجب السؤال عما أبهم .

فعن النبي ﷺ : العلم خزائن مفتاحه المسئلة .

وقال ﷺ : هلا سألوا اذا لم يعلموا ؟

فقد أمر بالسؤال وحث عليه ، ونهى ﷺ عنه اخرين .

وليس منافياً للاول لانه أمر بالسؤال من قصد به علم ماجهل ، ونهى عنه من قصد به الاعنات .

واذا كان السؤال في موضعه أزال الشكوك ، ونفى الشبهة ، قيل لابن

---

(١) المبكت : الغالب بالحجة .

عباس رضي الله عنهما : بماذا نلت هذا العلم ؟ .

قال : بلسان سؤول ، وقلب عقول .

وعن النبي ﷺ : حسن السؤال نصف العلم .

وانشد المبرد :

فسل الفقيه تكن فقيهاً مثله لاخير في علم بغير تدبر

فصل

وليأخذ المتعلم حظّه ممن وجد طلبته عنده ، من نبيه وخامل . ولايطلب الصيت [1] فيتبع أهل المنازل، اذا كان النفع بغيرهم أعم.

اما اذا استوى الامران : فالاخذ عمن ارتفع ذكره وعلا قدره أولى لان الانتساب اليه أجمل.

واذا قرب العلم فلا يطلب مابعد ، واذا سهل من وجه فلا يطلب ماصعب ،واذا حمد من خبره [2] فلا يطلب من لم يخبره .

فان العدول عن القريب الى البعيد عناء ، وترك الاسهل بالاصعب بلاء ، والانتقال عن المخبور الى غيره خطر .

فانه ربما تتبعت نفس الانسان من بعد ، استهانة بمن قرب ، وطلبت ماصعب ، احتقاراً لما سهل .

وانتقل الى من لم يخبره مللا ممن خبره ، فلايظفر بطائل ، ولايحصل على نائل .

وربما راى بعد انتقاله الى الثاني، ثالثا ، فانتقل اليه ، وهكذا ، وهذا من ضعف الرأي ، وكثرة الطيش ، لانه ربما لايرتضي الثاني ، او لايرتضيه فيما

---

(١) الصيت : الذكر الحسن المنتشر بين الناس .

(٢) اى استحسن من اختبر علمه .

بعد ، ويتعسر عليه الرجوع الى الاول .

وربما عرف بالطيش وقلة الثبات ، فيزهد فيه باقي الناس ، فيصير من المذبذبين لاالى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، [١] فيقع في ورطات الجهل والبلاء .

(١) اقتباس من قوله تعالى : في وصف المنافقين : مذبذبين بين ذلك لاالى هؤلاء ولا الى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (سوره النساء : ٤ / ١٤٣) .

فصل [١]

الاخلاق التي هي بهم أليق :

التواضع، ومجانبة العجب : وهما قبيحان بكل أحد ، وبهم أقبح ، لانّ الناس بهم يقتدون ،وكثيراً ما يتداخلهم العجب لتوحّدهم بفضيلة العلم ،ولو نظروا حق النظر لعلموا أن العجب نقص ينافي الفضيلة لاسيمامع قول النبي عليه السلام : أن العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب [٢] .

فلا يفي ما أدركوا من فضيلة العلم . بما لحقهم من نقص العجب .

وازنت بين جمالهـا وفعالها   فاذا الحلاوة بالمرارة لاتفي .

قال بعض الحكماء : تواضعوا لمن تعلمون، ولاتكونوامن جبابرة العلماء، فلايقوم علمكم بجهلكم . [٤]

وقال بعض السلف : من تواضع بعلمه رفعه الله، ومن تكبّر بعلمه وضعه الله عزوجل .

وقال علي عليه السلام : ضع فخرك ، واحطط كبرك ، واذكر قبرك .

---

(١) في نسخه المرعشي : فصل : في اداب العلماء .

(٢) سيأتي ذكر هذا الحديث في باب الكبر والعجب (الباب ١١) من هذا الكتاب ص ٢٠٤

فصل [١]

علة اعجابهم انصراف نظرهم الى كثرة من دونهم من الجهال ، وانحراف نظرهم عمن فوقهم من العلماء ، فانه ليس متناه في العلم الا وهو يجد من هو أعلم منه بكثير ، اذ العلم أكثر من أن يحيط به بشر .

قال الله تعالى : (وفوق كلّ ذي علم عليم) [٢] .

فيجب على العالم أن ينظر الى نفسه بنقص ما قصر فيه ، ليسلم من عجب ماأدرك منه ، فقد قيل في منثور الحكم : اذا علمت فلا تفكر فيمن دونك من الجهال ، ولكن انظر الى من فوقك من العلماء .

قال ابن العميد :

من رام عيشاً هنيئاً يستفيد به — في دينه ثـمّ في دنياه اقبالا

فلينظرن الى من فوقه ادباً — ولينظرن الى من دونه مالا

واعلم أنه قل ماتجد بالعلم معجباً ، الامـن كان فيه مقلا لانه يجهل قدره فيحسب أنه قدنال أكثره .

أما من كان في العلم مستكثراً فهو يعلم من بعد غايته والعجز عن أدراك نهايته مايصدّه عن العجب . ،

قال الشعبي : العلم ثلثة أشبار : فمن نال منها شبراً شمخ بأنفه وظن أنه ناله ، ومن نال الشبر الثاني ، صغرت الـيه نفسه لعلمه انما أخذ منه بالنسبة ، الاماشذ عنه نزر حقير ، واما الشبر الثالث، فهيهات لاينا له أحد ، ومن وصل الى أوله فني .

---

(١) هذا العنوان غير موجود فيQنسختنا بل يوجد بياض في محله . الا انه مذكور في نسخة المرعشي ومذكور ايضاً في الفهرس الذى وضعه الكاتب للكتاب .

(٢) (سورة يوسف : ١٢/٧٦)

فصل

وقد يكون علة تكبره واعجابه ، وبعده عن صوابه ، ما أوصله اليه علمه من المناصب الجليلة ، والاموال الجزيلة ، والملابس الفاخرة ، والمراكب الفارهة ، وما يرى من اقبال الناس عليه ، واحتياجهم اليه ، وتذللهم لديه ، وتقبيلهم يديه ، فيشمخ حينئذ بأنفه ، وينثني بعطفه ، ويغطي ذلك على قلبه ، فيسبح في بحار عجبه ، وتلتوي بصيرته عن كثرة من وصل الى ذلك قبله ، وعن كثرة من يتصف به بعده ، وأنه لودام له لدام لمن كان قبله ، وأن الجاهل الاحمق قد ينال فوق ذلك أومثله ، بل قد يصل الى المناصب ـ فيحتاج الناس اليهم ـ الكفار [1] .

وقد يزيّن بالملابس البرذين [2] والحمار .

فبالله أنشد ولهذا أغنّي ما أنشده لسان حالي ثم أعرب به مقالي :

يامن تلبّس أثوابأ يتيه بـها	تيه الملوك على بعض المساكين
ماغيّر الحلي أخلاق الحمير ولا	نقش البراذع [3] أخلاق البراذين

ولا يخفى على بصير كثرة أبناء هذه الطبقة في هذا الزمان، فبالله المستعان على أمثالهم وعليه التكلان ونحن نسأل الله تعالى الهدايـة الـى الصراط المستقيم ونستعيذ به من مساوىء أنفسنا ومكائد الشيطان الرجيم .

---

(٢) الكفار فاعل يصل . اى ان الكفار قد يصلون الى ما وصل اليه المتكبر من المناصب .

البرذون : الفرس غير الاصيل .

البراذع : ج برذعة وهي الحلس الذى يلقى تحت الرحل .

فصل

وقد روي عن النبي صلوات‌الله عليه في ذلك أنه قال : من سئل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل .

وقال بعض الحكماء : من العلم أن لاتتكلم فيما لاتعلم بكلام من يعلم ، فحسبك خجلا من عقلك أن تنطق بما لاتفهم .

وحيث قد بينا أنه لاسبيل الى الاحاطه بكل العلم فلاعار ان يجهل بعضه فلا [٢] عار أن يقول فيما لايعلم : «لاأعلم» بل العار قدومه على الكذب والاثم وتوقع الفضيحة .

روي أن رجلا قال : يارسول الله ، أي البقاع خير؟ فقال عليه‌السلام : لاأدري، حتى أسأل جبريل .

وكذا يروى عن مالك: أنه أجاب في تسعة وثلاثين من أربعين مسألة ـ: لاأدري .

قال ابن عباس : اذا ترك العالم قول : «لا أدري» أصيبت مقاتله.

وقال بعض العلماء: هلك من ترك «لا أدري».

وقال علي عليه‌السلام : العالم من علم : أن ماعلم فيما لايعلم قليل .

---

(١) فى نسخة المرعشي فصل : الفتيا بغيرعلم .

(٢) كذا في النسختين والظاهر ان الاولى العطف بالواو .

فصل

يجب ان يكون العالم الفاضل مستقلا لما حصل منه ، ولايقنع بما أدرك منه ، لان القناعة فيه زهد، والزهد فيه ترك ، والتركله جهل .

قال بعض الحكماء : كثير العلم ككثير الخير ، وقليله كقليله .

وقال بعض العلماء : من فضل عملك استقلالك له .

فاذا استقله لم يستنكف أن يتعلم ماليس عنده ، فيزداد بذلك علماً .

قال عيسى عليه السلام : ياصاحب العلم تعلم من العلم ماجهلت وعلّم الجهال ماعلمت .

وقال علي رضي الله عنه : خمس خذوهن عني ، فلو ركبتم فيهن الفلك ماوجد تموهن عند أحد غيري :

ألا ، لايرجون" أحد الا ربه ، ولايخافن الاذنبه ، ولايستنكف أن يتعلم ماليس عنده ، ومنزلة الصبر من الايمان بمنزله الرأس من الجسد . (١)

---

(١) كذا ورد في النسختين والمذكورات هنا أربعة لاخمسة كما صرح به الامام عليه السلام وقد ورد في نهج البلاغة هكذا : أوصيكم بخمس لوضربتم اليها آباط الابل (كناية عن شد الرحال والحث في السير) لكانت لذلك أهلا .

لايرجون أحدكم الا ربه ، ولايخافن الا ذنبه ، ولايستحين أحد منكم اذا سئل عما لايعلم أن يقول : لاأعلم ، ولايستحين أحد اذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه ، وعليكم بالصبر فان الصبر من الايمان كالرأس من الجسد ... نهج البلاغة : الحكمة رقم/ ٧٩ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لو كان أحد مكتفيا من العلم لاكتفى منه موسى لمّا قال : «هل أتبعك على أن تعلمني مما علّمت رشداً»(١).

نكتة :

ينبغي أن لايجهل من نفسه مبلغ علمها، وأن لايتجاوز بها قدر حقها ، لان من جهل حال نفسه كان لغيره أجهل .

[قالت عائشة : ...] (٢)

وقال علي عليه السلام : رحم الله امرأ عرف قدره ولم يتعد طوره .

وقال: ماهلك امرؤ عرف قدره .

وقد قسم الخليل بن أحمد ـ رحمه الله ـ الناس الى اربعة أقسام لايخلو حال المرء من واحد منها ، فقال :

ـ رجل يدري ويدري أنه يدري : فذلك عالم ، فاسألوه .

ـ عكسه : جاهل ، فارفضوه .

ـ رجل يدري ولا يدري أنه يدري : فذلك ناس ، فأذكروه .

ـ ورجل لايدري ويدري أنه لايدري : وذلك مسترشد ، فعلموه .

---

(١) (في سورة الكهف : ١٨/ ٦٦) .

(٢) الحديث مشطوب عليه في نسخة الاصل عندنا وغير موجود في نسخة المرعشي ومتن الحديث غير مقروء في نسخة الاصل .

فصل (١)

ومما يجب على العالم العمل بعلمه ، وحث النفس على أن يأتمربما أمر بـه ، والا فهومن الذين وبّخهم الله بقولـه : « اتأمرون ألناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون»(٢)

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : تعلموا ماشئتم أن تتعلموا فلن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا به ، فـان العلماء همتهم الرعاية ، والسفهاء همتهم الرواية . (٣)

وقال ، وقد قال له بعض أصحابه : ماينفي عني حجة الجهل؟ ـ .

قـال : علة العلم .

قال : فما ينفي عني حجة العلم؟

فقال : علة العمل .

وقال عيسى عليه السلام ليس بنافعك أن تعلم مالم‌تعمل ، ان كثرة العلم لاتزيدك الاجهلا اذا لم تعمل به.

وقال أبو ذر رضي الله عنه: أخوف ما أخاف ، اذا وقفت بين يـدي الله

---

(١) في نسخة المرعشي فصل : في العمل بالعلم .

(٢) (سورة البقرة : ٢/٤٤) .

(٣) قد مضى بعض هذا الحديث في ص٨٠ .

تعالى ، فيقول لي : قد علمت فماذا عملت ، اذ علمت؟! .

وكان يقول : خير من القول فاعله ، وخير من الصواب قائله .

وقال بعض العلماء: ثمرة العلم العمل ، وثمرة العمل به الجنة .

وقال بعض الصلحاء : العلم يهتف بالعمل فان أجابه والا ارتحل

واما قول بعضهم :

اعمل بقولي فان قصرت في عملي ينفعك قولي ولايضررك تقصيري

فهذا ان قصر في عمله كما شرط ، فقد خدع نفسه فضرها ونفع غيره وكفى بذلك جهلا وخسرانا ،على أن أمره بما لايأتمر به مطرّح مستقبح، بل ربما كان سبباً لاغراء المأمور بترك ماأمر به وركوب مانهى عنه ، ويكون كمن قيل فيه :

وعامل بالفجور يأمر بالبر كهاد يخوض في الظلم
أو كطبيب قد شفه سقم وهو يداوي من ذلك السقم

وليت شعري هل في أذنيه صمم أو في عينيه عمى عن قول الخليل بن أحمد رحمه الله تعالى :

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء وأنت محتاج له كيما يصح به وأنت سقيم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويشتفى بالقول منك وينفع التعليم
لاتنه عن خلق وتاتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

لطيفة :

واما الانقطاع عن العلم الى العمل ، او العكس اذا عمل بموجب العلم ، فقد روى عن الزهري، مايغني عن غيره، وهو أن قال : العلم أفضل من العمل لمن جهل ، والعمل أفضل من العلم لمن علم .

واما فضل مابين العلم والعبادة بقول مطلق اذا لم يخل بواجب، ولم يقصر في فرض ، فقد روي عن النبي ﷺ في ذلك أنه قال : يبعث العالم والعابد ، فيقال للعابد : أدخل الجنة ، ويقال للعالم : اءتئد (١) حتى تشفع للناس .

(١) اءتئد أمر من التؤدة وهو : التأني والتمهل .

فصل

ومما يجب على العلماء ان لايبخلوا بتعليم مايعلمون : فان البخل به ظلم واثم .

وكيف يليق بهم الشح بماان بذلوه زاد ونما، وان كتموه تناقص ووهى؟؟ ولو فعل ذلك من تقدمهم لم يصل العلم اليهم ، بل كان ينقرض بانقراضهم .

قال الله تعالى : (واذ أخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه» .[1]

وعن النبي ﷺ انه قال: لاتمنعوا العلم أهله فان في ذلك فساد دينكم ، ثم تلا : « ان الذين يكتمون ماانزلنا من البينات والهدى من بعدمابيناه للناس في الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون» [2]

وعنه ﷺ من كتم علماً لخسة، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار.

وعن علي عليه السلام أنه قال : ماأخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم ان يعلّموا .

وفي منثور الحكم: من كتم علماً فكأنه جاهل .

ثم ليعلم : ان له في بذله للمتعلمين نفعين :

أحدهما : مايرجوه من ثواب الله تعالى ، فقد جعل النبي ﷺ التعليم

---

(١) (سورة آل عمران : ٢/ ٨٧) .

(٢) الاية من (سورة البقرة : ٢/ ١٥٩) .

صدقة ، فقال : تصدقوا على أخيكم بعلم يرشده ورأي يسدده .

وعن ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال: تعلّموا وعلّموا فان أجر العالم والمتعلم سواء، فقيل : وما أجرهما؟ قال : مئة مغفرة ومئة درجة في الجنة .

وثانيهما : زيادة العلم ، واتقان الحفظ ، يعرف ذلك من جرّبه.

قال الخليل بن أحمد : اجعل تعليمك دراسة لعلمك ، واجعل مناظرة المتعلم تنبيها على ماليس عندك .

وقال بعضهم : العلم ميت، وحياته بالتعلم ، فاذا أحيي فهو ضعيف، وقوته بالمذاكرة ، فاذا قوي فهو محجوب، وظهوره بالمناظرة ، فاذا ظهر فهو عقيم، ونتاجه بالعمل .

فصل

المتعلم ضربان : مستدعى وطالب :

فالمستدعى: استدعاه العالم الى التعلم ، لماظهر له من جودة ذكائه ، فان وافق استدعاء العالم شهوة المتعلم كانت نتيجتها درك النّحبا [1] والافقد فاز المستدعي باجر الطلب ، وخسر المستدعى بعاقبة الهرب .

وأما الطالب : لداع يدعوه ، فان كان دينياً وجب على العالم الاقبال عليه بكل وجه ـ وان كان بليداً ـ فلا يمنعه من القليل .

وان لم يكن دينياً، فان كان مباحاً ـ كحب النباهة وطلب الرياسة ـ فالقول فيه قريب من الاول ، لان العلم ربما يقطعه الى الدين في ثاني الحال .

قال سفيان الثوري : تعلمنا العلم لغير الله فأبى أن يكون الالله .

وقال عبد الله بن المبارك : طلبنا العلم للدنيا فدلنا على تركها .

وان كان التعلم لداع محظور ـ كشرّ ومكر باطن في شبهة دينية ، اوحيلة فقهيه ـ وجب منعه وزجره.

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: واضع العلم في غير أهله كمقلد الخنازير الجواهر والذهب بل العلم أفضل من الجواهر ، ومن لا يستحقه شرّ من الخنازير .

---

(١) كذا في النسختين ، والنحب يأتي بمعنى : الهمة والحاجة .

وحكي أن تلميذاً سأل عالماً عن مسألة ، فلم يجبه فقيل له في ذلك ، فقال : لكل شجرة غارس ، ولكل ثوب لابس .

وعن النبي ﷺ : لاتمنعوا العلم أهله فتظلموا ، ولاتضيعوه في غير أهله فتأثموا .

قال الشافعي :

ومن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقدظلم

فصل

يجب أن يكون العالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف بها قدر طاقته ومبلغ استحقاقه ، ليعطيه مايحتمله حاله فانه أروح للعالم ، وأنجح للمتعلم .

قال ابن الزبير : لاعاش بخير من لم ير برأيه مالم ير بعينه .

فان لم يتوسمهم وخفيت عليه أحوالهم ومبلغ استحقاقهم كانوا واياه في عناء دائم ، لانه لايعدم أن يكون فيهم ذكي يحتاج الى الزيادة ، وبليد يحتاج الى التقليل فيضجر الذكي ويعجز البليد ، ومن تردد أصحابه بين ضجر وعجز ملّهم وملّوه .

قال بعض الحكماء : خير العلماء من لايقلّ ولايملّ فكل كلام كثر على السمع ولم يطاوعه الفهم ازداد به القلب عمى .

خاتمة الخير ان شاء الله تعالى :

ربما كان لبعض السلاطين رغبة في العلم ، وحب للعلماء ، لفضيلة نفسه، واستقامة طبعه ، فيجب على من يقع عليه اختياره من العلماء للمصاحبة أن لايجعل رغبته في العلم وحبّه للعلماء ذريعة في الانبساط عنده والادلال [1] عليه، بل يعطيه مايستحقه بسلطانه وعلّويده ، فان للسلطان حقا لطاعة والاعظام

(١) الادلال : الجرأة

وللعالم حق القبول والاكرام .

فقد قيل : من استخف بسلطانه فقد تعرض لسخطه وامتهانه .

ثم ينبغي أن لايبتدىء به الا بعد الاستدعاء ، ولا يزيده على قدر الاكتفاء فربما أحب بعض العلماء اظهار علمه للسلطان، فأكثر ، فصار ذلك ذريعةالى ملله ، ومفضياً الى بعده ، لان السلطان منقسم الافكار ليس له في العلمفراغ المنقطعين اليه ، ولاصبر المنفردين به .

حكى الاصمعي ، فقال : قال لي الرشيد : يا عبد الملك ، أنت أعلم منّا ونحن أعقل منك، لاتعلـّمنا فيملأ ، ولاتسرع الى تذكيرنا فيخلاً ، واتركنا حتى نبتدؤك بالسؤال ، فاذا بلغت من الجواب قدر الاستحقاق فلا تزد ، الا ان تستدعي ذلك منك.

قال الاصمعي : والله اني أحوج الى نصيحتك هذه منك الى نصحي .

فانظر الى هذا الكلام كيف بلغ بأوجز لفظ غاية التقويم ولهذا قيل : كلام الملوك ملوك الكلام .

ارشاد :

وينبغيأن يخرج تعليمه مخرج المذاكرة والمحاضرة ، لامخرج التعليم والافادة ، لان للتعليم خجلة يجل محل السلطان عنها .

فاذا ظهر منه خطأ أوزلل ، فيقول او فعل، لم يجاهره بالرد، بل يعرّض باستدراك زلله واصلاح خلله ، من غير أن يواجهه بالاخبار بعيبه ، لكن يضرب له الامثال والمواعظ والحكايات المناسبة ، ويخبره بعيب غيره ،حتى يعرف به عيب نفسه ، فيكون ذلك أوقع في قلبه ، وادعى للاعتراف بذنبه .

فقد قالوا : من تعرّض لرد سلطانه أرداه ، ومن تطامن [1] لـه تخطاه ، وشبّهوه بالريح الشديدة التي لاتضرما لان لها ومال معها وتقصف ماعتا عليها .

قال بعض العلماء : ثلاثة من لم يعطها حقها أسرعت مفارقته : وهم : الملوك ، والعلماء ، والنعم .

فمن حق السلطان ـ مع ماتقدم ـ : أن لايكتمه جليسه نصيحته ـ وان قلّت ـ .

ومن حقه : اذا تثائب ، أو القى المروحة ، أو مدّ رجليه ، أو تمطّى ، أو اتكى ، أوفعل ما يدل على كسله ، أن يقوم من بحضرته . ولايعاد عليه حديث البتة .

ثم ليحذر اتباعه فيما يجانب الدين ، ويضاد الحق المبين . متابعة لهواه وحباً لرضاه ، فربمازلت أقدام العلماء في ذلك رغبة او رهبة ، فضلوا وأضلوا ، والله سبحانه أحق بالرغبة فيما عنده ، وأجدر أن يرهبه من تمّ رشده ، وربما كان ذلك سبباً لمنع ما رغبوه ، ومفضياً الى شر ما رهبوه ، وكل عزيز غالب الله مغلوب .

تتمة :

ومما يجب على العلماء : تنزيه النفس عن شبه المكاسب ، والقناعة بالميسور عن كد المطالب ، فان شبهة المكسب اثم وكد المطلب ذل ، والاجر أجدر بهم من الاثم ، والعز أحق بهم من الذل .

ثم اعلم : ان لكل شيء آلـة ، و آلـة العلم الكتابة والكتب ، فلنذكر طرفاً مما يتعلق بذلك : ـ

(١) تطامن : انحني

باب الكتابة

الكتابة والكتب لغة، الجمع من : كتبت القربة ، اذا جمعت بين طرفيها بالخرز . فسمي الكتاب كتاباً لجمعه المسائل المتحدة جنساً ، المختلفة نوعاً وصنفاً .

قال بعض العلماء في مدح الكتب : الكتب بساتين العقلاء .

وقال بعض البلغاء : الكتاب وعاء مليء علماً ، وظرف مليء ظرفاً [1] .

وقال بعض الفصحاء : الكتب أصداف الحكم تنشق عن جواهر الكلم .

وقال بعضهم : الكتاب بستان يحمل في ردن[2] ، وروضة تقلب في حجر، ينطق عن الموتى ، ويترجم عن الاحياء .

وقال الشاعر :

ولي جلساء لايمل حديثهم ... ألباء مأمونون غيبا ومشهداً

يفيدونني من علمهم علم من مضى ... وعقلا وتاديباً ورأياً مسدداً

فالحاصل : أن المرء يظهر في كتابه مكنون علمه ويتعب فيه موقر رويته وفهمه، فيتاتي له فيه كثير مالم يتأت على لسانه، ولايتيسر له ان يعرب عنه ببلاغته وبيانه ، لانه في الاغلب يكون منفرداً في خلوته ، فيكون متفرغاً لاستعمال بصيرته وفكرته .

---

(١) الظرف الاشياء النفيسة الظريفة .

(٢) الردن : ج : ومفرده بمعنى اصل الكم .

ولهذا قال بعض الحكماء: كتاب المرء عنوان عقله ، ولسان فضله .

وقال بعض العلماء : لايزال المرء تحت ستر من عقله حتى يؤلف كتاباً ، أو يقول شعراً .

وقال بعضهم : ما قرأت كتاب رجل الاعرفت مقدار عقله .

وقال بعض الملوك : ثلاثة تدل على عقول أربابها : الهدية ، والكتاب ، والرسول .

وقال علي بن ابي طالب : عقل الكاتب قلمه .

وقال مسعدة : الاقلام مطايا الفطن .

وقال بعضهم : عقول الرجال تحت أسنة أقلامهم .

وعلى كل حال : فالخط من أكبر المهمات الدينيّة والدنيوية ، وعليه مدار أكثر الامور الدنية والعلية .

ولهذا كانت الكتاب سامتة[1] الملك ، وعمار المملكة وخزنة الاموال .

ومما يدل على شرفه أن الله تعالى أقسم ببعض أدواته وهو القلم ، كما أقسم به في قوله تعالى : « ن ، والقلم ومايسطرون » [2] .

وعدده الله تعالى من نعمه ، في قوله تعالى : « علّم بالقلم » [3] فوصف نفسه بانه علم بالقلم ، كما وصف نفسه بالكرم .

وفي منثور الحكم :الدوات من أنفع الادوات ، والحبر أجدى[4] من التبر .

---

(١) سامتة : قاصدة .

(٢) سورة القلم : ١/٦٨ .

(٣) سورة العلق : ٤/٩٦ .

(٤) أجدى : أنفع .

وقـال بـعض الفضلاء : الـقلم أحد اللسانين ، [١] وحسن الخط أحـد الفصاحتين.

وقال بعض الحكماء : صورة الخط في الابصار سواد، وفي البصائر بياض.

وقال بعضهم : القلم روح اليد ، ولسان الفكر .

وقال اقليدس : الخط هندسة روحانية وان ظهرت بآلة جسدانية .

وقال بعض العلماء : القلم صانع الكلام .

وقال بعضهم : لم أر باكيا أحسن تبسما من القلم .

وقالوا : جهل الخط الزمانة [١] الخفية .

وقال ابن مقلة : لادية عندنا ليد لاتكتب .

وقال ابن البواب : اليد التي لاتكتب رجل .

وقال جعفر بن يحيى : الخط سمط[٢] الـحكمة ، به تفصّل شذورها وينتظم منثورها .

وقال ابـن المقفع : اللسان مقصور على الحاضر ، والقلم على الشاهـد والغابر[٣] .

وقال بعض العلماء : لاشيء أفضل من القلم لان مدة عمر الانسان لايمكن أن يدرك فيها بفكره ما يدرك بقلمه .

وعن ابن عباس في قوله تعالى : «او أثارة من علم» [٤] : يعني الخط .

---

(١) الزمانة : عاهة توجب تعطل القوى .

(٢) السمط : الخيط الذى تنظم فيه الخرز .

(٣) فى منتخبات البيان والتبيين ص ١٧٩ : على القريب الحاضر. والقلم مطلق فى الشاهد والغائب ..

(٤) سورة الاحقاف : ٤/٤٦ .

وعن مجاهد في قوله تعالى « يؤتي الحكمة من يشاء » (١) قال : الخط. « ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » يعني الخط .

وقال بعض الحكماء: القلم والسيف حاكمان في جميع الاشياء ، ولولاهما ما قامت الدنيا .

وكانت العرب تعظّم قدر الخط جداً، وتعدّه من أكبر المنافع . فحينئذ، يجب على من يتعاطى الكتابة أن يكون طويل الروح عالماً ببراية القلم وقطه وغلظه وطول جلفته . وأن يعرف أي حرف يمد ، وأي حرف لايمد ، وعند أي حرف يمد ، ثم يعتني بعد ذلك بأمرين :

أحدهما : تقويم الحروف على أشكالها الموضوعة لها ، فيعطي كل حرف حقه ، ليصير الخط مبيناً .

وثانيهما: ضبط ما اشتبه بالنقط والشكل المميز لها . ثم مازاد على هذين الشيئين من تحسين الخط وملاحة نظمه ، فانما هو زيادة حذق بصنعته وليس شرطاً في صحته .

قال بعض شعراء البصرة :

اعذر أخاك على رداءة خطه	واغفر نزالته (٢) بجودة ضبطه
واعلم بان الخط ليس يرادمن	تركيبه الاتبيّن سمطه
فاذا أبان عن المعاني لم يكن	تحسينه الازيادة شرطه

فمازاد على الخط المفهوم من تحسين الصورة كالزايد على الكلام المفهوم من فصاحة الالفاظ وصحة الاعراب .

ولهذا قالت الاعراب : حسن الخط أحد الفصاحتين فكما لايقدر من أراد

(١) سورة البقرة : ٢/٢٦٩ .

(٢) النزالة : الانحراف وهو في الاصل سيلان الارض من ادنى مطر لصلابتها

التقدمفي الكلام أنيطرح الفصاحة وصحة الاعراب ـ وان فهم وأفهم ـ كذلك لايقدر من أراد التقدم في الخط أن يطرح تحسين الصورة وتصحيح الحروف ـ وان فهم وأفهم ـ .

وربما تقدم بالخط من كان الخط كل فضائله ، حتى صار علماً مشهوراً وفريداً مذكوراً ، غير أن العلماء اطرحوا صرف الهمّة الى تحسين الخط لانه يشغلهم عن العلم ، ولذلك تجد خطوط العلماء في الاغلب ردية .

فصل

قديعرض للخط مايمنع من فهمه كالنقص والزيادة ووصل المفصول، و فصل الموصول، وضعف الخط عن تقويم الحروف على الاشكال الصحيحة .

وقديفهم بعدذلك باعتبار جودة القريحة وكثرة الممارسة والتأمل أو لقلة الزيادة والنقيصة وماأشبه ذلك .

وقديعسر أيضاًفهمه لاغفال نقط، اوشكل، أووضعهما في غيرموضعهما .

والامر في هذين أسهل من الاول لان من كان متميزاً بصحة الاستخراج ومعرفة الخط وقوة البديهة، لايتعسر عليه ذلك، بل قد استقبح ذلك ـ اعني : الاستقصاء في النقط والشكل ـ في المكاتبات ورأوه من تقصير الكاتب أو سوء ظنه بفهم المكاتب وكان استقباحهم ذلك في مكاتبة الرؤساء اكثر حتى قالوا: النقط والشكل في الكتاب استغباء للمكاتب .

اما في سائر العلوم فلم يروه قبيحاً خصوصاً في كتب الادب التي يقصد بها معرفة صيغ الالفاظ ككتب العربية والشعرية [1] فانهم رأوا ضبطها بالنقط والشكل مستحسناً، بل واجباً، لكثرة الاحتياج اليه .

قال الثوري: الخطوط المعجمة كالبرود المعلّمة .

وقال بعض البلغاء: اعجام الخط يمنع من استعجامه ، وشكله يمنع من

---

(١) كذا فى النسختين والاصح العطف بدون ياالنسبة. (والشعر)

اشكاله .

وقال بعض الادباء: ربّ علم لم يعجم فصوله فاستعجم محصوله .

وكما استقبح الكتّاب الشكل والاعجام [١] في المكاتبات ـ وان كان في كتب العلوم مستحسناً ـ فكذلك استحسنوا مشق[٢] الخط في المكاتبات وان كان في كتب العلوم مستقبحاً .

وسبب ذلك أنهم لفرط ادلالهم[٣] بالصنعة وتقدمهم في الكتابة يكتفون بالاشارة، ويقتصرون على التلويح ويرون الحاجة الى استيفاء شروط الابانة[٤] تقصيراً .

لطيفة .

حكي عن بعض الصدور : أنه وجد على ثيابه أثراً من صفرة فطلاّه بالمداد، ثم قال: المداد بنا أحسن من الزعفران، ثم أنشد :

انما الزعفران عطر الغواني ومداد الدويّ عطر الرجال

ثم أنه قد تعاطى بعض مترفي الطلاب والكتّاب، الالغاز والرموز، فلنتكلم على شيء من ذلك موجزين :

---

(١) ـ الاعجام: تنقيط الحروف .

(٢) ـ المشق: مد الحروف .

(٣) ـ الادلال هنا بمعنى التقدم والحذق .

(٤) ـ الابانة: التوضيح .

باب الالغاز والرموز

قديواضع[1] الشخص فيقصد بباطن كلامه غيرظاهره ، فان كان ذلك في الشعر سمي « لغزاً »أوفي النثر ف«رمز» .

أما اللغز: فيقال: بفتح الغين وسكونها، والفتح أفصح، وهو: تحدي اهل الفراغ وشغل اهل البطالة، ليتنافسوا في تباين قرائحهم، ويتفاخروا في سرعة خواطرهم، فيستكدوا [2] خواطر قد منحوا صحتها فيما لايجدي نفعاً ولايفيد علمـاً ، فهم كأهل الصراع ، الذين صرفوا مامنحوه من صحة أجسادهـم في صراع ربما يؤدي الى فسادهم، مع أنـه لايكسب لهم حمداً، ولايؤثـل لهم مجداً، فأولئك وهؤلاء كالحمير التي تتسافر[3] على التحقيق، لولا أنّ تسافر الحمير يفضي الى قطع الطريق، انظر الى قول بعضهم :

رجـل مات وخـلا رجـلا ابن عمّ ابن أخي اخت أبيـه

معـه امّ بنـي أولاده وأبـا أخت بنـي عمّ أخيـه

أخبرني عن هذين البيتين ــ الذين يروّع صورة[4] ماتضمنا من السؤال ــ

---

(١) يواضع: يراهن .

(٢): يتعبوا .

(٣) من السفر وهو السرعة في الذهاب .

(٤)كذا الظاهر ، والكلمة مشوهة في الاصل ، وكتب في نسخة المرعشي (صوبه) .

اذااستكدّ المرءالفكر في استخراجهما، علم[1]أنه أراد ميتاً خلف أبأوزوجة وعماً. ماالذي افاده من العلم؟ ونفى عنه من الجهل ؟

فنحن لانستبعد ان يرد علينا امثال هذا فنستكد افكارنا ونصرف اوقاتنا في استخراجه ثم نكون بعده كما كنا قبلا فليصرف العاقل نفسه عن علوم النوكى[2]، وتكلف البطالين .

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : من حسن اسلام المرء : تركه ما لا يعنيه .

وليجعل العاقل ما منّ الله عليه من صحة القريحة وسرعة الفهم مصروفاً الى علم يكون انفاق العمر فيه مذخوراً، وكد الفكر فيه مشكوراً .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ .

ونحن نستعيذ بالله أن نغبن في فضل نعمه علينا او نجهل نفع احسانه الينا .

قال بعض البلغاء : من أمضى يومه في غير حق قضاه، أوفرض أدّاه، أو مجد أثّله، أوحمد حصّله أوخير أسّسه، أوعلم اقتبسه : فقد عق يومه وظلم نفسه .

---

(١) فى النسختين : فعلم .

(٢) الحمقى .

فصل

وأما الرمز: فلست تجده في علم معنوي، ولا في كلام لغوي وانمايختص غالباً بأحد شيئين :

امـا بمذهب خفي شنيـع يخفيه معتقده ، ويجعل الرمز بـه سبباً لتطلـّع النفوس اليه، واحتمال التأويل فيه سبباً لدفـع التهمة عنه .

واما بمايدعي أربابه أنه علم معوز [1]، وأن ادراكه بديع معجز كأرباب صنعة الكيمياء حيث رمزوا بأوصافها وأخفوا معانيهسا ، ليوهموا الشحّ بها ، خديعة للعقول الواهية، والآراء الفاسدة .

قال الشاعر :

منعت شيئاً فأكثرت الوقوع به أحب شيء الى الانسان مامنعا

ثم ليكونوا براء من عهدة ماقالوا اذا جرّب، ولوكان عندهم وراء الرمز معنى صحيح أوعلم مستفاد لخرج من الرمز الخفـي الى العلم الجلي ، لان أغراض الناس ـ مع اختلاف أهوائهم ـ لاتتفق على سرسليم، واخفاء مفيد .

قال الشاعر :

صاد الصديق وكاف الكيمياء معاً لايوجدان فدع عن نفسك الطمعا

---

(١) نادر الوجود .

باب الدنيا

صريح اسمها دليل على لؤمها. ، فهي دنيا كما سمّيت، لانها انواصلت فتبعات موبقة، أوفارقت ففجعات محرقة .

فمن النبي صلوات الله عليه أنه قال: من هوان الدنيا على الله أنه لايعصى الا فيها، ولاينال ماعنده الا بتركها .

وقال عيسى عليه السلام: الدنياقنطرة فاعبروها ولاتعمروها .

وقال عليه السلام: لايستقيم حب الدنيا والاخرة في قلب مؤمن ، كما لايستقيم الماء والنار في اناء واحد .

وقال وهب : الدنيا والاخرة كضرّتين ان أرضيت أحدهما أسخطت الاخرى .

وقال عيسى عليه السلام : تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ، ولا تعملون للاخرة وأنتم لاترزقون فيها الا بعمل ؟ .

وقال عليه السلام : أوحى الله تعالى الى الدنيا : من خدمني فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه .

وقال عليه السلام : ان أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ، الذين نظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى عاجلها ، فأماتوا منها ماخشوا أن يميت قلوبهم ، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم .

وقال علي رضي الله عنه : الدنيا أولها عناء ، وآخرها فناء حلالها حساب وحرامها عقاب من استغنى فيها ندم ومن افتقر فيها حزن من ساعاها [١] فاتته ومن قعد عنها آتته ومن نظر اليها أعمته ومن نظر بها[٢] بصرته .

وقال لقمان الحكيم : يابني ، الدنيا بحر عميق قد غرق فيه ناس كثير ، فليكن سفينتك فيها تقوى الله ، وحشوها الايمان بالله عز وجل ، وشراعها التوكل على الله ، لعلك ناج ، وماأراك ناجياً .

وقال بعض البلغاء : الدنيا لاتصفوا لشارب ، ولاتفي لصاحب ، ولاتجلو من محنة ، ولاتخلو من فتنة ، فأعرض عنها قلبك ، قبل أن تعرض عنك ، واستبدل بها قبل أن تستبدل بك ، فان نعيمها يتبدل وأحوالها تنتقل ، ولذاتها تفنى ، وتبعاتها تبقى .

وقال بعضهم أيضاً : الدنيا تقبل اقبال الطالب ، وتدبر ادبار الهارب ، وتصل وصال الملوك وتفارق فراق العجول ،فخيرها يسير ، وعيشها قصيرمرير واقبالها خديعة ، وعطاؤها وديعة ، ولذاتها فانية ، وتبعاتها باقية ، فاغتنم فيها غفوة الزمان ، وانتهزفرصة الامكان وخذ من نفسك لنفسك ، وتزود من يومك لغدك .

وقال بعض الحكماء : الدنيا اما نقمة نازلة ، أو نعمة زائلة .

وقال أبو العتاهية :

هي الدار دار الاذى والقذى ودار الفناء ودار الغير
فلو نلتها بحذافيرها لمت ولم تقض منها الوطر

---

(١) ساعاها : جاراها .

(٢) نظر بها : استدل باحوالها وفى نهج البلاغة (الخطبة ٨٠) ابصر بها ، وفى نسخة المرعشى : نظر فيها .

أيا مـن يؤمل طـول الحيـاة وطول الحيـاة عليـه ضرر
اذا ما كبـرت وبان الشبـاب فلاخيرفي العيش بعد الكبر

وقال بعض الحكماء : انك لن تصبح في شيء من الدنيا ، الا وقد كان له أهل قبلك ، ويكون له أهل بعدك ، وليس لك في الدنيا الا عشاء ليلـة وغداء يوم ، فلاتهلك في أكلة ، وصم الدنيا وأفطر على الاخرة ، فان رأس مال الدنيا الهوى ، وربحها النار (١) .

وقال بعضهم : مامضى من الدنيا كأن لم يكن ، وما بقى منها كما قد مضى فمن عرف الدنيا ثم طلبها فقد أخطأ الطريق ، وحرم التوفيق (٢) .

وقال بعض الزهاد : لاتنظر الى دنيا الملوك وخفض عيشهم فيها ،ولكـن انظر الى سرعة ظعنهم عنها وقلة مايصحبهم منها .

وكان عمر بن عبدالعزيز (رضه) كثيراً مايتمثل بهذه الابيات :

نهارك ـ يـا مغرور ـ سهو وغفلة وليلك نوم و الاسى لـك لازم
تسر بمـا يفنى ، وتفرح بالمنـى كماسر باللذات في النوم حالم
وتشغـل فيمـا سوف تكـره غبه كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وحكي الاصمعي قال : دخلت على الرشيد يوماً فوجدته ينظر في كتاب ودموعه تسيل على خديه ، فلما رآني رمى الي بالقرطاس ، واذا فيه شعر أبي العتاهية وهو :

هـل أنت معتبر بمـن خربت منه غـداة قضى دساكـره ؟
وبمن أذلّ الدهـر مصرعـه فتبـرأت منـه عساكـره
وبمـن خلـت منـه أسرّتـه و تعطّلـت منـه منابـره
أيـن الملوك وأيـن غيرهم صاروا مصيـراً أنت صائـره
يا مؤثـر الدنيـا للذتهـا و المستعـدّ لمـن يفاخـره

نل مابدا لك أن تنال من الدنيــــــــــا فــان المــوت آخــره

ثم قال الرشيد : والله لكأني اطلب بهذا الشعر، فما لبث الا يسيراً حتى مات .

فمن وفّقه الله للنظر الى باطن الدنيا وشر منقلبها بعين بصيرته ، وأجال فيما تلونا عليه من المواعظ والامثال صافي فكرته ، بعثه عقله السليم على شيئين : الزهد فيها وفي حطامها ، والقناعة بما يسد الخلة في قليل أيامها ، فيسلم حينئذ من آثامها

فصل (١)

أما الزهد : فهو في أصل اللغة عدم الرغبة ، من زهد في الشيء: اذا لم يرغب فيه ، وأما في الاصطلاح : فهوسجيّة في النفس تقتضي تحقير الدنيا وحطامها تحقيراً يمنع من طلبها والرغبة فيها .

وعلى هذا فقد يكون الغني ذو الاموال الجزيلة زاهداً ، والفقير الذي لا يملك شيئاً راغباً .

ولهذا قال البسطامي : ليس الزاهد من لايملك شيئاً ، ولكنه الذي لا يملكه شيء .

وهو من أعظم المقاصد ، وأجل الموارد ، حيث به يكون رضا اللهتعالى لانه قد أمر به وحثّ عليه ، ورضا الناس ، لانّ محبوب كلّ أحد من ترك منازعته فيما يديه ، وكفى بذلك رفعة وراحة .

والباعث عليه ــ مع كرم النفس وشرفها ــ عقل بصير ونظر خطير كشفا عن دناءة الدنيا وكثرة معائبها ، فعلما أنها جديرة باستحقارها والزهد فيها ، وأوجبا الرغبة في رضا الله بدلا منها ، والثقة بحصول ماعنده عوضاً عنها .

قال بعضهم : الزهد بصحة اليقين ، وصحة اليقين بنور الدين .

وقال سعيد بن المسيب : مرّبي ابن أشيم فما تمالكت أن نهضت اليه

---

(١) في نسخة المرعشي فصل : الزهد .

فقلت : ياأبا الصهباء ، أدع لي ؟

فقال : رغبّك الله فيما يبقى وزهّدك فيمايفنى ، ووهب لك اليقين الذي لاتسكن النفوس الا اليه ، ولايعول في الدين الاعليه .

ومرّ محمد بن واسع بقوم ، فقيل : هؤلاء زهاد ، فقال : وما قدر الدنيا حتى يحمد من زهد فيها ؟ !

فرحمه الله ماأبلغ جوابه .

ودخل قوم الى منزل زاهد فلم يجدوا شيئاً يقعدون عليه فقالوا له في ذلك ، فقال : لوكانت دار مقام لاتخذنا لها أثاثاً .

وقيل لبعض الزهاد لما مرض : ألا توصي ؟

فقال : بماذا ؟ والله ما لنا شيء ، ولا لنا عند أحد شيء ولا لاحد عندنا شيء .

فانظر الى هذه الراحة والسلامة ، ولهذا قيل: الفقرملك ليس فيه محاسبة

فصل [1]

وأما القناعة : فهي عبارة عن الرضا بما يسد الخلة ، وترك التعرض لما سواه ، وأما الرضا بقول مطلق : فهو أعلى منزلة منها ، وسيأتي الكلام عليه ان شاء الله تعالى [2].

وحيث كان الرضا مأخوذاً في تعريف القناعة ، فهي من أعظم المنافع ، وأربح البضائع ، لما يترتب عليها من راحة النفس ، وسلامة الجسم من هموم زوائد المكاسب ، وكد المطالب ، ورضا الرحمان ، والفوز بالجنان .

قال مجاهد في تأويل قوله تعالى : « فلنحيينّه حياة طيبة » [3] : يعني القناعة .

وعن النبي ﷺ : اذا أردت أن تحيا عزيزاً غنياً ، فلا تكن على حالة الارضيت بما دونها .

وعنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : مامن عبد الا بينه وبين رزقه حجاب ، فان قنع أتاه رزقه وان هتك الحجاب لم يزد في رزقه .

قال ابن الرومي :

---

(١) في نسخة المرعشي فصل : القناعة .

(٢) في خاتمة الباب : ١٣/الصبر والجزع .

(٣) سورة النحل : ٩٧/١٦ .

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحـرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

وقال بعض الحكماء : من قنع كان غنياً ـ وان كان فقيراً ـ ، ومن لـم يقنـع كان فقيراً ـ وان كان غنياً ـ .

قال أبو العتاهية :

قنّـع النفس بالكـفاف والا طلبت منك فـوق مايكفيها
انما أنت طول عمرك ماعمرت في الساعة التي أنت فيها

فصل

مـن أبت نفسه قبول نصحه في الرضا باليسير فليس الى اكراهها سبيل الا بالرياضة، فيستنزلها باليسير الذي لاتنفر منه .

فاذا استقرت عليه ، استنزلها الى ماهو أيسر منه ، لتنتهي بالتدريج الـى الغاية المطلوبة ، والمرور على الحالة المحبوبة ،كل ذلك بعدايرادالمواعظ وضرب الامثال ، وذكر قصر العمر، وشبه ذلك .

وحيث قد عرفت أن القناعة رفض مازاد عن قدر الكفاية ، فقدر الكفاية من المأكل والملبس والمسكن ونحو ذلك ، مما لابد منه لبقاء هذا الشخص الانساني في الدنيا ليتزود منها الى الاخرة .

ولذلك روي عن النبي ﷺ انه مدحها فقال : نعم المطية الدنيافارتحلوا بها تبلغكم الاخرة .

وذم الدنيا رجل عند علـي رضي الله عنه فقال : الدنيـا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها .

فلنرجع الى الكلام على الدنيا فنذكرطرفاً مما تنتظم به .

فصل

من لطيف حكمة الله تعالى انه خلق الخلق محتاجين عاجزين ، ليكون جل وعز منفرداً بالغنى ، مختصاً بالقدرة . ثم جعل الانسان أكثر حاجة من جميع نوع الحيوان ، لان باقيه يستقل بنفسه ولايحتاج الى شيء مما يحتاج اليه الانسان الا نادراً ، وأما الانسان فهو مطبوع على الافتقار الى جنسه والى غيره ، كما لايخفى ، وانما خصه الله تعالى بكثرة الحوائج لطفاً به، ليمنعه ذل الحاجة ومهابة العجز عن الطغيان بالغنى والقدرة ، لان الطغيان مركوز في طبعه اذا استغنى، كما اخبر الله تعالى[1] والبغي مستول عليه اذا قدر .

قال ابو الطيب المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لايظلم .

ولما خلقه الله تعالى ماس الحاجة ، ظاهر العجز ، جعل لنيل حاجاته اسباباً ولدفع عجزه أبواباً ، دله عليها بالعقل .

قال الله تعالى : «والذي قدّر فهدى» [2] .

فلزم أن يصرف الانسان الى دنياه حظاً من عنايته ، لانه لاغناء به عن التزود منها للاخرة .

---

(١) حيث قال سبحانه « ان الانسان ليطغى ، ان رآه استغنى » (سورة العلق : ٧/٩٦) .

(٢) (سورة الأعلى : ٣/٨٧) .

ولابد له من سد خلته ، كما قد بيّنّاه آنفاً ، وليس هذا نقضا لما قلناه أولا من الحث على ترك فضولها وزجر النفس عن الرغبة فيها ، فان جميع ذلك فيما تجاوز قدر الحاجة والا فقد قال الله تعالى ، لنبيه ﷺ: «فاذا فرغت فانصب ، والى ربك فارغب»(١).

قال أهل التأويل : يعني اذا فرغت من أمر دنياك فانصب في عبادة ربك .

وليس هذا القول منه ترغيباً لنبيّه ـ ﷺ ـ فيها ، ولكنّه ندبه الى أخذ البلغة منها ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : ليس خيركم من ترك الدنيا للاخرة ولا الاخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه (٢) .

وحكى مقاتل : ان ابراهيم الخليل ﷺ قال : يارب الى متى أتردد في طلب الدنيا ؟

فقيل له : أمسك عن هذا ؟! فليس طلب المعاش من طلب الدنيا .

وقال سفيان الثوري: مكتوب في التوراة، يا بن آدم : اذا كان في البيت برّ فتعبّد ، وان لم يكن فاطلب ، يا بن آدم : حرك يدك يسبب لك رزقك .

وقال بعض الحكماء : ليس الرغبة في الدنيا اكتساب ما يصون العرض فيها .

فوجب بما بينّاه النظر في أمور الدنيا ، وسبر أحوالها ، ليعلم أسباب صلاحها وفسادها ، فتقصد الامور من أبوابها .

---

(١) سورة الانشراح : ٩٤/٧ ــ ٨) .

(٢) كذا والظاهر: لهذه .

فصل

يتضمن طرفاً مما ينتظم به أمرها

ومن لطيف حكمة الله تعالى وحسن تدبيره : أنه لم يجعل الدنيا لجميع أهلها مسعدة ، ولاعن كافّة ذويها معرضة ، لان اعراضهاعن جميع أهلها عطب واسعادها لكافّتهم فساد .

بل ايتلافهم [و] (١) اختلافهم لاجل المساعدة والتعاون ، اذ لـو تساووا جميعهم لم يجد أحدهم الى الاستعانة بغيره سبيلا ، ولم يرض أحد منهم بكد نفسه بالصنايع الدنيّة المحتاج اليها ، لو جعلهم كلهم سعداء .

ولم يقدر أحد منهم على احتمال المشاق والكلف في السفر الطويل لاجل قليل ما يحتاج اليه من مـأكل وملبس أودواء او شبه ذلك ، لو جعلهم كلهم فقراء .

ولو كان كذلك لهلكوا حينئذ عجزاً ، او ضعفوا فشلا.

بل جعلهم مختلفين مؤتلفين بالمعاونة ، متواصلين بالحاجة .

قال تعالى : « والله فضـّل بعضكم على بعض في الرزق »(٢).

سبحانه ما أعظم شأنه ! وأعظم اتقانه !

---

(١) ليس في النسختين وانما اضفناه لسياق الجملة .

(٢) (سورة النحل : ١٦/ ٧١) .

ثم ان صلاح الدنيا مصلح أحوال أهلها ، لظهور دياناتهم ، ووفور أماناتهم وفسادها مفسد لهم لقلّة أماناتهم ، وضعف دياناتهم .

فلا شيء انفع من صلاحها ، كما انه لاشي أضر من فسادها ، وصلاحها من ستة أشياء ، هي القواعد ، وان تفرع عليها غيرها .

الاول : الدين المتّبع :

لانه يصرف النفوس عن شهواتها ويقهرها في خلواتها فيكون الدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا .

ولهذا لم يخل الله جل وعز خلقه من تكليف شرعي ينقادون لحكمه ، فيترتب عليه حفظ الاصول والفروع .

الثاني: السلطان القاهر :

لانه يجتمع لهيبته القلوب المتفرقة ، وتنكف [1] لسطوته الايدي الغالبة ، لان حبّ الغلبة والرفعة والاستيثار بالاموال وتوابعها مركوز في طبع الانسان . كما قال تعالى : « زيّن للنّاس حبّ الشهوات » الاية [2] .

فهي لاترد عنه الابمانع قوي ، وقد أفصح المتنبي بذلك في قوله :

لايسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

(١) تنكف : تعتدل وتمتنع عن ظلم غيرها .

(٢) تتمة الاية ... من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المئاب .

(سورة آل عمران ٣/ ١٤)

وهذه العلة المانعة اما دين ، أو سلطان ، أو عجز ، ولا يكاد يكون لها رابع ، ورهبة السلطان أبلغها ، لان الدين ربما كان مضعوفاً بداعي الهوى .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « السلطان ظل الله في الارض يأوي اليه كل مظلوم »(١) .

وقال ابن مسعود : السلطان ربما يفسد ، ومايصلح الله به أكثر ، فان عدل فله الاجر وعليكم الشكر ، وان جار فعليه الوزر وعليكم الصبر (٢) .

ثم لايخفى ما في السلطان من حراسة الدين والذب عنه ، ومنع الاهواء منه ، وزجر من شذ عنه ، أو سعى فيه بفساد ، ومن ثم وجب اقامة امام يكون زعيم الامة ليكون الدين محروساً جارياً على أحكامه .

اذا عرفت ذلك فالذي يجب على امام الامة سبعة أشياء :

الاول : حفظ الدين من التبديل والحث على العمل به .

الثاني : حراسة الدين والذب عن الامة من عدو في دين أوباغ في نفس أو مال .

---

(١) سوف يأتي تفسير السلطان الموصوف بهذا الوصف وهو الامام العادل الحاكم بحكم الله تعالى والعامل بواجباته السبعة التي سيذكرها بعد قليل ..

(٢) قد أورد ابن مسكويه الحديث عن رسول الله قوله : فان عدل كان له الاجر وعلى الرعية الشكر، وان جار كان عليه الوزر و على الرعية الصبر، وهذا تمام المروى عن النبي فيما سبق راجع الحكمة الخالدة ص١٧٩، وليس الصبر هو السكوت عما يفعله والرضا بذلك فان هذا المعنى من تحريفات المغرضين أعداء الاسلام ، لهذا المفهوم الاسلامي العميق . بل الصبر هو الاستقامة والصمود والتحدى لرفع الجور وازالة العدوان وهذا المعنى واضح في كل مورد وردت فيه هذه الكلمة فقد قال تعالى يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون .

سورة آل عمران : ٣/ ٢٠٠

الثالث : عمارة البلدان باعتمار [١] مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها .

الرابع: تعاطي مايتولاه من الاموال بسنن الدين من غير تحريف في أخذها ولافي اعطائها .

الخامس : معاناة[٢] المظالم والاحكام ، بالتسوية بين أهلها .

السادس : اقامة الحدود على مستحقيها ، من غير تجاوز ولاتقصير .

السابع : اختبار خلفائه في الامور أن يكونوا من أهل الكفاية والامانة عليها.

فاذا فعل السلطان ذلك كان مؤدّيا حقّ الله فيهم مستوجباً لطاعتهم ، وان قصّر كان بها معاقباً وعليها مؤاخذاً ، ويكون من الرعيّة على ارتقاب معصية او موت ، فيتربصون به الفرص .

روي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) انه قال : ما من أمير على عشرة الا وهوياتي يوم القيامة مغلولة يداه على عنقه حتى يكون عمله هو الذي يطلقه أو يوبقه [٣] .

الثالث : العدل

والعدل يستعمل على معنيين عام وهو الاعتدال، وخاص وهو مايطلبه الرعية من سلاطينهم ، ويقابل الجور والظلم .

اما العام فهو عبارة عن التوسط بين التقصير والسرف ، لانه مأخوذ من الاعتدال، ومنه العدالة ، فما جاوز الاعتدال فهو خروج عنه .

قالت الحكماء : الفضائل هيآت متوسطة بين خلتين ناقصتين .

---

(١) في نسخة المرعشي : باعمار

(١) المعاناة: المقاساة ويراد بها معالجة المظالم.

(٢) أي ان الامة تترقب للوثوب عليه لقتله أو لمخالفة أوامره ومعصيته ما أمكن.

فالحكمة : واسطة بين الشر والجهالة ، والشجاعة واسطة بين التهوّر والجبن، والعفة: واسطة بين الشره وضعف الشهوة، والسكينة واسطة بين الجمود والخفة ، والظرف : واسطة بين الخلاعة والوقار ، والتواضع : واسطة بين الكبر ودناءة النفس، والسخاء : واسطة بين التبذير والتقتير، والحكم: واسطة بين السخط وعدم الغضب ... وعلى هذا، فلست ترى فساداً الاوسببه الخروج عن العدل من زيادة أونقصان .

واما الخاص : فالكلام عنه هنا هو المقصود بالذات ، فبه تكون الالفه ، والطاعة، وعمارة الارض، وانماء الاموال ، واطمئنان النفوس.

وبالجملة لاشيء أنفع من العدل ،كما أنه لاشيء أضر من الجور .

قال الاسكندر لحكماء الهند : أيما أفضل العدل أم الشجاعة ؟ !

فقالوا : اذا استعمل السلطان العدل أغناه عن الشجاعة .

وقال بعضهم: العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ونصبه للحق فلاتخالفه في ميزانه ولاتعارضه في سلطانه واستعن على العدل بخلتين: قلة الطمع ، وكثرة الورع .

فصل :

واذا كان العدل من احدى قواعد الدنيا التي لاانتظام لها الا به وجب أن يبدأ الانسان بعدله في نفسه ، ثم بعدله في غيره .

أماعدله في نفسه : فيكون بحملها على المصالح وكفها عن القبائح ، ثم توقيف أحوالها على أعدل الامرين : من تجاوز ، او تقصير .

فان التجاوز بها جور ، والتقصير فيها ظلم ، ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم .

وأما عدله في غيره ، فثلاثة اقسام .

الاول : عدله فيمن دونه ، كالسلطان مع رعيته والرئيس مع صحابته ، وعدله بأربعة أشياء :

اتباع الميسور ، وحذف المعسور ، وترك التسلط بالقوة ، وابتغاء الحق في السيرة .

فان اتباع الميسور أدوم ، وحذف المعسور أسلم ، وترك التسلط أجلب للمحبة ، وابتغاء الحق أبعث على النصرة .

وهذه الامور ان لم تسلم للزعيم كان تطرق الاختلال اليه أكثر وأظهر .

روي عن النبي ﷺ انه قال : أشد الناس عذاباً من أشركه الله في سلطانه فجار في حكمه .

أوس يرفعه : من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من

الاسلام .

مجاهد يرفعه : يسلط الله الحزن على أهل النار فيقال لهم: هذا ماكنتم تؤذون المؤمنين .

وقال علي رضي الله عنه : يقول الله : أشتد غضبي على من ظلم من لم يجد ناصراً ومن سلب نعمة غيره سلب الله نعمته .

حكي : ان محمد بن مروان قال : صرت الى جزيرة النوبة في آخر أمرنا، فأمرت بالمضارب فضربت، فخرج النوبة يتعجبون منها، ثم أقبل ملكهم وهو رجل طويل أصلع حاف عليه كساء من صوف ، فسلم ، وجلس على الارض .

فقلت له : مالك لاتقعد على البساط ؟

قال : أنا ملك وحق لمن رفعه الله أن يتواضع له اذ رفعه ثم قال لي : مالكم تطئون الزرع بدوابكم ، والفساد محرم عليكم في كتابكم ؟

فقلت . عبيدنا فعلوه بجهلهم .

فقال : مابالكم تلبسون الديباج ، وتتحلون بالذهب، وتشربون الخمور، وكل ذلك محرم على لسان نبيكم ؟

فقلت : فعل ذلك أعاجم من خدمنا كرهناالخلاف عليهم .

قال محمد بن مروان: فجعل ملك النوبة يكرر معاذيري على وجه الاستهزاء ثم قال: ليس كماتقول، يابن مروان ولكنكم قوم ملكتم وظلمتم بغير استحقاق وتركتم ما أمرتم به، ولله منكم نقمة لم تبلغ، واني أخشى أن تبلغ بكم وأنتم في أرضي، فارتحل عني .

الثاني عدله فيمن فوقه كالرعية مع سلطانها والصحابة مع رئيسها وهو بشيئين : اخلاص الطاعة ، وبذل النصرة.

فان اخلاص الطاعة أجمع للشمل، وبذل النصرة أدفع للوهن .

قال بعضهم : أطع من فوقك يطعك من دونك .

الثالث : عدل الانسان مع أكفائه ويكون بثلاثة أشياء :

ترك الاستطالة ، وكف الاذى : ومجانبة الادلال .

لان ترك الاستطاله آلف ، وكف الاذى أنصف ، ومجانبة الادلال اعطف

فان لم يخلص هذه الثلاثة في الاكفاء أسرع فيهم التقاطع

قال بعض الحكماء : كل عقل لايدارى به كل الناس فليس بتام .

الرابع مما يصلح به أمر الدنيا : الامن العام

المقابل للخوف، وبه تطمئن النفوس وتنتشر الهمم.

قال بعض الحكماء : الامن أهنى عيش ، والعدل اقوى جيش ، لان الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام مرادهم .

الخامس الخصب في الدار .

اذ به تتسع الاحوال ويشترك فيه ذووا الاكثار والاقلال ، فيقل في الناس الحسد ، وتتسع النفوس ، وتكثر المواساة .

ولان الخصب يؤول الى الغنى، والغنى يحدث الامانة والسخاء .

كتب عمر بن الخطاب الى ابي موسى الأشعري : لاتستقضين الا ذا حسب او مال ، فان ذا الحسب يخاف العواقب ، وذا المال لايرغب في مال غيره .

وقال بعض السلف : وجدت خير الدنيا والاخرة في خصلتين : التقى والغنى ، وشر الدنيا والاخرة في خصلتين : الفجور والفقر .

---

(١) الادلال : الانبساط والاجتراء على الصديق وثوقاً بمحبته .

(٢) في النسختين: الخصب .

قال الشاعر :

ولـم أر بعد الدين خيراً من الغنى

ولم أر بعد الكفر شراً من الفقر

وقال الشاعر :

ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا

واقبح الكفر والافلاس في الرجل

السادس : الامل الفسيح

وهو الباعث على اقتناء ما يقصر العمر عن استيفائه .

ولـولا أن الثاني يـرتفق بما أنشأه الاول ، فيصير به مستغنيا ، لشق عليه استحداث كـل ما يحتاج اليه ، فلو اقتصر أهل كل عصر على مـا يحتاجون اليه لحصل من الاعواز وتعذر الامكان ما لاخفاء فيه .

فلذلك وسّع الله لخلقه الامال. حتى عمروا الدنيا ، فتنتقل الى القرن الاخر معمورة ، ولو لا ذلك لما تجاوز أحد قدر حاجته في يومه ولا تعدى ضرورة وقته وكانت تنتقل الى من بعده خرابا ثم تنتقل الى من بعده باسوء من ذلك ، وهكذا . . .

روي عن النبي ﷺ أنه قال : الامل رحمة من الله تعالى لامتي ، ولو لاه ما غرس غارس شجراً ، ولا أرضعت أم ولداً .

واما الأمل المتعلق بالاخرة والتسويف وشبه ذلك فسيأتي في فصل مفرد ان شاء الله تعالى (١) .

---

(١) في الباب : ٢١/ الامل والتسويف والرجاء والمنى .

فهذه الامور الستة هي التي تنتظم بها أمور الدنيا وبحسب ما اختل منها يكون اختلالها .

وبعيد أن يكون أمرها كـاملا وصلاحها شاملا ، لانها موضوعة للتغيير والفناء ، والتكاليف الشاقّة التي يترتب عليها الجزاء .

سمع بعض الحكماء رجـلا يقول : قلب الله الدنيا .فقال الحكيم : اذن تستوي لانها مقلوبة .

واذ قد فرغنابحمدالله تعالىوحسن توفيقه مما يصلح به حال الدنيا فلنذكر طرفاً مما يصلح به حال الانسان فيها مستعينين بالله تعالى .

فصل

ومما يصلح به حال الانسان في الدنيا ثلاثة أشياء :

نفس مطيعة الى رشدها منتهية عن غيها .

والفة جامعة تعطف القلوب عليها وتدفع المكروه بها .

ومادة كافية تسكن النفس اليها ويستقيم الاود بها .

فلنوضح كل واحد بما اقتضاه الحال وأدى اليه النظر :

فصل :

أما النفس المطيعة : فلانّ النفس اذا أطاعت ملكت ، واذا ملكت انقادت الى فعل ما يراه العقل من المصالح ، فتظفر بالسعادتين .

واذا عصت ملكت واذا ملكت ،تهورّت الى فعل ما تراه هي من القبائح، فتبوء بالخسارتين .

على أنّ من لم يملك نفسه فهو بأن لايملك غيره أحرى .

وحاصل الامر : أن طاعة النفس وعصيانها بحسب سلامتها من استيلاء دواعي الهوى والشهوات وعدمه ، وسلامتها من دواعي الهوى والشهوات وعدمه بحسب غلبة العقل عليها وتملّكه لها ، أو غلبتها عليه وتملّكها له .

فصل:

وأما الالفة الجامعة: فلان الانسان مقصود بالاذيّة ، محسود على النعمة .

فاذا لم يكن آلفاً مألوفاً تخطفته أيدي حاسديه ، وتحكّمت فيه أهواء أعاديه فلم تسلم له نعمة ولم تصف له مدة .

واذا كان آلفاً مألوفاً انتصر بالالفة على أعادية وامتنع منهم بعشيرته وذويه .

على أن الالفة من محاسن الشيم، ودلائل الاصل والكرم .

فعن النبي ﷺ أنه قال المؤمن آلف مألوف، ولاخير فيمن لايألف ولايؤلف وخير الناس أنفعهم للناس .

والعرب تقول : من قلّ ذلّ .

وحيث كانت الالفة بهذه المنزلة فلنذكر نبذاً من أسبابها وهي أربعة :

(الاول): الدين وذلك لبعثه على التناصر ومنعه من التدابر، هذا رسول الله صلى الله عليه بعث والعرب أشدّ الناس تقاطعاً وتعادياً(١) حتى أنّ بني الاب الواحد كانوا يتفرقون أحزاباً، ويقتل بعضهم بعضاً، وكانت الانصار أشدّ العرب تقاطعاً وتعادياً ، فكان بين الاوس والخزرج اختلاف كثير ، وتباين فضيع ، وتهاج شنيع ، الى أن أسلموا فصاروا بالاسلام اخوانا متواصلين .

---

(١) يصف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) أوضاع الناس قبل بعثة الرسول الاعظم (ص) فيقول : ان الله بعث محمداً (ص) نذيراً للعالمين ، وأميناً على التنزيل ، وأنتم ــ معشر العرب ــ على شر دين ، وفي شر دار ، منيخون بين حجارة خشن، وحيات صم، تشربون الكدر، وتأكلون الجشب ، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم . .

كما يصف تفرقهم العقائدي بقوله : وأهل الارض يومئذ ملل متفرقة ، وأهواء منتشرة ، و طوائف متشتتة بين مشبه لله بخلقه ، أو ملحد في أسمائه ، أو مشير الى غيره فهداهم من الضلالة وأنقذهم من الجهالة .. (نهج البلاغة : الخطبة/٢٦و١) .

قال الله تعالى : «واذكروا نعمت الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا» (١) .

ثم انه على قدر الالفة في الدين اذا ائتلف تكون المباثنة فيه اذا اختلف .

هذا ابو عبيدة بن الجراح لما أسلم قتل أباه يوم بدر واتى برأسه الى رسول الله فلم يعطفه عليه رحم ولا كفّه عنه اشفاق ، تغليباً للدين على النسب .

ثم انه قد يختلف أهل الدين الواحد على مذاهب شتى فيحدث بينهم من العداوة مايحدث بين مختلف الاديان ، وان خفي شيء من ذلك فلايخفى ماكان بين المعتزلة ـ قابلهم الله بمايستحقونه ـ وبين أهل الحق ـ رفع الله درجاتهم ـ من المعاداة والبغض ، والتعصب والحمية ، والتشنيع الفضيع ، الى أن احق الله تعالى الحق بكلماته ، وأبطل دابرهم ، وخسر هنالك المبطلون .

(الثاني من أسباب الالفة): النسب ، لان حمية الارحام تبعث على التناصر حكمة من الله تعالى .

روي عن النبي ﷺ انه قال : الارحام اذا تماست تعاطفت .

ثم ان الارحام ثلاثة : والدون ، ومولودون ، ومتناسبون .

اما الوالدون : فهم موصوفون مع سلامة حالهم بخلقين ، لازم بالطبع وحادث بالاكتساب .

فاللازم بالطبع : الحذر والاشفاق .

والحادث بالاكتساب : هو المحبة التي تنمو مع الاوقات ، وتتغير بتغير الحالات .

فاذا انصرف الوالد عن حب ولده فليس ذلك لبغضه ولكن لسلوة

---

(١) (سورة آل عمران : ٣ / ١٠٣) .

حدثت من عقوق او تقصير مع بقاء الحذر والاشفاق الذي لايزول عنه .

والامهات أكثر اشفاقاً ، وأشد حباً ، لما باشرن من الولادة ، وعانين من التربية ، ولانّهن ّ أرق ّ قلوباً والين نفوساً ، فهن أكثر انفعالا .

ولذلك وجب ان يكون التعطف عليهن ّ من الاولاد أكثر ، جزاء لفعلهن .

روي عن النبي ﷺ أنه قال : أنهاكم عن عقوق الامهات .
وعنه ﷺ : ان ّ الله تعالى يوصيكم بأمّهاتكم ، ثم يوصيكم بأمّهاتكم ، ثم يوصيكم بأمّهاتكم ، ثم يوصيكم بآبائكم .

واما المولودون : فموصوفون أيضاً ـ مع سلامة حالهم ـ بخلقين :

أحدهما لازم بالطبّع ، وهو الانفة والحميّة للاباء من تهضّم او خمول وهو في مقابلة الاشفاق من الاباء .

وثانيهما : منتقل وهو :الادلال (١)، وهوفي مقابل المحبة من الاباء ، فربما يزول ويقل ّ باعتبار زوالها او قلتها .

واما المتناسبون : فهم من عدا الاباء والاولاد من الاعمام والاخوال، وهم لا يتصفون بالحمية الباعثة على النصرة ، فان حرست بالتواصل والتلاطف تاكدت وكانت من أوكد اسباب الالفة .

وان أهملت غلب عليها مقت الحسد ومنازعة التنافس فصارت عداوة وتباعداً .

ومن ثم قال بعضهم : الاب رب ّ ، والولد كمد ، والعم غم والخال وبال والاقارب عقارب .

ومن اجل ذلك امر الله جل وعز بصلة الارحام ، فقال تعالى : «والذين

---

(١) الادلال : الانبساط .

يصلون ما امر الله به ان يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب» [١] .

قال المفسرون هي الرحم التي أمر الله تعالى بوصلها، ويخشون ربهم في قطعها .

وعن النبي ﷺ أنه قال: صلـة الرحم منماة للعدد، مثراة للمال محياة[٢] في الاهل، منسأة في الاجل .

وقال بعض الحكماء من لم يصلح لاهله لم يصلح لك، ومن لم يذبّ عنهم لم يذبّ عنك .

(الثالث من أسباب الالفة) المصاهرة : لانها استحداث مواصلة صدرت عن رغبة واختيار .

قال الله تعالى : « ومن آياتـه أن خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودّة ورحمة»[٣] .

يعني بالمودة : المحبة ، وبالرحمة : الشفقـة ، وهما من أوكد أسباب الالفة .

وقد قيل: المرء على دين خليله، قال بعضهم: يعني زوجته، لما له اليها من الميل والحبّ، فلا يجد الى المخالفة سبيلا .

ثم ان مبنى عقد المصاهرة على خمسة أوجه :

الاول: المال،فاذا كان المال هو الباعث على العقد فالمال هو المنكوح، فان اقترن بأحد الاسباب الباعثة على الائتلاف جاز ان تدوم الالفة، وان انفرد فما اوشك بالعقد أن ينحل، وبالالفة ان تزول، لاسيما اذا غلب الطمع وقل الوفاء ،

---

(١) (سورة الرعد : ٢١/١٣) .

(٢) فى الجامع الصغير ج٢ ص٤٤: محبة .

(٣) (سورة الروم: ٢١/٣٠) .

لان المال اذا وصل اليه فقد تقضّى سبب الالفة .

فقدقيل: من ودّك لامر انقضى وداده بانقضائه .

وقال بعض الفصحاء: من عظّمك لاستقلالك، استقلّك عند اقلالك .

وان تعذرت القدرة عليه ولم يتمكن من الوصول اليه أعقب ذلك استهانة الأياس بعد شدّة الامل ، فيحدث منه البغض والعداوة لان من أحبّك طمعاً فيك، أبغضك اذا يئس منك .

الثاني: الجمال، وهو أدوم للالفة لانّه صفة لازمة ولذلك قيل : حسن الصّورة أوّل السعادة .

وعن النبي ﷺ: أعظم النساء بركة أحسنهنّ وجهاً وأقلّهنّ مهراً .

الاّ انهم كانوا يكرهون الجمال البارع ، اما لما يحدث عنه من شدّة الادلال المفضي الى الملال .

فقدقيل: من بسطه الادلال قبضه الملال .

واما لما يخافه اللبيب من شدة الصبوة ، ويتوقاه الحازم من عواقب الفتنة .

فقد قال بعض الحكماء: ايّاك ومخالطة النساء، فان لحظهن سهم ولفظهن شتم .

ورأى بعضهم صيّاداً يكلّم امرأة فقال: ياصيّاد، احذر أن تصاد[1] .

وسمع عُمر بن الخطاب امرأة تقول :

ان النساء رياحين خلقن لكم وكلّكم يشتهي شمّ الرياحين

فأجابها .

---

(١) هذا هو الاصح وفي النسختين ان تصطاد والتصحيح من كتاب الايجاز والاعجاز ص٣٥ .

ان النساء شياطين خلقن لنـا نعوذ بالله من شرّ الشياطين

الثالث: الدين، وهو أحمد أسباب الالفة بداءاً وعاقبـة ، لان من طلب الدين انقاد له واستقامت حاله به وبطلبه .

الرابع : الرغبة في الالفة ، وهذا يكون لاحد وجهين .

امـّا: المكاثرة باجتماع الفريقين .

وامـّا:التألـّف الاعداء، فيقصد به تسكين صولتهم. وهذان الوجهان يكونان غالباً في الاماثل وأهل المنازل فالداعي الاول: الرغبة، والداعي الثاني الرهبة .

فان دام السبب دامت الالفـة، وان زال السبب بزوال الرغبة أوالرهبة ، خيف زوال الالفة، الا ّ أن ينضمّ اليها أحد الاسباب الباعثة عليها .

الخامس: التعفف، وهـو الوجه الحقيقي المبتغى بعقد النكاح وماسواه أسباب متعلقة عليه ومضافة اليه .

روى عطيّة عن عكاف : انالنبي ﷺ قال له : ياعكاف ألك زوجة ؟

قال: لا .

قال: فأنت اذن من اخوان الشياطين، ان كنت من رهبان النصارى فالحق بهم، وان كنت منـّا فمن سنـّتنا النكاح .

وهذا حثّ كبير منه ﷺ على التزويج .

والحق أنـّه أفضل من التخلـّي للعبادة، لادلـّة كثيرة لو شرحنـاها لطال ذلـك .

(الرابع من أسباب الالفة) : البر،ونعني به : المعروف، وهو نوعـان : قول وعمل .

اما القول: فهو عبارة عن طيب الكلام، وحسن البشر، والتودّد بالجميل وهذا يبعث عليه كمال العقل، وحسن الخلق، ورقـّة الطبع ولا مرية في كونـه محدوداً، فان اسرف كان ملقاً مذموماً ، وان اقتصد به فهو البرّ المحمود .

قال ابن عباس في قولـه تعالى : «والباقيات الصالحات»[1] انها: الكلام الطيب .

وقيل للعتابي: انك تلقى العامّة ببشر وتقريب، فقال : أدفع ضغينة بأيسر مؤنـة. واكتسب اخوانا بأهون مبذول .

قال الشاعر :

بنـيّ انّ البرّ شيء هيّن وجـه طليـق وكلام ليّـن

وأما العمل: فهو بذل الجاه ، والاسعاد بالنفس، والمعونة في النائبة وهذا يبعث عليه حب الخير للناس مع الرغبة في الاجر الجزيل والذكر الجميل .

وليس لهذا حدّ ولا فيه سرف ، لانـه وان كثر فهو فعل خير يعود بنفع على صاحبه ، وهو اكتساب الاجر والذكر الجميل ومودّات الرجال، ونفع على المعان بـه .

فعن النبي ﷺ: كل معروف صدقـة .

وعنه ﷺ: المعروف كاسمه، وأول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف وأهلـه .

قـال الحطيئـة :

من يفعل الخير لايعدم جوازيه لايذهب العرف بين الله والناس

وانشد الريّاشي :

يـد المعروف غنم حيث كانت تحمّلها كفـور أو شكـور

فغـي شكر الشكور لها جزاء وعند الله ما كفـر الكفـور

---

(١) تتمة الاية «.. خير عند ربك ثواباً» وقد وردت في موضعين من القرآن الكريم هما: (سورة الكهف ١٨/٤٦) و (سورة مريم: ١٩/٧٦) .

خاتمـة .

ينبغي لمن قدر على اسداء المعروف ـ كائنا من كان ـ أن يعجّله حذر فواته أوالعجز عنه وليعلم ان ذلك من فرص زمانه، وغنائم امكانـه ، ولايهمله ثقة بالقدرة عليه، فكم من واثق بقدرة فاتت فاعقبت ندماً .

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: من فتحت عليه باب من الخيرفلينتهزه، فانه لايدري متى يغلق عنه .

وقيل لانوشيروان : أيّ شيء أعظم المصائب عندكم ؟ فقال : أن يقدر على المعروف فلايصطنعـه حتى يفوت .

قال الشاعر :

اذا هبّت رياحك فاغتنمها	فانّ لكل خافقة سكون
ولاتغفل عن الاحسان فيها	فلا يدرى السكون متى يكون

فصل :

وأما المادة فلايخفى أن الحاجة اليها لازمة للانسان كله ، لانه لا يدوم له حياة ، ولاتستقيم له دنيا الا بها ، ويلحقه من الوهن في نفسه والاختلال في دنياه بقدر ماتعذر منها وهي تعدم بغيرطلب أوسبب .

وأسبابها مختلفة متشعبة ، وذلك هو سبب ايتلافها لانهم لو اجتمعوا على سبب لفسد نظامهم وقد هداهم الله تعالى بعقولهم الى أسبابها وكيفياتها حكمة منه تعالى فقال : «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا»(١).

يعنى في معائشهم ، متى يزرعون مثلا ،وكيف يفعلون ؟

وقال الله تعالى : «وقدّر فيها أقواتها»(٢).

قال عكرمة : جعل في كل بلد منها مالم يجعله في الاخرى، ليعيش بعضهم بالتجارة ، من بلد الى بلد آخر(٣).

ثم جعل سبحانه وتعالى سد حاجتهم بوجهين :كسب ومادة .

فالمادة : ماكانت من أصول نامية . وهي شيئان : نبت وحيوان .

واما الكسب : فبالافعال والتصرف ، وذلك من وجهين : تقلب في تجارة وتصرف في صناعة .

فأسباب المكاسب المعروفة اذن أربعة : نماء زراعة ، ونتاج ماشية،وربح

---

(١) سورة الروم : ٣٠/٧ .

(٢) سورة فصلت : ٤١/١٠ .

(٣)كذا في نسخة المرعشي، وفي نسختنا : اخرى .

تجارة ، وكسب صناعة .

قال المأمون : من خرج عنها كان كلا عليها .

فلنصف حال كل واحد منها بما أدى اليه النظر واقتضته الحال :

أما الاول : فهومادة أهل الحضر وسكان الامصار . والاستمداد بها أعمّ نفعاً ، ومن ثم ضرب الله تعالى المثل فقال : «مثل الّذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة»[1].

وعن النبي ﷺ : خير المال عين ساهرة لعين نائمة .

وقال ﷺ : الرزق في خبايا الارض . يعني : الزرع .

وقال كسرى لبعض جلسائه : ماقيمة تاجي هذا ؟ فاطرق ساعة ثم قال : ما أعرف له قيمة الا مطرة في أرض معوزة ، فانها تصلح من معائش النـاس ما يكون مثل قيمة تاج الملك . فأعجب كسرى بجوابه .

وأما الثاني : فهومادة أهل الفلوات ، وسكان الخيام ، لانهم لمالم يضمّهم دار ، افتقروا الـى الاموال المنتقلة التي لاينقطع نماؤها بالرحلـة ، فاختاروا الحيوان ، لانه يستقل في النقلة بنفسه ويستغني في العلوفة برعيه، ومنه مركوب ومحلوب فهو لهم أفضل لقلّة مؤنته عليهم ، ارشاداً من الله تعالـى لعباده في تدبير المصالح .

وأما الثالث : أعني التجارة : فقد روي أنها تزيد في العقـل وان تركها ينقصه .

قال النبي ﷺ : تسعة أعشار الرزق في التجارة ، والباقي في السائبات .

ثم هي نوعان : تقلب في الحضرمن غيرسفر، وهواحتكار رغب فيه أولوا

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ٢٦١ .

الاقدار ، وزهد فيه ذووا الاخطار .

والثاني : تقلب بالاسفار ، وهو أليق بأهل المروءة والشأن ، وأكثر نفعاً لانه أكبر خطراً .

فعن النبي عليه السلام : المسافر وماله على قلتّ ، الا ماوقى الله .

يعني : على خطر من الهلاك .

وقيل في التوراة : يابن آدم ، أحدث سفراً أحدث لك رزقا .

وأما الرابع : وهو الصناعة : فأقسامها كثيرة ، لايسعنا استيعابها ، الا ان منها شريف وأشرف ، ووضيع وأوضع فأشرف الناس نفساً متهيء لاشرفها صنفاً ، وأرذلهم متهيء لارذلها ، لان الطبع يبعث الى مايلائمه ويدعو الى ما يجانسه كل ذلك بتقدير العزيز الحكيم .

فصل

لايخلوحال الانسان في المكسب من ثلاثة أحوال :

الاول : أن يلتمس منها قدر كفايته فقط وهو أحمد أحوال الطالبين .

روى قتادة : عن رسول الله . أنه قال : أوحى الله الي كلمات فدخلن في أذني وقرن في قلبي ، وهن : من أعطى فضل ماله فهوخير له ، ومن أمسك فهو شر له ، ولايلوم الله على كفاف .

وعن معاوية بن جندب قال : قلت : يا رسول الله مايكفيني من الدنيا؟ فقال ﷺ : ماسد جوعتك وسترعورتك .

وحكى ابن عباس ومجاهد في قوله تعالى : «اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً»(1) ان كل من ملك زوجة وخادماً فهوملك .

وعن رسول الله (ص) : من كانت له بيت وخادم فهوملك .

ثم هذا الذي طلب قدر كفايته ليس عليه الا توخي الحلال، واجمال الطلب، ومجانبة الشبهة فعن رسول الله (ص) : الحلال بيّن ، والحرام بيّن ، فدع ما يريبك الى ما لايريبك ، فلن تجد فقد شيء تركته لله .

وقد قيل : من قل توقية كثرت مساويه .

وكان الاوزاعي كثيراً ينشد قول بعضهم :

---

(1) سورة المائدة : ٥/ ٢٠ .

المال ينفذ حلّه وحرامه يوماً و تبقى بعده آثامه

ليس التقـي بمتق لالهـه حتى يطيب شرابه وطعامه

الثاني : أن يقصّر عن طلب الكفاية ، فهذا التقصيراما الكسل، أو توكل أو قناعة وزهد .

فان كان لكسل: فقد أحرم نفسه ثروة النشاط ، فصار كلا ضائعاً، ويوشك أن يكون شقياً ، لانـه اذا قصرفي طلب مايصلحه عـاجلا ، فتقصيره في طلب الاجل أقرب .

وعن النبي ﷺ :كاد الفقر أن يكون كفراً .

وقال بزرجمهر: انكان شيء فوق الحياة فالصحة ، وان كان مثلها فالغنى وان كان شيء فوق الموت فالمرض ، وان كان شيء مثله فالفقر .

وفي منثور الحكم : القبرخيرمن الفقر.

وان كان تقصيره لتوكل : فذلك عجز، وقد أعذرته نفسه في تركحزم،لما غير اسمه .

لان الله تعالى أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل ، فيكون حينئذ التسليم الى القضاء ، والا فهوجل وعز قد أمر بالسعي .

ذكرجماعة عند رسول الله ﷺ رجلا بخير، فقالوا : يارسول الله خرج معنا حاجاً فاذا نزلنـا منزلا لم يزل يصلي حتى نرحل ، فاذا ارتحلنا لم يـزل يذكر الله تعالى حتى ننزل .

فقال ﷺ : من كان يكفيه علف ناقته وصنع طعامه ؟

فقالوا :كلنا .

فقال ﷺ :كلكم خيرمنه .

وقال بعض الحكماء : ليس من توكل المرء اضاعة الحزم ، ولامن حزمه

اضاعة نصيبه من التوكل .

وان كان تقصيره لتقنع وزهد : فهوممن علم بمحاسبة نفسه بتبعات الغنى والثروة ، فآثر الفقرعلى الغنى ، وقابل الحاجة بالصبر والرضا .

فعن رسول الله ﷺ : انتظار الفرج من الله عزوجل عبادة ، ومن رضي بالقليل من الرزق رضي الله تعالى منه بالقليل من العمل .

وبالجملة : هذه حال من نصح نفسه فأطاعته وهانت عليه فأجابته وعلمت ان من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير.

كتب الحسن البصري الى عمر بن عبد العزيز: ياأخي ، من استغنى بالله اكتفى ، ومن انقطع الى غيره تعنّى ، ومن كان من قليل الدنيالم يشبع ، لم يغنه منها كثرة مايجمع، فعليك منها بالكفاف، وألزم نفسك العفاف ، وإياك وجمع الفضول ، فان حسابها يطول .

وقد قدمنا في الكلام على الزهد والقناعة ماهو أسبغ[1]من هذافليراجع ثم[2].

الثالث : أن لايقنع بالكفاف ، ويطلب الزيادة فقد يكون لاحد أسباب أربعة :

(الاول) : منازعة الشهوات التي لاتنال الا بزيادة المال، وليس للشهوات حدٌ متناه ، فيكون ذلك ذريعة الى ما يطلبه غيرمتناه، ومن لم يتناه طلبه، دام كده وتعبه،فلم يف التذاذه بنيل شهوته ، بمايعانيه من التعب والكدح في مدته، مع ماقد لزمه من ذم الانقياد الى الشهوات ، والتعرض لاكتساب التبعات، حتى

(١) كذا الظاهر والكلمة مهملة فى الاصل وفى نسخة المرعشى (اشنع) .

(٢) الباب : ٥/الدنيا ــ الفصل :١/الزهد ص١٢١ .

يصير كالبهيمة التي انصرفت همتها الى طلب ماتدعوها اليه شهوتها .

روى علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه قال : من أراد الله به خيراً حال بينه وبين شهواته ، وان أراد به شراً وكله الى نفسه .

وقال الشاعر:

وانك ان أعطيت بطنك سؤله وفرجك نالامنتهى الذم أجمعا[١]

(الثاني) : أن يطلب الزيادة ليصرفها في وجوه البر، ويصطنع بها المعروف فهذا أعذر وبالحمد أولى واجدر ، اذا توقى الشبهات ، وأجمل في الطلبات، لان المال آلة المكارم ، وعون على الدين ، وبه تتألف الاخوان ، ومن فقده قلت الرغبة فيه، والرهبة منه، ومن لم يكن بموضع رغبة ولا رهبة استهانوا به .

قال النبي ﷺ : ان أحساب هذه الدنيا المال .

وقال مجاهد : الخير في القرآن كله : المال [٢].

ومنه : «وانه لحب الخير لشديد»[٣] يعني المال .

ومنه : «فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً »[٤] يعني مالا.

وقال شعيب : «اني أراكم بخير»[٥] يعني : غنى .

وانما سماه الله تعالى خيراً ، لانه يؤدي الى الخير اذا صرف في وجهه .

---

(١) كذا في عيون الاخبار ج١ ص٣٧ عن حاتم طيء، ولكنه ورد في محيط المحيط : وانك مهما تعط بطنك سؤله .

(٢) هناك موارد كثيرة في القرآن وردت فيها كلمة الخير ولا تعني المال راجع المعجم المفهرس ص٢٤٩ ــ ٢٥١ .

(٣) سورة العاديات : ١٠٠/٨ .

(٤) سورة النور ، ٢٤/٣٣ .

(٥) سورة هود : ١١/٨٤ .

وقال قيس بن سعد : الحمد لله حمداً ومجداً فانه لاحمد الا بفعـال ، ولا مجد الا بمال .

وقيل لابي زياد : لم تحب الدراهم وهي تدنيك من الدنيا ؟ فقال : هي وان أدنتني منها ، فقد صانتني عنها .

وقال بعض الحكماء: من أصلح ماله فقد صان الاكرمين العرض والدين .

وفي منثور الحكم : من استغنى كرم على أهله .

ويقال : الدراهم مراهم لانها تداوي كل جرح .

وقال الشاعر:

ذريني للغنى اسعى فانـي ... رأيت الناس شرهم الفقير

يباعده الغريب وتزدريـه ... حليلتـه وينهـره الصغيـر

لطيفة :

اختلف الناس في تفضيل الغنى والفقر مع اتفاقهم على أن ما أحـوج من الفقرمكروه ، وما أبطرمن الغنى مذموم .

فذهب قوم الى تفضيل الغنى ، لان الغني مقتدر، والفقيرعاجز، والقدرة أفضل من العجز.

وقال الشاعر:

ان بين العلوم و المال بوناً ... ذاك للقدر لي ، وهذا لقدري

فتراني بالعلـم أقرىء حتى ... أجتنـي شيعة وبالمـال أقري

وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة .

وذهب آخرون الى تفضيل الفقر، لان الفقيرتارك ، والغني ملابس،وترك الدنيا أفضل من ملابستها .

وعن النبي ﷺ : الفقرفخري وفخر الانبياء من قبلي(١).

وعنه انه قال: اللهم أحيني فقيراً وتوفني فقيراً وحبّب الي صحبةالفقراء.

وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة .

وذهب آخرون الى تفضيل التوسط ، بان يخرج عن حد الفقر الى أدنى مراتب الغنى ، ليصل الى فضيلة الامرين ، ويسلم من مذمة الحالين .

وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال ، وان خيار الامور أوساطها .

ولكل فريق شواهد اخر كثيرة يطول استقصاؤها .

(الثالث) : أن يطلب الزيادة ليدخرها لولده من بعده اشفاقاً عليهم ، ويمنعها نفسه ، وهذا شقي بجمعها مأخوذ بوزرها، قد استحق الذم من وجوه:

منها : سوء ظنه بخالقه ــ عزوجل ــ في انه لايرزقهم الا من جهته وسوء الظن بالله من أكبر الاثام .

ومنها: العجز، بالثقة ببقاء ذلك لولده، مع كثرة نوائب الحدثان .

ومنها : ماسلب نفسه من منافع ماله .

وقد قيل : مالك لك ، أو للوارث ، أو للنائبة .

قال عبد الحميد : اطرح كواذب آمالك ، وكن وارث مالك .

---

(١) الجمع بين هذه الرواية وأمثالها من قوله (ع) اللهم اغنني بالافتقار اليك وبين مامضى في ص١٥١ وماسياتي أيضاً، من قوله (ص): كاد الفقر أن يكون كفراً ، هو : ان الفقر على نوعين : ١ ــ الفقر التكويني الموجود في الانسان وسائر الكائنات حيث انها مفتقرة في وجودها الى الله سبحانه وتعالى وهومصداق قوله تعالى : أنتم الفقراء الى الله . سورة فاطر: ١٥/٣٥ .

وبهذا الفقر والانتساب الى الله يفتخر كل موجود .

وأما النوع الثاني : وهوانعدام المقتنيات اللازمة للانسان وهذا هوالفقر المذموم الذي لابد لكل انسان العمل على رفعه عن نفسه وعن مجتمعه .

ومنها: مايحاسب عليه من تبعاته .

حكى : أن هشام بن عبد الملك لماأدركته الوفاة ، بكى عليه ولده،فقال لهم : جادلكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بزور البكاء ؟ وترك لكم ما كسب ، وتركتم له ماأكتسب ؟ ماأسوء حال هشام ان لم يغفر الله له ، فأخذه محمود الوراق فقال :

تمتع بمالك قبل الممات والا فلامال ان أنت متّا

شقيت به ثم خلفته لغيرك بعداً وسحقاً ومقتا

فجادوا عليك بزور البكاء وجدت لهم بالذي قد جمعتا

وأرهنتهم كلما في يديك وخلّوك رهنا بماقد كسبتا

الرابع أن يجمعه لطلب المكاثرة به ، واستحلاءاً بجمعه فهذا أسوءالناس حالا ، لصيرورته وبالا عليه .

وفي مثله قال الله تعالى: «والذين يكنزون الذهب والفضّة ولاينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم»[1] .

على أنه في دار الدنيا دائماً في عذاب أليم وتعب مقيم لانه دائماً يجد من هو أكثر منه مالا وأحسن حالا ، واستحلاء المال لاينقضي ، وبذله في مواضعه لايرتضي، فهو أسوء حالا من الفقير بمراتب كثيرة .

قال الشاعر :

اذا كنت ذا مال ولم تك ذاندى فانت اذن والمقترون سواء

على ان في الاموال يوماً تباعة على اهلها والمقترون براء

وللشافعي (رضه):

ان الذي رزق اليسار ولميصب حمداً ولا أجراً لغير موفق

---

(١) (سورة التوبة: ٣٤/٩) .

فصل

واعلم ان من استولى عليه حبّ المال بعثه الى الحرص في طلبه والشح بـه ، والحرص والشحّ أصلا كل ذمّ، لان الشحّ يمنع من أداء الحقوق ويبعث على القطيعـة والعقوق [1].

قال علي بن أبـي طالب (رضي الله عنـه) : البخل جامـع لمساويء العيوب .

وناهيك بذلك ذمـاً .

وامـا الحرص ، فانّـه يسلب فضائـل النفس ويبعث على التّورط في الشبهات .

على ان الحريص لايكتسب بحرصه زيادة على رزقه سوى الاذلال لنفسه والاسخاط لخالقه . .

قالت الحكماء: الحرص مفسدة للدين والمروّة .

وقال بعض البلغاء: المقادير الغالبة لاتنال بالمغالبة ، والارزاق المكتوبة لاتدرك بالحرص والمطالبة، فذلّل للمقادير نفسك، واعلم أنك غير نائل بالحرص الاّ حظّك .

ثم انه ليس للحرص غاية مطلوبة يقف عندها، ولا نهايـة محدودة يقتنع

---

(١) وسيأتي بحث مفصل عن الشح في الباب: ١٤ .

بها، لانه اذا وصل الى ماأمّل، أغراه ذلك على الزيادة ، وبعثه على الحرص وزيادة الامل ، فلوصدّق الحريص نفسه واستنصح عقلـه ، علم أنّ من تمام السعادة، وحسن التوفيق الرضا بالقضاء، والقناعة بالقسم .

قال رسول الله (ص): اقتصدوا في الطلب فان مارزقتموه أشدّ طلباً لكم منكم له، وماحزمتموه فلن تنالوه ولو حرصتم .

باب أدب النفس

مايجب أن يفعله المرء، وتكون عليه النفس من الاداب والصفات والافعال والاقوال، اما ان يعود عليه نفعه في الدنيا والاخرة، كالصدق والسخاء، أوفي الدنيا فقط كالمشورة وكتمان السر .

ولايختص شيء بالاخرة، لان كل شيء له نفع أخروي، فله نفع دنيوي، وأقلّه الحمد من الناس، والمدح منهم، والسلامة من شرورهم .

وقد قدّمنا من الاداب ومحاسن الافعال والاخلاق جملة وهاأنا أذكرهنا مايسعني ذكره ممابقي، فأقول وبالله التوفيق :

اعلم رضي الله عنك وعنّا: أن النفس مجبولة على شيم مهملة، وأخلاق مسترذلة، لاتستغني بذاتها عن التأديب، ولاتكتفي بالمرضيّ منها عن التهذيب فان أغفل المرء تاديب نفسه، دخل في صورة الجهل لان من الاداب اللازمة. ماهو مكتسب بالتجربة، أومستحسن بالعادة ، فهذا لاينقاد اليه الطبع، ولاينال الاّ بتوقيف العقل، بل بالدربة[1] والمعاطات ، لكن يكون العقل قيّماً عليه وسلّماً اليه، فالعقل لايغني عن الادب، البتة .

قال جماعة من الحكماء: العقل بلاأدب كالشجر العاقر ، ومع الأدب كالشجر المثمر .

---

(١) التدريب والترويض.

وقال بعضهم: الادب صورة العقل، فصوّر عقلك كيف شئت .

وقال أردشير: الادب ممدوح بكل لسان، ويتزين به في كل مكان .

فالحاجة الى الادب أشدّ من الحاجة الى المطعم والمشرب .

وقال بعض البلغاء : الفضل بالعقل والادب ، لا بالاصل والنسب لانّ من ساء أدبه ضاع نسبه، ومن قل عقله ضل حسبه .

وقال الشاعر :

فما خلق الله مثل العقـول ولا اكتسب الناس مثل الأدب

وقال الاصمعي :

وانيك العقل مولوداً فلست أرى ذا العقل مستغنيا عن حادث الادب

اني رأيتهمـا كالماء مختلطـاً بالترب يظهر عنـه زهرة العشب

فصل

والتأديب يلزم من وجهين :

(أحدهما) ما يلزم الوالد لولده في صغره، وهو أن يأخذ ولده بمبادىء الادب ليأنس بها وينشأ عليها، فيسهل عليه قبولها عند الكبر، لاستيناسه بمبادئها.

ومن أغفل تأديب ولده في الصغر، كان تأديبه في الكبر عسيراً .

فعن النبي ﷺ أنه قال : ما أنحل الوالد ولده نحلة أحسن من أدب حسن يفيده ايّاه ، وجهل قبيح يكفّه عنه ويمنعه منه .

وقال بعض الحكماء: بادروا بتأديب الاطفال قبل تراكم الاشغال وتفرق البال .

فائدة .

ولابد لمعلم الولد من ملاطفته بكل وجه ، وأن يهدي اليه ألين القول . أولا، ثم ليّنه ، ثم غليظه ، ثم أغلظه .

وذلك بحسب صغر الولد وكبره، وقوّه نفسه وضعفها .

ولابد للوالد من امناح ولده بمايستلذّه من مطعم ومشرب ويستحسنه من ملبس، فيميل حينئذ الى الادب بكلّيته لان نفس الطفل لطيفة ، سريعة الميل والنفور ، اذا حصل مقتضاه من ضرب أوفحش كلام .

وان كان لابد من الضرب وغليـظ القول في بعض الموارد ، لاسيما اذا كان فائقاً مميزاً ، فانـه ربما كان ذلك أردع له .

فالحاصل: ان المعلم كالطبيب، أوكالامر بالمعروف والناهي عن المنكر لايجوز له التعدّي الى الاعلى الا بعد تعذر الادنى .

(وثانيهما) أدب الانسان عند كبره، وهو أدبان :

أدب مواضعة واصطلاح، وأدب رياضة واستصلاح .

أما الاول: فيؤخذ تقليداً على مااستقر عليه اصطلاح العقلاء ، واستحسنه الادباء ، وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل ولا لهم على أختياره دليل في الغالب ، كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب، وهيئآت اللباس ، ونحوذلك .

فاذا جاوز الانسان ماهم عليه من ذلك صار مجانبا للادب مستوجبا للذم، لان فراق المألوف في العادة موجب لذلك .

ولهذا قال الشاعر :

ان جئت أرضاً أهلها كلهـم عور فغمّض عينك الواحدة

ثم ان هذه الاداب لاجل اختلافها بتنقّل الاحوال، وتغيّر العادات لايمكن استيعابهـا ، وانما يذكر كل انسان ويتعاطى ما بلغـه الوسع من آداب زمانه واستحسنه العرف من عادات مكانه .

واما الثاني : نعني أدب الرياضة والاستصلاح: فهوما كان على حالة لا يجوز في العقل خلافها، فهو مما لايختلف العقلاء فيه ..

وأول مقدماته ان لايسبق المرء الى حسن الظن بنفسه، فيخفى عنه مذموم شيمه ومساوىء أخلاقه .

قال الله تعالى: «ان النفس لامّارة بالسوء»[1] .

(١) (سورة يوسف: ١٢/ ٥٣) .

وقال النبي ﷺ : أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك ، ثم أهلك ، ثم عيالك .

احسن الظن بها ذريعة الى تحكيمها ، وتحكيمها داع الى سلاطتها و فسادها .

نبـذة :

وقد منع بعضهم من سوء الظن بها فان النفس وان كان لها مكر يردي ، فلها نصح يهدي ، وكما أن حسن الظن بها يعمي عن مساوئها ، كذلك سوء الظن بها يعمي عن محاسنها .

ومن عمي عن محاسن نفسه ، فهو كمن عمي عن مساوئها ، فلم ينف عنها قبيحاً ولم يهد اليها حسناً .

قال الجاحظ : يجب ان يكون في التهمة لنفسه معتدلا ، وفي حسن الظن بها مقتصداً .

وقال بعضهم : من ظلم نفسه ،كان لغيره أظلم .

والحق ان الواجب سوء الظن بها ، وعدم الرضا عنها في كل الحالات لانها «أمارة بالسوء» كما وصفها بها خالقها[1]. فهي بطبعها مائلة الى الظلم والمفاسد ومساوىء الاخلاق ، والعقل : هو الداعي الى المحاسن والمصالح كلها .

فاذا لم يسيء الظّن بها ويزجرها عن كل مااستحسنته فأهمت بفعله ـ حتى بتدبيره في حاله وماله ـ غلبت على العقل، فأوقعت به في ورطات الفساد، وعدلت به عن نهج السداد .

قالت الحكماء : من رضي عن نفسه ، سخط عليه الناس فاذا لم يحسن الظن

(١) حيث قال سبحانه : ان النفس لامارة بالسوء (سورة يوسف : ١٢ / ٥٣) .

بها ، ولم يرض عنها ، لم يطاوعها فيما تحب اذا كان غيّا ، ولم يصرف عنها ماتكره اذاكان رشدا ، وحينئذ يملكها ، فسيستقيم أمره ، ويشتد أزره .

قال رسول الله ﷺ : الشديد من غلب نفسه .

وقال بعض البلغاء : من غلب نفسه تناهى في القوة ، ومن صبرعلى شهوته تناهى في المروة .

وها انا انشر من الاداب فيما أتلـوه عليك من الابواب ، ما يسّره الكريم الوهاب ، ومنه أستمد التوفيق والهداية الى الصواب :

باب الكلام والصمت

ماالانسان لولااللسان الاكالبهيمة المهملة، اوكالصورة الممثلة، لان اللسان ترجمان يعبّر عن مستودعات الضمائر ويخبر بمكتومات[1] السرائر ، الا أنه لايمكن استرجاع بوادره ، ولا يقدر على رد نوافره ، فحق على العاقل أن يحترز في كلامه من زلله بالامساك عنه وبالاقلال منه .

فعن النبي عليه السلام : رحم الله من قال خيراً فغنم او سكت فسلم .

وقال عليه السلام : اللسان معيار ، أطاشه الجهل ، ورجحه العقل .

وقال بعض الحكماء : الزم الصمت تعدّ حكيما ، جاهلا كنت أو عليما .

وقال بعض العلماء : حق على العاقل أن لايتكلم الا بحجته او حاجته ، و أن لايتفكر الافي عاقبته ، أو في آخرته .

وقال بعض البلغاء : الزم الصمت فانه يكسبك صفو المحبة ويؤمنك شر المغبة ، ويلبسك ثوب الوقار ، ويكفيك مؤونة الاعتذار .

وقال بعض الفصحاء : اعقل لسانك الاّ عن حقّ توضّحه ، أو باطل تدحضه ، أو حكمة تنشرها ، أو نعمة تشكرها .

وقال بعضهم : ماعلى وجه الارض أحقّ بطول السجن من اللّسان حتى قالوا : لوكان الكلام من درّ لكان السكوت أصلح :

---

(١) في نسخهالمرعشي : مكنونات .

وقال كسرى: لم أندم على مالم أقل قطّ ، وقد ندمت على ما قلت كثيراً .

وقال قيصر : أنا على قول مالم أقل أقدر منّي على ردّ ماقلت .

وقال ملك الصين : اذا تكلمت بكلمة ملكتني ، وان لم أتكلم بها ملكتها.

وقال ملك الهند : العجب ممّن يتكلم بالكلمة ، ان رفعت ضرته ، وان لم ترفع لم تنفعه .

فهذه أربع كلمات صدرت عن اربعة ملوك كأنّما رميت عن قوس واحد .

وقال الشاعر :

اذا كنت عن أن تحسن الصمت عاجزاً

فأنت عن الابلاغ في القول أعجز

فصل

وللكلام شروط ، لايسلم المتكلم عن النقص والزلل الا باستيفائها :

الاول : أن يكون الكلام لـداع : اما اجتلاب نفع ، او دفع ضرر ، او أو كشف شبهة ، او اقامة حجـّة ، أو نحو ذلك .

لانّ ما لاداعي اليه هذيان وسمج .

حكي : أن أبـا يوسف كان يجلس اليه شابّ يطيـل الصمت فأعجب أبايوسف منهذلك ، فقال له يوماً : يابن اخي تكلـّم .

قال : نعم ، متى يفطر الصـّائم ؟ .

فقال : اذا غربت الشمس .

قال : فان لم تغرب حتى ياتي نصف الليل ؟ !

فضحك ابو يـوسف والحاضرون من ذلك ، وتعجبـّوا منه .ثم قال ابـو يوسف: ليتنا تركناك مستوراً ، ثم تمثل ببيت جدّ جرير :

وفي الصمت ستر للغبيّ وانما　　　صحيفة لبّ المرء أن يتكلـّما

فهذا أبان الكلام عن نقصه ، حيث لم يكن له اليه داع ، ولو صدر عن داع ورويـّة لسلم .

وقال النبي ﷺ: لسان العاقل من وراء قلبه ، ، فاذا أراد الكلام رجع الى قلبه ، فان كان له تكلم ، وان كانعليه أمسك. وقلب الجاهل من وراء لسانه ، يتكلم بكل ماعرض له .

وقال عليّ رضي الله عنه : المرء مخبوء تحت لسانه .

وقال بعض البلغاء : احبس لسانك قبل ان يطيل حبسك ، ويتلف نفسك فلا شيء أحقّ بطول السّجن من لسان يقصر عن الصّواب ويسرع الى الجواب .

وحسم بعض الاعلام الرخصة في الكلام فقال :

ان جالست العلماء فانصت لهم ، واذا جالست الجهّال فانصت لهم ،فانّ في انصاتك للعلماء زيادة في العلم ، وفي انصاتك للجهال زيادة في الحلم.

الثاني : أن يأتي الكلام في موضعه ، لان الكلام في غير حينه لا يقع موقع الانتفاع وما لا ينفع هذيان ، فان قدم ما يقتضي التأخير كان عجلة ،وأن أخر ما يقتضي التعجيل كان عجزاً وتوانياً ، وكلاهما مذموم .

ولهذا يقال : لكل مقام مقال .

الثالث : أن يقتصر منه على قدر الحاجة لان ما زاد عنها هذر لانهاية له .

قال بعض الحكماء : من كثر كلامه كثرت آثامه .

قال الشاعر :

وزن الكلام اذا نطقت فانّما   يبدي عيوب ذوي العيوب المنطق

ثم انّ مخالفة قدر الحاجة : اما التقصير أو تكثير، وكلاهما شين ، وشين التكثير أشنع ، اذ هو هذر ويكون في الغالب اخوف .

قال النبي ﷺ : وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنّم الاحصائد ألسنتهم ؟!

وقال بعضهم: الحصر خير من الهذر .

وقال جعفر بن يحيى : اذا كان الايجاز كافياً ، كان الاكثار عيّاً واذا كان

---

(١) لان الحصر يضعف الحجة، والهذر يتلف المهجة. احاسن المحاسن ص١٥٤ .

الاكثار واجباً ، كان الاقلال عجزاً .

وقال علي رضي الله عنه : اذا تمّ العقل نقص الكلام .

وقال بعض البلغاء : عيّ تسلم به خير من نطق تندم عليه ، فاقتصر من الكلام على ما يقيم حجتّك ، وتبلغ حاجتك وايّاك وفضوله ، فانّها تزلّ القدم ، وتورث النّدم .

طريفة :

قال بعضهم: الكلام اذازاد عن قدر الحاجة وكان صواباً لايشوبه خطل، عذباً فصيحاً لايتطرق اليه زلل . فهو السحر الحلال .

ولهذا مدح بعضهم كاتبا فقال : ان أخذ طوماراً أملاه ، وان وجد شبراً كفاه .

قال ابوالفتح البستيّ :

تكلم وسدد ما استطعت فانّما	كلامك حي والسكوت جماد
فان لم تجد قولا سديداً تقوله	فصمتك عن غير السداد سداد

وقيل لاياس : مافيك عيب الا كثرة الكلام .

فقال : أفتسمعون صواباً أم خطأ ؟

فقالوا : بل صواباً .

فقال: الزيادة من الصواب خير .

وأقول: لاشك ان ما فضل عن قدر الحاجة والاحتمال فأدّى الى الاستثقال او الملال ــ وان كان صوابا ــ فهو هذر بلا اشكال .

على أن مثل ذلك لايصدر الا عن اعجاب ، ومن أعجب بكلامه استرسل ومن استرسل في كلامه قل خلوه عن زلل أو عثار ، فمجانبته للّبيت أجدر بغير

مرية .

الرابع: اختيار اللفظ الذي يتكلم به تهذيبا وفصاحة وبلاغـة، ولايمكن اختيار ذلك الا لمن أخذ نفسه بالبلاغـة ، وكلـّفها لزوم الفصاحـة حتى صار متدرباً بها، منقاداً اليها، فلايأتي بكلام مستكثر اللفظ ، ولامختل المعنى .

قال بعضهم: خير الكلام ماحسن ايجازه، وكثر اعجازه، وناسـب صدره أعجازه .

ولابد من صحة المعاني بتجنب المشكل منها، وبصحة مقابلتها للالفاظ .

وكذا لابد من الفصاحة، وذلك بمجانبة الغريب الوحشي، وتجنب اللفظ المستبذل، والعدول عن الكلام المسترذل حتى لايتسقـّطـه الخواص، ولاينبو عن فهمه العوام، واما معاطـاة الاعراب ، وتجنـّب اللحن ، فانها من صفات الصواب .

والبلاغة أعلى رتبة وأشرف منزلة .

وليس لمن يلحن في كلامه مدخل في الادباء فضلا عن ان يكون في عداد البلغاء والفصحاء .

فصل

وللكلام آداب ، ان أغفلها المتكلم عدل الناس عن نشر مناقبه الى ذكر مثالبه .

فمنها : أن يتكلم بماكان مألوفا من كلام الوقت وعرف أهله ، فان لكل وقت في الكلام عادة تؤلف، ولكل قوم عبارة تعرف، فيكون ذلك أوقع في النفوس وأسبق الى الافهام .

وكذا لكل أهل علم في علمهم طريقة من التقرير والكلام، هي أوضح عندهم مسلكاً، وأسهل مأخذاً .

فاذا عدل عن ذلك، استهجن كلامه، واستثقل، وان كان فصيحاً أوبليغاً .

ومنهـا: أن لايتجاوز[1] في مدح، ولايسرف في ذم، وانكانت النزاهة عن الذم أجدر ، لانالتجاوز في المدح ملق يصدر عن مهانة ، والسرف في الذم انتقام يصدر عن شر، وكلاهما شين .

هذا ان سلما عن الكذب، على ان السلامة فيهما منه متعذّرة أومستحيلة.

ومنها : ان لاتبعثه الرغبة أوالرهبة على الاسترسال في وعد أو وعيد يعجز عنهما، لانه يصير وعده نكساً، ووعيده عجزاً .

ومنها : أن يحقق ماقاله بفعله ويصدّق ماتكلم به بعمله، فلئن يفعل مالم

---

(١) في نسخة المرعشي: لايتجوز .

يقل، أجمل من أن يقول مالم يفعل .

قال بعض الحكماء: أحسن الكلام ما لاتحتاج فيه الى كلام أي: يكتفي بالفعل عن القول .

ومنها: ان يراعي مخارج كلامه بحسب مقاصده فان كان ترغيباً قرنه باللين واللطف، أوترهيباً خلطه بالخشونة والعنف .

فان العكس خروج باللفظ عن موضعه .

قال أبوالاسود الدؤلي لابنه: يابني، اذا كنت في قوم فلاتتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك، ولا بكلام من هو دونك فيزدروك[1] .

ومنها: أن لايرفع بكلامه صوتاً مستكرها، ولاينزعج له انزعاجاً مستهجناً وليحترس عن حركة تكون طيشا ، وعن اشارة باليد تكون عيّاً ، فان نقص الطيش أكثر من فضل البلاغة .

ومنها: أن يتجافى هجر[2] القول ومستقبح الكلام فيعدل الى الكناية فيمايستهجن صريحه، ويستقبح فصيحه، ليصون لسانه وأدبه عن القبيح .

فقدقيل في قوله تعالى: «واذا مروا باللغو مرّوا كراما»[3] أنهم كانوا اذا ذكروا الفروج كنّوا عنها .

وكمايجب صون اللسان عن ذلك فكذا يجب صون السمع عنه، فلايسمع خنا، ولايصغي الى فحش ، فان سماع الفحش داع الى اظهاره .

قال بعض الهاشميين :

---

(١) اى يصدروك : (يخرجوك) وفى القرآن قراءة بعضهم: يومئذ يزدر الناس اشتاتاً وسائر القراء قرأوا (يصدر) .

(٢) الهجر (بضم الهاء): الفحش .

(٣) (سورة الفرقان: ٢٥/٧٢) .

وسمعك صن عن سماع القبيح كصون اللسان عن النطق بـه
فانّك عنـد سماع القبيـح شريك لقـائلـه فانتبـه

ومنها: أن يتجنب ماكان ظاهره فاحشاً، أومؤديـا الى انكار، وان كان عند التأمل والفحص سليماً، لانه بمثابة من وضع الدنس على ثوبه لغيرغرض ثم دفعه الى الغسّال ، فكما أن الدنس ربمااستصعب زوالـه أوبقي منه بقية ، فكذلك ماوقع في الخاطر ربما استصعب اخراجه أوبقي منه بقيـة .

ولهذا قال بعض الفصحاء : لاتتكلم بمايسبـق الى القلوب انكاره ، وان كان عندك اعتذاره .

ومنها: ان يستبدل بأمثال العامة، أمثال العلماء والادبـاء، فان لكل صنف من الناس أمثالا تشاكلهم، لان الامثال من هواجس الهمم وخطرات النفوس، فذو الهمة الساقطة يتمثل بالامثال المسترذلة، وذوالنفس الشريفة لايرضى ذلك بل يتمثل بالامثال العلية النفيسة ، لان الامثال مستخرجـة من أحوال المتمثلين

وكلّ اناء بالذي فيه ينضح

وربما ألف العالم مثلا عامياً لكثرة مايطرق سمعه من مخالطة الارذال ، فيسترسل به لدى الاماثل، فيزدرى .

كماحكي: ان الرشيد سأل الاصمعي عن أنساب بعض العرب ؟

فقال الاصمعي: على الخبير سقطت ياأمير المؤمنين .

فقال لـه الفضل بن الربيع : أسقط الله حسبك ، أتخاطب أمير المؤمنين بمثل هذا ؟ !

فكان الفضل بن الربيع، مع قلة علمه ، أعلم بمايستعمل لدى الخلفاء من الاصمعي الذي هو وحيد عصره وقريع دهره[١] .

---

(١) القريع: الغالب في المقارعة .

فصل

ولضرب الامثال في الكلام موقع في الاسماع وتاثير عظيم في القلوب لايبلغ الكلام المرسل مبلغها ، ولايؤثر في النفس تأثيرها ، لان النفوس لها وامقة، والقلوب بها واثقة، والعقول لها موافقة .

ولذلك ضرب الله تعالى الامثال في كتابه العزيز فأوضح بها الحجج على خلقه، لانها في العقول مقبولة، وفي القلوب معقولة .

ومن ثم وشحنا كتابنا هذا بماتيسر منها ايضاً، لكن لها شروط أربعة :

احدها: صحة المناسبة بينها وبين المعنى المضروبة له ، ليقع التمثيل بها موقعه .

وثانيها : أن يكون العلم بها سابقاً ، ويكون المخاطب أو العقل عليها موافقا .

وثالثها : أن يسرع وصولها الى الفهم ويتعجل تصورها في الوهم، من غير توقف في استخراجها، ولا كدّ فكر في استنباطها .

ورابعها : ان تناسب حال السامع ومقتضى عقله ، لتكون أبلغ تأثيراً وأحسن موقعاً .

فاذا جمعت الأمثال المضروبة هذه الشروط كانت زينة الكلام وجلاء المعاني وتدبّر الافهام .

فصل

[محاسن الاجوبة](١)

ومن محاسن الكلام وظرائفه الدالّة على غزارة فطنة المتكلم وحذقه ، ووفور رويته، سرعة الجواب، مع اصابة الصواب، وملائمة الخطاب، وذلك في المحاضرات والمحاورات الحالية.

واما ما ورد في كلام بعضهم من ذمّ تعجيل الجواب و المبادرة به ، فذلك مختص بالامور المهمة والاراء الشأنيّة ، الدينيّة أوالدنيويّة ، كما في الفتيا وماشاكلها، من المسائل العلمية .

وكما في الاستشارة والفحص عن سديد الامور المهمة .

فسرعة الجواب في هذا النحو يدل على طيش المسئول ، وقلة تثبته و تدبرّه وان أصاب ، بل المحمود في مثل ذلك التأني والتفكر ، والفحص عن حقيقة الحال وسديد المقال، الموصل الى حسن المآل .

ولابدّ من مراجعة ما يخطر في البال ، من الرأي وتدبّره ليغسل بالفكر دنسه ، ويظهر زيفه ، ولهذا نهوا عن امتثال الراي البكر ، وهو : مالم يجل الفكر فيه وتنقده بصائر العقلاء .

وأمّا في المحاضرات الحاليّة والمقامات المقاليّة ، فسرعة الجواب فيها من أكبر الفضائل ، الدالّة على استنارة النفس وقوّة الحدس لاسيما

---

(١) العنوان زيادة في نسخةالمرعشي .

اذا ناسبت الخطاب ،وكانت عين الصواب .

ـ كما حكي : أن ابليس لعنه الله ظهر لعيسى عليه السلام .

فقال : ألست تقول : انّه لن يصيبك الاّ ما كتب الله لك ؟

فقال : بلى .

قال : فارم بنفسك من هذا الجدار الشاهق ، فان قدّر الله لك السلامة تسلم .

فقال له : ياملعون ، انّ الله يختبر عباده وليس لهم ان يختبروه .

وليس هذا بغريب من انبياء الله الذين امدهم الله بوحيه وايّدهم بنصره.

ـ وقال معاوية لعقيل: انّ فيكم لشبقاً، يا بني هاشم .

فقال : هي منّا في الرجال ، ومنكم في النساء .

ـ وقال له معاوية يوماً ساخراً به : اين تجد عمّك أبا لهب ؟

فقال له عقيل : اذا دخلت النار فانظر عن يمينك تجده مفترشاً عمتك حمّالة الحطب ، فانظر ايّهما أسوء حالا ، الفاعل أم المفعول .

ـ ورای بعضهم رجلا يصلي صلاة خفيفة ، فقال: ما هذه الصلوة ؟

فقال : ليس فيها رياء .

ـ وترافع الى بعض قضاة الشام شاب عراقي[1] وشيخ شامي فرفع العراقي صوته على الشامي .

فقال القاضي :كفّ عنه فانّه أكبر منك .

فقال : ان الله اكبر مني ومنه ، ثم تشارعا ، فرفع صوته عليه مرة اخرى

فقال القاضي : ايها الشاب اسكت .

فقال اذا أنا سكتّ من يقوم بحجتي ؟!

---

(١) هو أياس بن معاوية ، على ما في عيون الاخبار ج١ ص٧١ .

فقال القاضي : تكلّم فوالله ما تتكلم بخير .

فقال الشاب : أنا اشهد ان لا اله الا الله ، وان محمد رسول الله .

فاتصل خبرهما بعبدالملك بن مروان فعزل القاضي ورتّب الشاب مكانه[١].

ـ وقال المأمون ما أعياني جواب أحد قط الا ثلاثة :

ـ أمّ الفضل . عزيتها في ابنها فقلت لها : لاتجزعي فاني ابنك مكانه .

فقالت : كيف لا أجـزع ، وقد بدلت به ابناً مثلك .

ـ ورجل أحضرته ، زعم أنه نبي الله موسى فقلت له : ان مـوسى أدخل يده في جيبه ، واخرجها بيضاء من غير سوء ، فافعل مثله .

فقال : متى فعل ذلك ، أليس بعدما لقي فرعون ؟ ، فافعل كما فعل فرعون حتى افعل كما فعل موسى .

ـ وجماعة من أهل الكوفة ، شكوا عاملها .

فقلت: ارضوا بواحد منكم أسمع كلامه ، فرضوا برجل ، فقال في العامل واكثر .

فقلت : كذبت بل هو العدل العفيف .

فقال : صدقت يـا أمير المؤمنين ، ولكن يجب ان تواسي بين رعيّتك في العدل فصرفته عنهم .

ـ وقال المتوكل : لابي العيناء : لو لا انّك ضرير لنادمتك .

فقال اعفني مـن نقش الخواتيم ، ورؤية الاهلّة ، وأنا أصلح للمنادمة .

ـ وقيل لابي العيناء يوماً : لاتعجل فان العجلة من الشيطان .

---

(١) ذكره ابن قتيبة باختلاف بسيط وفيه: فقام القاضي فدخل على عبدالملك فاخبره بالخبر فقال :اقض حاجته واخرجه من الشام لايفسد على الناس. عيون الاخبار ج١ ص٧١ .

فقال : لو كان كذلك لما قال موسى :« وعجلت اليك رب لترضى » [١] .

ـ وسلّم عليه رجل من ولد آدم فقال له : أدنمني وعانقني ، ما ظننت انه بقي من نسل ذلك الرجل أحد .

ـ وسقي في بيت بعضهم ، ثلاث شربات باردة واخرى حارة .

فقال : كأن شربتكم يعتريها حمّى الرّبع .

ـ وقال له رجل علوي : أتبغضني، وقد أمرت بالصلوة عليّ في صلوتك ؟

فقال أبو العيناء : انّي اقول «الطيبين الطاهرين» ، فتخرج أنت .

ـ وقال يوماً لصبيّ فطن : وددت ان لي ابنا مثلك .

فقال الصبيّ : احمل أبي على اهلك تاتيك بولد مثلي، فخجل منه وقال : ما مرّ بي مثلها قط .

ـ وقال له المتوكّل : ان فلاناً يضحك منك .

فقال : « ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » [٢] .

ـ وقال معاوية لمحمّد بن الحنفية رضي الله عنه :ماانصفك أبوك حيث كان يرميك في الحروب ، ولايفعل ذلك بالحسن والحسين .

فقال : لانّي كنت يده ، وكانا عينيه ، فكان يدفع بيده عن عينيه .

ـ واجتمع رجل كوسج برجل ألحى فقال الالحى:«والبلد الطيّب يخرج نباته باذن ربّه والذي خبث لايخرج الانكدا » [٣] .

---

(١) (سورة طه : ٢٠/٨٤) .
(٢) اقتباس من اية وردت فى (سورة المطففين : ٨٣ / ٢٩) .
(٣) اقتباس من اية وردت فى (سورة الاعراف : ٧/٥٨) .

فقال الكوسج: «ولا يستوي الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث»[١].

ثم انه من اكبر ما يجب على المتكلم ويتأكد عليه. الصدق ومجانبة الكذب فلنتكلم على طرف من ذلك:

(١) اقتباس من آية وردت في (سورة المائدة: ٥/١٠٠) و فيها: قل لا يستوى.

باب الصدق والكذب

قال الله تعالى : « انّما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله »[1].

وعن النبي ﷺ : رحم‌الله امرءاً اصلح من لسانه، وقصّر من‌عنانه، وألزم طريق الحق مقوله ، ولم يعوّد الخطل مفصله » .

وعنه ﷺ وقد قيل له : أيكون المؤمن‌جباناً ؟

قال : نعم .

قيل : افيكون بخيلا ؟

قال : نعم .

قيل : افيكون كذاباً ؟

قال : لا .

وعن عبدالله بن عمر : جاء رجل الى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله مـا عمل أهل الجنّة ؟

فقال:الصدق، اذا صدق‌العبد برّ ، واذا برّ آمن ، واذا آمن دخل‌الجنة .

قال : يارسول الله فما عمل أهل النار ؟

قال : الكذب ، اذا كذب العبد فجر، واذا فجر كفر، واذا كفردخل النار .

---

(١) (سورة النحل: ١٠٥/١٦) .

وقالت عائشة (رض) : يارسول الله بما يعرف المؤمن ؟

قال : بوقاره ولين كلامه وصدق حديثه .

وفي منثور الحكم : الكذاب لص ، لان اللص يسرق مالك ، والكذاب يسرق عقلك .

وقال بعض الحكماء : الصادق مهاب جليل ، والكاذب مهان ذليل .

وقال علي رضي الله عنه: اياك و مصاحبة الكذوب فانه يقرّب لك البعيد ويبعّد لك القريب .

وبالجملة : فالكذب جماع لكل شر ، وأصل لكل ذم ، لسوء عواقبه ، وخبث نتائجه .

وقد قيل : من قلّ صدقه، قلّ صديقه .

ثم ان دواعي الصدق لازمة .

اذ منها: العقل المؤكد بالشرع، لان العقل يدعو الى فعل ماكان مستحسناً، ويكف عما يكون مستقبحاً .

ومنها: المروءة ، لانها تقبض المرء عن رذائل الافعال والاقوال ، وعن كل ما يعقب مهانة وذلة ، و تبعثه على محاسن الاقوال والافعال والعادات ، وعلى كل مايكون مستحسناً .

ومنها : حب الثناء والاشتهار بالصدق وبغض الذم والاشتهار بالخنا .

ودواعي الكذب عارضة ، : لانه يمنع منه العقل، ويصدّ عنه الشرع .

فمنها : اجتلاب النفع ، واستدفاع الضرر ، فيرى ان الكذب أنفع ، فيرخص لنفسه فيه ، اغتراراً بالخدع ، وميلا الى الطمع .

وربما كان الكذب مبعّداً لما يأمل ومقرباً مما يخاف لان القبيح لايكون حسناً ، اذلايجنى من الشوك العنب ، ولامن العوسج الرطب .

وعن النبي ﷺ تحرّوا الصدق ولو رأيتم فيه الهلكة ، فان فيه النجاة ، وتجنبوا الكذب ولو رأيتم فيه النجاة ، فان فيه الهلكة .

ومنها : استيشار استعذاب كلامه ، وظرافته ، وهو لايعرف صدقاً ، فيستعمل الكذب ، وهذا النوع أسوء حالا من الاول ، لانه يصدر عن مهانة النفس ، ودناءة الهمّة ، .

قال الجاحظ : ماكذب أحد قط الا صغّر قدر نفسه عنده .

ومنها : أن يضع به قدر عدوّه ، حيث لايجد فيه منقصة تشنيه ، فيرى ارسال الكذب فيه سهماً صائبا ، وهذا أسوء حالا من الاولين .

ومنها : أن يكون دواعي الكذب قد ترادفت عليه حتّى ألفها ، فصار الكذب له عادة ، وصارت نفسه اليه منقادة، حتى لورام مجانبته عسر عليه ذلك لانّ العادة طبع ثان ، فانّ هذا أسوء حالا من الجميع ، لانّه جمع بين مهانة الدنيا وعذاب الاخرة .

وحيث قد قدّمنا أنّ دواعي الصّدق لازمة ، ودواعي الكذب عارضة ، فمن ثم جاز ان تستفيض الاخبار الصادقة ، حتى تصير متواترة ، فتفيد العلم، ولم يجز ذلك في الاخبار الكاذبة ، لان اتفاق الناس انما هو لاتفاق الدواعي ودواعي الصدق يصحّ اتفاق الناس عليها ، للزومها ، ونفعها ، بخلاف الكذب .

لمعة :

ومن مضار الكذب ، فوق مايترتب عليه من العذاب في الاخرة ، والذل والمهانة في الدنيا ، أنه ربّما ينسب اليه الخبر ، اذا ظهر كذباً وان لم يكن فاه به .

ومنها : انه لايصدّق في حديثه ، وان تحرى الصدق .

ولهذا قيل : من عرف بالكذب ، لم يجز صدقه ، ومن عرف بالصدق جاز كذبه .

وربما كذّب هو نفسه ، بان يحكي ما كذب فيه مرة أخرى بعد زمان ، فانه ربما يقول ثانياً حقاً ، خلاف ماقال اولا ، او كذباً على غير الوجه الاول ، وذلك لنسيانه ماقال اولا ، لانه لماكان كذبا لم يستقر في حافظته ، حيث انه ليس له حقيقة ، وقد أفصح عن هذين المعنيين فيما قال الشاعر :

اذاعرف الكذاب بالكذب لم يكد يصدّق في شيء وان كان صادقا

ومن آفة الكذاب نسيان كذبه وتلقاه ذا حذق اذا كان واثقا

فصل

وقد وردت السنّة بالرخصة في الكذب في الحروب ، واصلاح ذات البين على وجه التورية (١) والتأويل دون التصريح كالذي حكي عن أبي بكر الصديق (رضه) : أنه كان يسير خلف رسول الله ﷺ حين هاجر معه فتلقاه العرب ، وهم يعرفون أبابكر ، ولا يعرفون رسول الله ﷺ فقالوا : يا ابابكر من هذا ؟ .

فقال : يهديني السبيل .

فظنوا أنه يعني: هداية الطريق ، وانما أراد: سبيل الحق ، فصدق في قوله وبلغ مراده . .

قال ابن سيرين : الكلام أوسع من أن تصرح فيه بالكذب .

---

(١) التورية : هو ستر الشيء واظهار غيره كانه ماخوذ من وراء الاناء كانه يجعله وراءه حيث لا يظهر .

فصل

ومن الصدق مايقوم مقام الكذب في القبح والمعرّة ، ويزيد عليه في الأذى والمغرة ، وهو : الغيبة ، والنميمة ، والسعاية .

فأما الغيبة : فانها خيانة ، وهتك ستر ، يحدثان عن حسد وغدر .

قال الله تعالى : «ولايغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن ياكل لحم أخيه ميتاً» (١).

وروي أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ، وجعلتا تغتابان الناس .

فأخبر النبي(ص) بذلك فقال : صامتا عما أحل لهما وافطرتا على ماحرم عليهما.

وقال عدي بن حاتم : الغيبة رعي اللئام .

وقال رجل لابن سيرين : اني اغتبتك فاجعلني في حل .

فقال : لاأحب أن أحل ماحرم الله .

نكتة : وربما أعذر المغتاب نفسه . بأنه يقول حقاً ، ويستشهد بما روي عن النبي عليه السلام أنه قال : ثلثة ليست غيبتهم بغيبة : السلطان الجائر ، وشارب الخمر ، والمعلن بفسقه .

---

(١) (سورة الحجرات : ٤٩ / ١٢).

فيجعل هذا ذريعة الى غيبة كل من صدر منه ذنب ، فيبعد من الصواب ، ويجانب الاداب ، لانه ربما يهتك ستراً مصوناً .

وقد قيل في منثور الحكم : لاتبد من العيوب ماستره علاّم الغيوب .

وروي عن النبيّ (عليه السلام) ، أنه سئل عن الغيبة، فقال : انتقول فيأخيك ماهو فيه ، فان كنت صادقا فقد اغتبته ، وان كنت كاذباً فقد بهتّه .

فالعامل بالخبر الاوّل لايجوز له مجاوزته بوجه من الوجوه .

واما النميمة : فهي تجمع مذمّة الغيبة ، وتضمّ الى لومها أيضاً ، دناءة وغدراً ، لانّها تئول الى تقاطع المتواصلين ، وتباعد المتقاربين ، وتباغض المتحابّين .

فعن أسماء بنت زيد ، عن النبي (عليه السلام) أنه قال : الااخبركم بشراركم ؟ !

قالوا : بلى يارسول الله .

قال : من شراركم المشّاؤن بالنميمة بين الاحبّة ، والباغون العيوب.

وعنه (عليه السلام) : ملعون ذوالوجهين ، ملعون ذواللّسانين ملعون كل شقّار ملعون كل قتّات ، ملعون كل منّان .

الشقّار : المحرّش بين الناس يلقي بينهم العداوة .

والقتّات : النمّام .

والمنّان : من يصنع الخير ويمنّ به .

واما السعاية ، فهي شرّ الثلاثة ، لانّها تجمع الى مذمة الغيبة ، ولؤم النميمة ، التغرير بالنفوس والاموال ، والقدح في المنازل والاحوال .

فعن النبيّ (عليه السلام أنه قال : الجنّة لايدخلها ديوث ولا قلاّع .

فالقلاع : هو الساعي .

وقال بعضهم : الساعي امـّا أن يكون صادقاً ، فقد خان الامانة ، أوكاذباً ، فقد خالف المروءة والديانة .

وقال بعضهم : النميمة دناءة ، والسعاية رداءة، وهما رأس الغدر، وأساس الشر .

باب كتمان السر

كتمان الاسرار من أقوى أسباب النجاح ، وأدوم أحوال الصلاح ، وأدل شيء على سعة النفس ، وغزارة العقل .

(واعلم) أنه قل ما أبرم أمر وأذيع به الاانحل ابرامه ، وتعذر اتمامه، حتى كانه كان رصداً عليه ، يعرف ذلك من مارس الامور وجربها .

فعن النبي « عليه السلام » : استعينوا على الحاجات بالكتمان ، فان كل ذي نعمة محسود .

ولم يظهر لنا في ذلك سبب كاف ، او تعليل شاف، الا أنا قد علمنا صدق ذلك بكثرة ما وقع لنا منه ، فيكون كتم السّر من حزم [1] الامور .

قال علي رضي الله عنه : من كتم سره كان الخيار في يده .

وقال رضي الله عنه : سرّك أسيرك ، فاذا تكلّمت به صرت أسيره .

أخذه بعض الشعراء وقال :

أسيرك سرك ان صنته	وأنت أسير له ان ظهر
فسرّ امرئين وشيك الظهور	وسرّ الثلاثة لن يستتر

وقال بعضهم : كن على حفظ سرّك أحفظ منك على حقن دمك ،فكم من اظهار سرّ ، أراق دم صاحبه ، ومنع من نيل مطالبه ، ولو كتمه كان من

---

(١) الحزم : ضبط الرجل امره ، واخذ بالثقة .

سطواته آمنا ، ومن عواقبه سالما ، ولنجاح حوائجه راجياً .

ثم ان اظهار الرجل سرّ غيره أقبح من اظهـار سرّ نفسه ، لانّه يبوء باحدى وصمتين : امّا الخيانة ان كان مـؤتمناً ، او النميمة ان كان مستودعاً .

وأمّا الضرر : فربما تساويا فيه .

وفي اظهار السرّ دليل على ثلاثة أوجه مذمومه :

أحدها: ضيق الصدر، وقلّة الصبر ، المفضيان الى الطيش، بل الحمق .

قال الشاعـر :

اذا المرء أفشى سرّه بلسانـه ولام عليه غيره فهو أحمـق

اذا ضاق صدر المرء من سرّ نفسه فصدر الذي يستودع السر أضيق

وثانيهـا: الغفلة عن تحرز العقلاء، والسهو عن يقظة الاذكياء ـ ان كان منهم ـ .

قال بعض الحكماء: انفرد بسرّك ، ولاتودعـه حازماً فيزل ، ولا جاهلا فيخـون .

وثالثهـا: المخاطرة بالهجوم على الامر المحذور العواقـب، المذموم بكل وجه .

قال بعض الحكماء: سرك من دمك فاذا تكلمت بـه فقد أرقته ، فليحذره العاقل، وليتنبـه لذلك الغافل .

فصل

ومن الاسرار مالايستغنى فيـه عن مساعدة صديق ، أو استشارة ناصح ، فليختبر العاقل أميناً جليلا ان لم يجد الى كتمه سبيلا ، وليحترس في اختيار من يأتمنه عليه كل الاحتراس ، فليس كل من كان على الاموال أميناً ،كان على الاسرار أميناً ، لان العفة عن الاموال أيسر من العفة عن اذاعة الاسرار ، بدليل أن المرء قد يظهر سره في غير محله بمبادرة لسانه ، ويحترز في ذلك على اليسير من ماله ، فلهذا كان أمناء الاسرار أشد تعذراً ، وأقل، وجوداً ، من أمناء الاموال.

ومن صفات أمين السر: أن يكون ذا عقل راجح ، ودين صالح ، ونصح مبرور ، وود موفـور ، كتوماً بالطبع ، فان هـذه الامور تمنـع من الاذاعـة ، وتوجب حفظ الامانة .

وليحذر صاحب السر أن يودعه من يتطـلّع اليه ، ويؤثر الوقوف عليه ، فان طالب الوديعة خائن .

وقد قيل في منثور الحكم : لاتنكح خاطب سرك. وليحذر ــ أيضاً ــ من كثرة المستودعين، فان كثرتهم سبب الاذاعة وطريق الاشاعة، وذلك لامرين :

أحدهما: ان اجتماع هذه الشروط في العدد الكثير متعذر، فلابد ــ اذا كثروا ــ وان يكون فيهم من أخل ببعضها .

وثانيهما : أن كل واحد منهم يجد الى نفي الاذاعة عن نفسه سبيلا ، لانه

يحيل ذلك الى غيره .

وقد قيل : اذا كثرخزان السر زاد ضياعاً .

واعلم: أنه۔ وان سلم من اضاعتهم۔ لم يسلم من اذلالهم، واستطالتهم عليه فان من ظفر بالسر۔ وخصوصاً في الامر الخطير۔ يصير له من فرط الاذلال ، وكثرة الاستطالة ، ما ان لم يحجزه عنه عقل ومروءة ، كان أشد من ذلّ الرّق وخضوع التعبّد .

ولهذا قال بعض الحكماء : من أفشى سره كثر المتأمّرون عليه .

خاتمة :

والواجب على المستودع أداء الامانة فيه ، بالتناسي عنه ، حتى لا يخطر له ببال ، ولايدور له في خلد ، وأن يرى ذلك حرمة يرعاها ،كما حكى :أن رجلا أسر الى صديق له حديثاً ، ثم قال له : أفهمت ؟

فقال : بل جهلت .

قال : أحفظت ؟

فقال : بل نسيت .

وحكى : أن عبدالله بن طاهر، رحمهما الله، تذاكر عنده أصحابه الاسرار وكتمانها ، فأنشد :

ومستودع سراً تضمنت سره فأودعته من مستقر الحشا قبرا

فأجابه ابنه عبيد الله :

ومـاالسر فـي قلبـي كثاوبحفرة
لانـي أرى المدفون ينتظر النشرا
و لكننـي أخفيـه حتـى كأننـي
من الدهر يوماً ما أحطت به خبرا

باب الاستشارة

ان من الحزم لكل ذي لب ، أن لايبرم أمراً ، الا بعد مشورة ذوي الرأي الناصح ، ومراجعة ذوي العقل الراجح ، فان الله تعالى : أمر نبيه بالمشاورة، مع ماتكفل له به من ارشاده ، ووعده من تأييده .

فقال تعالى : «وشاورهم في الامر»[1].

قال قتادة : أمر بمشاورتهم تألفاً لقلوبهم وتطييباً لنفوسهم .

وقال الحسن: أمر بمشاورتهم ليستن به المسلمون ، ويتّبعه المؤمنون .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : المشاورة حصن من الندامة ، وأمان من الملامة .

وقال علي بن أبي طالب «كرم الله وجهه» : نعم الموازرة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد .

وفي منثور الحكم : المشاورة راحة لك ، وتعب لغيرك .

وقال بعض البلغاء : المشاورة لقاح العقل، وزاد الصواب ، وعين الهداية وحزم التدبير .

وقال بعض الأدباء : ماخاب من استخار ، ولاندم من استشار .

وقال بعضهم : حق على العاقل أن يضيف الى رأيه رأي العقلاء، ويجمع

---

(١) سورة آل عمران : ٣/ ١٥٩ .

الى عقله عقول الاذكياء ، فان الرأي الفذّ ربما زلّ ، والعقل الفرد ربما ضل.

وقال الملك خاقان : اذا شاورت العاقل صار عقله لك .

ولهذا قيل لرجل من بعض قبائل العرب : ما أكثر الصواب فيكم ؟

فقال: نحن مائة رجل وفينا رجل عاقل. فاذا فعل أحد منا شيئاً شاوره فيه ، فكأنا مائة عاقل .

فصل

لابد في المستشار من خمس صفات :

أحدها : عقل كامل ، مع تجربة سابقة، فانه بكثرة التجارب يصح العقل والرويّة .

قال بعضهم لابنه : احذر مشاورة الجاهل، وان كان ناصحاً فانه يوشك أن يورّطك بجهله .

وفي منثور الحكم : كل شيء يحتاج الى العقل ، والعقل يحتاج الى التجارب .

ولذلك قيل : الايام تهتك لك عن الاستار الكامنة .

وما أحسن قول أبي الاسود الدؤلي رحمه الله :

وما كل ذي نصح بمؤتيك نصحه
ولا كلّ مؤت نصحه بلبيب

ولكن اذا ما استجمعا عند صاحب
فحق له من طاعة بنصيب

وثانيها : أن يكون ذا دين وتقى، فانه عماد كل صلاح ، وباب كل فلاح لان صاحبه مأمون السريرة ، موفق العزيمة .

فعن رسول الله ﷺ أنه قال : من أراد أمراً فشاور أمرءاً مسلماً وفقه الله

لارشد الامور .

وثالثها : أن يكون ناصحاً ودوداً ، فان النصح والمودة يصدقان الفكر.

قال بعض الحكماء : لاتشاور الاالحازم غيرالحسود ، واللبيب غيرالحقود واياك ومشاورة النساء ، فان رأيهن الى أفن [1]، وعزمهن الى الوهن .

ورابعها : أن يكون سليم الفكر من هم قاطع ، أو حزن فاجع أو مرض واقع ، فان من عارض فكره شوائب الهموم والاحزان والامراض لم يسلم له رأي ولم يستقم له خاطر.

وخامسها : أن لايكون له في الامر المستشار فيه غرض يراصده ، ولا هوى يساعده ، فان الاغراض جاذبة ، والاهواء غالبة ، والرأي ـ اذا جاذبه الغرض وغالبه الهوى ـ فسد .

فاذا استكملت هذه الخصال الخمس في امرىء كان أهلا للمشورة .

فيحقّ على اللبيب أن لايعدل عن استشارته، اعتماداً على مايتوهّمه من فضل رأيه أو رويته ، لان رأي غير ذي الحاجة أسلم من دواعي النفس ، فهو الى الصواب أقرب ، لخلوص الفكر، وخلوّ الخاطر، من دواعي الهوى والشهوة.

قال لقمان لابنه : شاور من جرّب الامور ، فانه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء ، وأنت تأخذه بالمجان .

نكتة :

وقد يصدّ ذا النوك والرأي الفاسد والعقل الضعيف عن الاستشارة مايتصور في نفسه ، من أنه اذا شاور ظهر للناس ضعف رأيه ، وفساد رؤيته ، حتى افتقر بذلك الى رأي غيره ، ويعزب عنه ، أن نفس المشاورة حزم وصواب، وأن

---

(١) الافن : الضعف .

تركها ، ترك للحزم والصواب .

وان تفطن لذلك ، فهوممن رضي من نفسه بركوب الخطأ ، ليظهر للناس أنه على الصواب من رأيه وبصيرته ، و يذهل عن أن اظهار مثل هذا عين الضلال .

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : لقّحوا عقولكم بالمذاكرة، واستعينوا على أموركم بالمشاورة .

وقال بعض الحكماء : من كمال عقلك ، استظهارك على عقلك .

فصل

وينبغي الاستكثار من مشاورة ذوي الالباب ، خصوصاً في الامر الخطير فقلّ مايذهل الجماعة فيه عن الصواب .

ففي منثور الحكم : من أكثرمن المشاورة ، لم يعدم عند الاصابة مادحاً، وعند الخطأ عاذراً .

فصل[1]

واذا استشارجماعة، فذهب بعضهم : الى أن اجتماعهم على محض الرأي واجالة الفكر أولى[2]، ليذكر كل واحد منهم ماقدحه خاطره ، وأُنتجه فكره ، حتى ان كان فيه قدح عورض ، وان توجه عليه رد نوقض ، فلا يبقى فيه مع اجتماع القرائح خلل الا ظهر، ولايتأتى فيه زلل الا اشتهر.

وذهب آخرون : الى أن الاولى إفراد كل واحد بالمشورة ، ليجيل كل واحد منهم فكرته في الرأي ، طمعاً في الحظوة[3] بالصواب، فان القرائح اذا انفردت استكدّها الفكر، واذا اجتمعت فوضت فيه .

---

(١) في نسخة المرعشي بدل هذا العنوان : لطيفة .

(٢) في نسخة المرعشي: أولا .

(٣) الحظوة : الحصول على مايريد . .

ولكل من المذهبين وجه ، ولعل كل واحد في محله اللائق به أحسن ، وذلك بحسب اختلاف المستشير والمشيرين.

على أنه اذا امكن افرادهم أولا ، ثم جمعهم ، كان اولى بغير شك .

ثم انه ينبغي سلامة أهل الشورى من تنافس وحسد يمنعهم ذلك من تسليم الصواب لمن جاء به في حالة الاجتماع .

ثم بعد ذلك يعرض المستشير ماأشاروا به على نفسه مع مشاركتهم في الارتياء والاجتهاد .

فاذا تصفّح أقاويلهم جميعهم ، وكشف عن أصولهاوأسبابها، وبحث عن نتائجها ومآلها ، استفاد بذلك ثلاث خصال :

احداهن : معرفة عقله وصحة رؤيته .

وثانيتهن : معرفة عقل صاحبه، وصوابيّة رأيه ، وقدرنصحه له .

وثالثتهن : وضوح ماستعجم من الرأي ، وانفتاح مانغلق من الصواب .

قال بزرجمهر : الحازم اذا أشكل عليه الرأي فهو بمنزلة من ضاع له جوهرة ، فجمع ماحول مسقطها من التراب ، ثم التمسها فوجدها ، كذلك الحازم يجمع وجوه الرأي في الامر المشكل ، ثم يضرب بعضها في بعض ، فيتخلص له الرأي الصواب منها .

فصل

وانما على المستشار النصح والاجتهاد في اصابة الصواب، وليس عليه ضمان النجح لاسيما والمقادير غالبة، فلاينبغي اتهامه اذا لم يتبيّن معه الصواب، اذا كان بالصفات المتقدمة ، فان السيف قدينبو، والفارس قد يكبو ، والحازم قد يصبو، «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير»[1]

نصيحة :

واذا ظفر المرء برأي من خامل ليس أهلا للمشورة وجب اغتنامه ، فان الحكمة ضالة المؤمن ، وقد يوجد في الاسقاط مالايوجد في الاسفاط [2] فلا يستهين به لاستيهانه صاحبه، فانالدرة لايهينها مهانة غائصها، والضالة لاتترك لمهانة واجدها .

ولهذا قيل : أنظر الى ما قال ، ولاتنظر الى من قال .

---

(١) اقتباس من قوله تعالى : «قل لاأملك لنفسي نفعاً ولاضراً الا ماشاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون» . سورة الاعراف : ١٨٨/٧ .

(٢) الاسفاط : جمع سفط، وهووعاء كالجوالق أوكالقفة يعبأ فيه الطيب من أدوات النساء .

اذ ليس يراد من الرأي الا الانتفاع به ، لاعلو قدر صاحبه .

هداية وحزم :

واذا تقرر له الرأي وجبت المبادرة في امضائه ، وانتهاز الفرصة ، لان الزمان غادر، والايام كثيرة الغير، والتواني ــ للثقة بصوارف الدهر ــ عجز وفشل.

قيل لملك زال عنه ملكه : ما الذي سلبك ملكك؟

فقال : تأخير عمل يوم الى غده .

ختم وارشاد :

يجب على من استشير، وحلّ محل الناصح، فصار مأمول النجح، مرجوّ الصواب، أن يؤدي حق هذه النعمة باخلاص السريرة، ويكافىء على الاستسلام اليه ، ببذل النصح بكل مايمكنه .

فعن النبي ﷺ أنه قال : من حق المسلم على المسلم اذا استنصحه أن ينصحه ، فان لم يفعل فهو غادر خائن .

فاذا شح بالرأي لحسد او بغض، فذلك خطأ محض، ونقض للدين والمروءة ، اذ لايجوز لمن استشير أن يكتم رأيا وقد استرشد ، ولا ان يخون وقد اؤتمن.

وربما أبطرته المشاورة فأعجب بنفسه ورأيه فاحدر[1] في الاشارة من غير تروّ، فأخطأ ، اذليس للمعجب رأي صحيح ولا رؤية سليمة .

---

(١) احدر : اسرع .

تتمة ونصح :

ولا ينبغي للمرء أن يشير قبل أن يستشار ، الا فيما مسّت الحاجة اليه ، ولزم عليه المبادرة فيه، فانه يوشك أن يكون رأيه متّهماً، أو مطرّحاً، وكلاهما وصر[1] اذ لايكون الراي غالبا مقبولا، الا اذا كان عن رغبة وطلب، وباعث وسبب .

---

(١) كذا ويحتمل أن يكون وضر بالضاد أى: الدرن والوسخ (لسان العرب) .

باب الكبر والعجب [1]

يجب على كل ذي لب ّ مجانبتهما ، لانهما يسلبان الفضائـل ، ويكسبـان الرذائل ، فلايصغي من استوليا عليه الى نصح ، لانه يجل نفسه عن رتبة المتعلمين ، فيقع في ورطات الجهل المركب ، وناهيك به ذماً ، مع مايكسبه الكبر من المقت لدى الخالق والمخلوقين .

قال تعالى: «سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق» [2]

وقال تعالى: «تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لايريدون علو ّا في الارض ولافسادا» [3].

وقال النبي ﷺ :لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من الكبر.

وفي حديث آخر : لايدخل حضيرة الفردوس متكبـّر [4] .

وقال النبي ﷺ لعمه العباس رضي الله عنه: أنهاك عن الشرك بالله والكبر فان الله يحتجب منهما .

وقال الحكماء : الكبر قائد البغض.

---

(١) العجب : هو اعجاب المرء بنفسه وهومن دواعي الكبر.

(٢) سورة الاعراف : ١٤٦/٧ .

(٣) سورة القصص : ٨٣/٢٨ .

(٤) في نسخة المرعشي: مستكبر .

وقالوا : التعزز بالتكبّر ذل .

وقال بعض العلماء : التكبّرعلى الملوك يعرض للحتوف، وعلى الاراذل من صغر النفس ، وعلى الاكفّاء جهل عظيم .

ورأى بعض الصلحاء المهلب وعليه حلّة يسحبها ويمشي الخيلاء، فقال له: يا عبد الله ماهذه المشية التي يبغضها الله ورسوله؟

فقال له المهلب : أما تعرفني ؟

فقال: بلى أعرفك ، أوّلك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قـذرة ، وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة .

ونظم هذا المعنى بعضهم ، فقال :

عجبت من معجب بصورته	وكان بالامس نطفة مـذرة
وفي غد بعـد حسن هيئته	يصير في اللحد جيفة قذرة
وهـو على تيهه ونخوتـه	مابين ثوبيه يحمل العذرة

فصل

وأما الاعجاب: فيخفي المحاسن، ويظهر المساوىء، ويكسب المذامّ و يزري عند الكرام، ويضع لدى الملك العلاّم .

فعن النبي ﷺ: العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .

وقال علي رضي الله عنه: الاعجاب ضد الصواب[1]، وآفة الالباب .

وقال بعضهم: مارأيت أثلم للمحاسن من العجب .

فلو نظر المرء ببصيرته الى مساوىء نفسه، وضعف قوته، وقلة علمه، وكثرة احتياجه الى الدنيّات، من المطعم والمنكح والمركب ونحو ذلك، لخفض جناح نفسه واستبدل لينا من عتوّه .

قال بعض الشعراء :

يامظهر الكبر اعجاباً بصورته	قصّر هديت، فان التبر تتريب[2]
هل في ابن آدم مثل الرأس مكرمة؟	وهو بست[3] من الاقذار مضروب
أنف يسيل، وأذن ريحها سهك[4]	والعين مرمصة[5]، والثغر ملعوب
يابن التراب ومأكول التراب غداً	اقصر فانك مأكول ومشروب

---

(١) في نسخة المرعشي: الثواب .

(٢) ورد في عيون الاخبار ج٣ ص٢٧٢ الشطر الثاني هكذا: انظر خلاءك ان النتن تثريب، وبعده: لوفكر الناس فيما في بطونهم ماااستشعر الكبر شبان ولا شيب

(٣) في عيون الاخبار ورد بخمس وهو خطأ .

(٤) اى كريهة الرائحة .

(٥) الرمص: وسخ ابيض جامد يجتمع في الموق .

فصل

وأحقّ الناس بمجانبة الكبر والاعجاب، من جلّ في الدنيا قدره، وعظم فيها خطره، لانه قد يستقل بعالي همّته كل كثير، ويستصغر فيها كل كبير .

قال محمد بن علي رضي الله عنهما : لاينبغي للشريف أن يرى شيئاً من الدنيا لنفسه خطراً، فيكون به تائهاً .

وقال بعضهم: الشريف اذا ارتفع تواضع، والوضيع اذا ارتفع تكبّر .

وقالوا: تواضعك في شرفك أحسن من شرفك .

وقالوا : التواضع أوّله تودّد، وآخره سؤدد .

وقالوا: من لم يتّضع عند نفسه، لم يرتفع عند غيره .

وقالوا: من تواضع لله رفعه الله .

فصل

وللكبر أسباب: أقواها : علوّ اليد، ونفوذ الامر، مع قلّة مخالطة الاكفاء

حكي : أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأصابته رعدة .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: هوّن عليك، فانما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد .!!

وانما قال ذلك حسماً لمواد الكبر، وقطعاً لذرائع الاعجاب، وكسراً لاشر النفس، وتذليلا لسطوة الاستعلاء .

هكذا .. هكذا ، والا فلا، (صلوات الله عليه وسلامه) .

وحكي : أن قوماً مشوا خلف علي رضي الله عنه، فقال لهم: أبعدوا عنّي خفق نعالكم ، فانها مفسدة لقلوب نوكى الرجال .

ولذلك فللاعجاب أسباب : منها : كثرة مديح المتملّقين .

قال ابن المقفع : قابل المدح كمادح نفسه .

وقال بعض الحكماء: من رضي أن يمدح بما ليس فيه فقد مكّن الساخر منه .

قيل : أنزل الله تعالى في الكتب السالفة : عجبت لمن قيل فيه الخير ، وليس فيه ، كيف يفرح ؟ وعجبت لمن قيل فيه الشر ، وليس فيه كيف يغضب ؟

ولايخفى أن للنفس ميلا الى حب الثناء عنها وسماع المدح (فيها)[1] فاذا

---

(١) ليس في نسخة المرعشي .

سامحها في ذلك تشاغل عن الفضائل، فربما تأدى الى الرذائل ، وهذه خدعة لايرتضيها عاقل .

فينبغي : للّبيب أن يضبط نفسه عنها ، ولايغلبه حسن الظن بمادحه ، فيصدق مدحاً هوأعرف بحقيقته، ولتكن تهمة المادح اغلب عليه، فقلّ مدح جميعه حق، وثناء كله صدق .

قال الشاعر :

يـا تائهـاً غرّه افراط مادحـه	لايغلبن جهل من أطراك علمك بك
أثنـى وقال بلا علم أحاط بـه	وأنت أعلم بالمحصول من رتبك

وكذلك كره أهل الفضل أن يطلقوا ألسنتهم بالثناء والمدح تحرزاً من التجاوز فيه، وتنزّهاعن التملّق به .

قال علي رضي الله عنه في وصف المتقين: اذا زكي أحدهم قال : اللهم انت أعلم بنفسي منّي، وأنا أعلم بنفسي من غيري، اللهـم اجعلني خيراً مما يحسبون، واغفرلي مالايعلمون، ولاتؤاخذني بمايقولون[1] .

وربمـا آل حب المدح بصاحبه الى ان يصير مادح نفسه ، امّا لتوهمـه أن الناس قد غفلوا عن فضلـه، وامّا ليخدعهم بتدليس نفسه، فيعتقد أن قوله حق مسمّـع، واما ليتلذذ بسماع مدحه حيث لم يجد له مادحاً ، كمن يطرب نفسه بصوته، اذا لم يجد له مطربا .

وعلى كل حال: فهو الجهل الصريح ، والنقص القبيح ، لانـه يؤدي الى استسخار العقلاء به .

---

(١) في نهج البلاغة : اذا زكي احدهم خاف ممايقال له ، فيقول : انـا اعلم بنفسي من غيري وربي اعلم بي مني بنفسي، اللهم لاتؤاخذني بمايقولون واجعلني أفضل ممايظنون واغفرلي مالايعلمون . (خطبةهمام/ رقم: ١٩١)

فصل

قديحدث الوصول الى المنازل والولايات لقوم أخلاقاً مذمومة ، منها : الكبر والعجب والجفوة والقسوة، يظهرها سوء طباعهم.

وقد يحدث لاخرين فضائل محمودة ، كالتواضع والحلم وحسن الخلق يبعث عليها زكي شيمهم .

وذلك لان لتقلّب الاحوال سكرة تظهر من الاخلاق مكنونهـا ، لاسيّما اذا هجمت بغيرتدريج .

قال بعض الحكماء: من تقلّب الاحوال، تعرف أخلاق الرجال .

وقال الفضل بن سهل: من كانت ولايته فوق قدره تكبّر فيها، ومن كانت ولايته دون قدره تواضع لها .

خاتمـة ونصح :

ينبغي للعاقل اللبيب أن يطلب من اخوان الصدق، وأصفياء القلوب، أن ينبّهوه على مساوئه التي صرفه حسن الظن بنفسه عنها .

فانهم أمكن فيه نظراً وأسلم منه في نفسه فكراً وتبصّراً.

فعن النبي ﷺ: المؤمن مرآة المؤمن، اذا رأى فيه عيباً أصلحه .

ولهذا كان عمر بن الخطاب (رضه) يقول: رحم الله امرءاً أهدى الينـا مساوئنا .

وفي منثور الحكم: من أظهر عيب نفسه فقد زكّاها .

فاذا قطع المرء أسباب الكبر ، وحسم مواد العجب ، اعتاض بالكبر تواضعاً ، وبالعجب تودداً ، وذلك آكد أسباب الكرامة ، وأهدى شيء الى النجاة والسلامة، وأبلغ شافع الى القلوب، وأحسن مقرّب الى علام الغيوب .

قال ابن الزبير: التواضع مصايد الشرف[1] .

وفي منثور الحكم : من دام تواضعه كثر صديقه .

بعضهم: من تواضع لله رفعه الله .

---

(١) كذا في النسختين وفي عيون الاخبار ج٣ ص٢٦٦ التواضع احد مصايد الشرف .

باب الحلم والغضب

الحلم : ضبط النفس عن هيجان القوة الغضبيّة .

وهو من أشرف الاخلاق وأحقها بذوي الالباب لما فيه من سلامة العرض وراحة الجسد ، واجتلاب الحمد .

روي ان جبرائيل نزل على محمد ﷺ فقال : يامحمد ، أتيتك بمكارم الاخلاق في الدنيا والاخرة «خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين»[1].

فقال ﷺ : ماهذا ياجبرائيل ؟

فقال: لا أدري حتى أسأل العالم . . ثم عاد وقال : يامحمد ربك يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك .

وعنه ﷺ : ان الله يحب الحليم الحييّ ، ويبغض الفاحش البذيّ .

وقال له رجل : يارسول الله ، مرني بعمل ، وأقلل .

فقال : لاتغضب .

وقال ﷺ : اذا غضبت فاسكت .

وقال: من كتم غيضاً ، ولو شاء ان يمضيه أمضاه ، ملأ الله قلبه أمناً وايماناً .

وقال علي «رضي الله عنه» : من حلم ساد ومن تفهم ازداد .

وقال بعض الادباء : من غرس شجر الحلم اجتنى ثمرة السّلامة .

وقال بعض البلغاء : ماذب عن الاعراض كالصفح والاعراض .

---

(١) وهذه اية من القرآن الكريم في (سورة الاعراف : ٧ / ١٩٩) .

فصل

وللحلم اسباب :

الف : الرحمة للجاهل :

ففي منثور الحكم: من آكد أسباب الحلم رحمة الجهّال .

وفي وصية جعفر الصادق «رضي الله عنه» لبعض اصحابه : اذا شتمت فقل: ان كنت صادقاً فغفر الله لي ، وان كنت كاذباً فغفر الله لك .

ب : الترفع عن السباب : وذلك من شرف النفس وعلو الهمّة .

قيل : ان الله تعالى سمّى يحيى : سيّداً، لحلمه[1] .

وقالت الحكماء : شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم .

ج : القدرة على الانتصار : وذلك من سعة الصدر ، وحسن الثقة .

فعن النبي عليه السلام : اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه جزاء للقدرة عليه.

وقال بعض الفصحاء :أحسن المكارم عفو المقتدر ، وجود المفتقر .

د : الاستهانة بالمحلوم عنه . كما حكي: ان رجلا اكثر من سب الاحنف ، وهو لايجيبه ، فقال : والله مامنعه من جوابي الا هواني عليه .

---

(١) وانما سماه بذلك في قوله تعالى: فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب: أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين . (ال عمران : ٣ / ٣٩) .

قال عمر بن علي «رضي الله عنهما» :

سكتّ عن السفيه فظن أنّي عييت عن الجواب وماعييت

اذا نطق السفيه فلا تجبه فأحسن من اجابته السكوت

هـ : الاستحياء من جزاء الجواب : وهذا من صيانة النفس وكمال المروءة.

قال بعض الحكماء: احتمال السفيه أيسر من التحلّي بصورته ، والاغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته .

و : التفضّل على السباب: وهذا من نهاية الكرم، وعلوّ الهمة ، وحبّ التفضل والتآلف .

قيل للاسكندر : انّ فلانا وفلاناً ينتقصانك ويثلبانك ، فلو عاقبتهما ؟

فقال : هما بعد العقوبة أعذر في نقصي وثلبي .

وقال الاحنف بن قيس (١) : ما عاداني أحد الا أخذت في امره احدى ثلاث خصال :

ان كان اعلى مني ، عرفت به قدره .

وان كان دوني ، رفعت قدري عنه .

وان كان مثلي ، تفضّلت عليه .

ن : استكفاف السباب وقطع الجواب ، وهذا يكون من الحزم وحسن التدبير .

قال الشعبي : ما ادركت أمّي فأبرّها ، ولكني لا أسبّ أحداً فيسبّها .

قال بعض الشعراء :

وفي الحلم ردع للسفيه عن الاذى وفي الخرق اغراء فلاتك مخرقا

فتندم اذ لا تنفعنك ندامة كما ندم المغبون لمّا تفرّقا

---

(١) وهو من دهاة العرب .

ح : الخوف من العقوبة على الجواب . وهذا من ضعف النفس وربما أوحاه الرأي واقتضاه الحزم .

فقد قيل : الحلم حجاب الافات .

ط : الوفاء ليدسالفة وحرمة لازمة، وهذا يكون من الوفاء وحسن العهد .

ففي منثور الحكم : اكبر الهمم أرعاها للذمم .

قال الشاعر :

ان الوفاء على الكريم فريضة   واللؤم مقرون بذي الاجلاف

فترى الكريم لمن يعاشر منصفاً   وترى اللئيم مجانب الانصاف

ى : المكر وتوقّع الفرص الخفية ، وهذا من الدهاء .

ففي منثور الحكم : من ظهر غضبه ، قل كيده .

وقال بعض الادباء : غضب الجاهل في قوله ، وغضب العاقل في فعله .

يا : قصد ايلامه وتزايد غضبه بالسكوت عنه ، فان السكوت واهمال الساب في بعض الموارد ربما كان اوجع لقلبه واشد على نفسه .

قال بعض الحكماء : اذا سكتّ عن الجاهل فقد اوسعته جوابا ، واوجعته عقاباً .

وقال الشاعر :

والكف عن شتم اللئيم تكرما   أضرّ له من شتمه حين يشتم.

فهذه أسباب الحلم ، وبعضها أفضل من بعض ، فالاولى أن يدعو المرء الى الحلم أفضل اسبابه ، فاذا عرى عن احد هذه الاسباب . كان ذلا لا حلما ، لأنا قد ذكرنا في حدّه : انه ضبط النفس عن هيجان الغضب، فاذا فقد الغضب بعد سماع ما يغضب كان ذلك من ذل النفس ، ومهانتها، وقلة الحميّة ، وفقد الشجاعة والغيرة ، والدفاع ، والاخذ بالثار .

وليس قولنا ذلك اغراء بتحكيم الغضب ، بل المراد أنه اذا صدر ما يغضب ، أوقع الحلم على أحد الوجوه التي [١] ذكرناها، فاذا لم يتأت شيء منها ، وأدى الحلم الى مفسدة ، وجب البطش اذا امكن .

قال المنصور : اذا كان الحلم مفسدة ، كان العفو معجزة .

وقال بعض الحكماء : العفو يفسد من اللئيم بقدر اصلاحه من الكريم .

وقال ابن الزبير : ما قل سفهاء قوم الا ذلّوا .

وقال بعضهم : أكرموا سفهائكم ، فانهم يكفونكم العار والنار .

قال الشاعر :

أرى الحلم في بعض المواضع ذلة   وفي بعضها عزاً يسوّد فاعله

(١) هنا تنتهي نسخة مكتبة اية الله المرعشي .

فصل

الغضب : هجوم ما تكرههالنفس ممن دونها، وسبب الحزن يكون هجومه ممن فوقها .

والغضب يتحرك من داخل الجسد الـى خـارجه ، والحزن بـالعكس ، ولذلك قديقتل الحزن، ولايقتل الغضب وماذاك الالبروز الغضب ، وكمون الحزن.

فصار الحادث عن الغضب : السطوة والانتقام ، والحادث عـن الحزن : المرض والاسقام . فهذا هو الفرق بينهما .

واعلم أن لتسكين الغضب أسباباً يستعان بها على الحلم :

منها : ذكر الله تعالى ، فيدعوه ذكره الى الخوف منـه فيبعثه ذلك على الرقة والطاعة .

قال تعالى : « وأذكر ربك اذا نسيت » (١) .

قال عكرمة : اذا غضبت .

وقال تعالى : « واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله » (٢) .

وذكر أن في التوراة مكتوب : يابن آدم، اذكرني حين تغضب ، أذكرك حين أغضب ، لا أمحقك فيمن أمحق .

---

(١) (سورة الكهف : ١٨ / ٢٤) .

(٢) (سورة الاعراف : ٧/ ٢٠٠)

وقال بعض الحكماء: من ذكر قدرة الله لم يستعمل قدرته في ظلم عباد الله.

وكان بعض الملوك اذا غضب القي عنده مفاتيح ترب[١] الملوك، فيزول غضبه .

ومنها : ان ينتقل عن الحالة التي هو فيها ، لان الغضب يزول بالتنقل من حال الى حال ، وهذا كان يستعمله المأمون .

قالت الفرس : اذا غضب القائم فليجلس ، واذا غضب الجالس فليقم .

ومنها : ان يتذكر مايئول اليه الغضب من الندم ومذمّة الانتقام .

قال بعض الأدباء : اياك وغرّة[٢] الغضب ، فانها تفضي الى ذل العذر.

وقال بعض الحكماء : الغضب على من لا تملك عجز ، وعلى من تملك لؤم .

ومنها : أن يذكر ثواب العفو ، فيقهر نفسه على العفو رغبة في الجزاء وحذراً من استحقاق الذم والعقاب .

روي عن النبي ﷺ انه قال : ينادي مناد يوم القيامة : من له أجر على الله فليقم .

فيقوم العافون عن الناس . ثم تلا «فمن عفا وأصلح فأجره على الله»[٣].

وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز (رضه) كلاماً مغضباً ، فقال عمر : أردت أن يستفزني الشيطان بعزة السلطان ، فأنال منك اليوم ماتناله مني غداً ؟ انصرف رحمك الله .

---

(١) ترب : جمع تربة ، بمعنى : المقبرة .

(٢) كذا في الاصل ويحتمل كونه وعزة ، انظر عيون الاخبار ج٣/٢٩١ ومجموعة ورام ج١/١٢٢ .

(٣) سورة الشورى ٤٢/٤٠ .

ومنها : أن يتذكر انعطاف القلوب عليه ، وميل النفوس اليه ، فلايحب تنفر الناس عنه ، فيرغب في التآلف وجميل الثناء .

فعن النبي ﷺ انه قال : ماازداد أحد بعفو الا عزاً ، فاعفوا يعزكم الله .

وهذا كان يستعمله معاوية بن أبي سفيان [1].

---

(١) بلغ الامام على بن الحسين (عليه السلام) قول نافع بن جبير فى معاويـة ، حيث قال : (كان يسكته الحلم وينطقه العلم) .

فقال عليه السلام :كذب ، بل كان يسكته الحصر، وينطقه البطر.

بلاغة الامام على بن الحسين ص٢٧٨

باب الصبر والجزع

ومن حسن التوفيق الصبر في الملمّات .

قال تعالى : «ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا»(١).

أي اصبروا على مافرض الله عليكم ، وصابروا عدوكم .

وقال رسول الله ﷺ : الصبر مطيّة لاتكبو ، والقناعة سيف لا ينبو.

وقال ابن عباس : أفضل العدّة الصبر عند الشدة .

وفي منثور الحكم : من أحب البقاء فليوطّن للمصائب قلباً صبورا .

وقال الشاعر:

صبّر النفس عند كل ملمّ ... ان في الصبر حيلة المحتال

لا تضيقنّ بالامور فقد ... تكشف غمّاؤها بغير احتيال

قال ابن المقفّع : الصبر صبران ، فاللئام أصبر أجساماً والكرام أصبر نفوساً ، وليس المراد بالصبر الممدوح قوة الجسد على الكدّ ، لانه من صفات البهائم ، ولكن أن يكون عند المضائق محتملا (٢)

---

(١) سورة آل عمران : ٣/٢٠٠ .

(٢) الظاهر ان في النقل سقطا والاصل فيه : (... فان الصبر صبران ، صبر الرجل على مايكره ، وصبره عما يجب ، فالصبر على المكروه أكثرهما وأشبههما أن يكون صاحبه مضطراً، واعلم ان اللئام...) وأما الباقي فالظاهر انها منقولة بالمعنى راجع أصل النص في الدرة اليتيمة ص ٤٦ .

فصل

والصبر على ستة أنحاء ـ والكل ممدوح ـ :

الاول : الصبر على امتثال أمر الله تعالى والانتهاء عما نهى عنه ، لانّ به تستقيم العبودية ، فيصلح الدين ، فيستحق الثواب الدائم .

قال تعالى : «انما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب»[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه : الصّبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد .

فمن لم يصبر على ما يكسب ثواباً ويدفع عقاباً ، كان بعيداً من الرشاد ، حقيقاً بالفساد .

وهذا النوع من الصبر يكون لشدة الخوف والرجاء .

الثاني : الصبر على ماانقضت أيامه من رزية قد أجهده الحزن عليها ،أو حادثة قد استكدّه الهمّ بها ، فان الصبر عنها يعقبه الرّاحة منها ، ويكسبه المثوبة بها .

فان صبر طائعاً ، والا احتمل همّاً لازماً ، وصبر كارهاً آثماً .

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : يقول الله تعالى : من لم يرض بقضائي ويصبر تحت بلائي ، فليختر رباً سوائي .

---

(١) سورة الزمر : ٣٩/١٠ .

وقال علي رضي الله عنه للاشعث بن قيس : انك ان صبرت ، جرى عليك القلم وأنت مأجور ، وان جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور .

الثالث : الصبر على ما فات ادراكه ، فان الصبرعنه يعقب السلوة منه ، والاسف بعد اليأس خرق .

فعن النبي ﷺ : من أعطي فشكر ، ومنع فصبر ، وظلم فاستغفر أولئك لهم الامن وهم مهتدون [1].

وقال بعض الحكماء : اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله ، مثل الذي لم يخطر ببالك .

وقال بعضهم أيضاً : اذا كنت تجزع على مافات من يدك ، فاجزع على ما لم يصل اليك .

الرابع : الصبرعلى مايخشى حدوثه فلايتعجل بهم مالم يأت ، فان كثيراً من الهموم حادث ، والاغلب من الخوف مدفوع .

فعن النبي ﷺ : بالصبر يتوقع الفرج ومن يدمن قرع الابواب يلج .

وقال بعضهم : لاتحملن على يومك هم غدك ، فحسب كل يوم همه .

الخامس : الصبرعلى مايتوقعه من رغبة يرجوها أو نعمة يأملها .

فانه اذا أدهشه التوقع لها ، وأذهله التطلع اليها ، انسدت عليه سبل المطالب ، أما اذا كان مع الرغبة وقوراً ، و عند الطلب صبوراً ، ارتحلت عنه عماية الدهش ، فأبصر رشده ، وعرف قصده .

قال النبي صلى الله عليه : الصبرضياء .

يعني ـ والله أعلم ـ : أنه يكشف ظلم الحيرة ويوضح حقائق الامور .

---

(١) اقتباس من قوله تعالى : الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن وهم مهتدون (سورة الانعام : ٦ / ٨٢) .

وكان مكتوباً في قصر اردشير: الصبرمفتاح الدرك .

قال محمد بن بشير:

ان الامـور اذا انسـدت مطالبهـا ... فالصبر يفتق منها كلما ارتتجا [١]

لا تيأسـنّ و ان طالـت مطالبـة ... اذا استعنت بصبـر أن ترى فرجـا

خلق بذي الصبر أن تقضى حوائجه ... ومدمـن القرع للابواب أن يلجا

السادس : الصبرعلى مانزل من مكروه ، أو حلّ من مخوف، فالصبر في هذا يفتح وجوه الاراء، ويستدفع به مكائد الاعداء، فان قل الصبر، اشتدالجزع وعزب الرأي فصار المرء مرتع الهموم وفريسة الغموم .

قال الله تعالى : «واصبر على ماأصابك ان ذلك من عزم الامور»[٢].

واعلم : أن الصبـر يعقبه النصر ، والكرب يعقبه الفـرج ، والعسر يعقبه اليسر، فالحوادث لاتكون مع التناهي الا منقوصة .

اذا تمّ شيء بـدا نقصه ... توقّـع زوالا اذا قيل تم

وأنشد بعضهم أيضاً :

خليلـي لا والله مـا من ملمـّة ... تدوم على حي وان هي جلـّت

فان نزلت يوماً فلاتخضعن لها ... ولاتكثر الشكوى اذا النعل زلت

(١) : ارتتج : اغلق .

(٢) سورة لقمان : ١٧/٣١ .

فصل

ولتسهيل المصائب بالصبر، ليقلّ تأثيرها وضررها ـ ان قارنت ذا عـزم وحزم ـ أسباب :

منها : اشعار النفس مايعلم من حلول الفناء ، وتقضّي المسار والمضار كلها ، وان لها أجلا منصرماً ، اذ ليس للدنيا حال تدوم ولالمخلوق فيها بقاء

انما الدنيا هبات ... وعوار[1]مستردة

شدة بعد رخـاء ... ورخاء بعد شدة

وقال ابن الرومي :

رأيت حيـاة المـرء رهناً لموتـه ... و صحتـه رهناً كذلـك للسّقم

ومن كان فـي عيش يراعى زوالـه ... فذلـك في بـؤس وان كان في نعم

ومنها: أن يتصور انجلاء الشدائد ،وانكشاف الهموم، وانها تتقدر بأوقات لاتتصرم قبلها، ولاتستديم بعدها ، ولاتقصر بجزع، ولاتطول بصبر.

حكى : ان الرشيد حبس رجلا ثم سأل عنه بعد زمان .

فقال للموكل به : قل له : ان كل يوم يمضي من نعمتك يمضي من بؤسي مثله ، والامر قريب والحكم لله عزوجل [2]..

---

(١) كذا ظاهراً ويحتمل كونه : عواد ، ومفرده بمعنى المعروف والصلة والعطف والمنفعة .

(٢) عيون الاخبار ج٦ ص٣٧٥، والرجل هو امامنا الغريب موسى بن جعفر (ع) وقد ذكر هذا بالمعنى في كتاب حياة الامام موسى بن جعفر ج٢ ص٥٠٠ .

ومنها : أن يتصور أن فيما وقاه الله من الرزايا ماهو أعظم من رزيّته ، وأشد من حادثته ، فيعلم أنه ممدوح بحسن الدفاع .

ولذلك قال النبي ﷺ : ان لله تعالى في كل محنة منحة .

ومنها : أن يتسلّى بذوي الغير ، ويتأسّى بأولي العبرمن أهل الفضائل المصابين قبله فيعلم أن طوارق الانسان من دلائل فضله ، ومحنه من شواهد نبله ، لان البلاء موكّل بالامثل فالامثل .

وماذاك الا لان ذا الفضل محسود ، وبالاذى مقصود ، فهيهات أن تسلم له نعمة ، أو تصفى له لذة .

محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى كالنار مخبرة بفضل العود

وقلّ ما يكون محنة فاضل الا من جهة ناقص ، أو بلوى عالم الامن جهة جاهل ، وذلك لاستحكام العداوة بينهما ، للحسد على التقدم ، فلاتكاد تجد ذا عقل في سرور متصل ، ولاذا لب في لذة كاملة .

قال علي رضي الله عنه : قلب العاقل بيت الاحزان .

اذا قل عقل المرء قلت همومه ومن لم يكن ذا مقلة كيف يرمد

وقال الحكماء : من زاد في عقله ، نقص من رزقه .

وقال ابراهيم بن هلال الكاتب :

اذا جمعت بين امرأين صناعة وأحببت أن تدري الذي هو أحذق
فحيث يكون النقص فالرزق واسع وحيث يكون الفضل فالرزق أضيق

فاذا ظفر ذو المصائب بأحد هذه الاسباب تخففت أحزانه، وسهلت عليه أشجانه، فصار وشيك السلوة ، قليل الجزع ، وان غفل نفسه عن دواعي السلوّ ومنعها أسباب الصبر، تضاعفت عليه عدة الاسى، وهموم الجزع ، واذاتمادت به فربما أفضت به الى اتلاف النفس أو الدين ، والعياذ بالله ، أو الى الضعف

المبرح في الجسم .

حكي : انه قل من صبر على حادثة تزايدت ، وتماسك في نكبة تصاعدت، الا كان الانكشاف وشيكاً ، والفرج قريبا .

حكي : أن امرأة أيوب عليه السلام قالت له : لو دعوت الله تعالى أن يشفيك ؟

فقال لها : ويحك كنا في النعماء سبعين عاماً فهلمي تصبر على الضرّاء مثلها .

فلم يلبث بعد ذلك الا يسيراً حتى عوفي .

خاتمة :

وأما الرضا فهو أرفع درجة من الصبر، لان المرء قد يصبر وهو غير راض ، ولاينعكس .

فكل مافي الصبر من المحامد والممادح ، ففي الرضا مثله ، ويزيد عليه حصول الرضا من الله تعالى ، باعتبار الرضا لقضائه وتسليم الامر اليه ، فان ذلك من أرفع منازل الاتقياء وأسنى مدارك الاولياء .

قال الله تعالى : «رضي الله عنهم ورضوا عنه»[1].

وقال بعضهم :

ومن جال في روض الرضا عن الهه تنزه سرا ثم زالت متاعبه

---

(١) سورة المائدة : ٩/٥ .

باب السخاء و الشح

السخاء : بذل مايحتاج اليه عند الحاجة الى مستحقه ، بقدر الطاقة .

وربما أنكرهذا الحد من يحب أن ينسب الى الكرم ، وجعل تقدير العطية نوعاً من البخل ، وجعل الجود بذل الموجود ، وهذا تكلف يفضي اليه الجهل بحدود الفضائل.

ولوكان الجود بذل الموجود ، لم يبق للسرف موضع ، ولا للتبذير موقع. وقد ورد الكتاب العزيز بذمهما (١) وجائت السنة المطهرة بالنهي عنهما.

وحيث كان السخاء محدوداً ، فمن وقف علـى حده سمي كريماً ، ومن قصر كان شحيحاً ، ومن تجاوزه كان مبذراً .

اذا عرفت ذلك ، فاعلم : أن السخاء من فعل شيم النفس وأدلها على علوها وشرفها ، حيث لاترى له قدراً ، وعلى حزمها وحسن تدبيرها ، حيث تبذل ما

---

(١) قال تعالى في ذم الاسراف: «ولا تسرفوا انه لايحب المسرفين» سورة الانعام : ٦/ ١٤١ وهناك آيات اخرى في ذم الاسراف فيسورة الاعراف: ٧/ ٣١ سورة وغافر : ٤٠/ ٢٨ ، ٣٤ ، ٤٣ .

وقال تعالى في ذم التبذير:

«... ولاتبذر تبذيرا انالمبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا» سورة الاسراء : ١٧/ ٢٦ ، ٢٧ .

يكسب به مدح العاجل، والثواب الاجل، وتكتسب به تألّف القلوب وجبلّتهم على حبها ، اذ هو من أكبر أسباب الالفة .

قال رسول الله صلى الله عليه : جبلت [١] القلوب على حب مـن أحسن اليها ، وبغض من أساء اليها .

وقال عليه السلام : السخي قريب من الله ، قريب من الجنة ، قريب من الناس، بعيد من النار ، والبخيل : بعيد من الله ، بعيد من الجنـة ، بعيد من الناس ، قريب من النار .

وقال الله تعالى : « ومن يوق شحّ نفسه فاولئك هم المفلحون»[٢].

وقال النبي عليه السلام ما من يوم غربت فيه الشمس الا وملكان يناديان : أللهم أعط منفقاً خلفاً ، وممسكا تلفا .

و انـزل الله تعالى في ذلك : «فأما مـن أعطى واتّقى وصدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسنيسره للعسرى»[٣].

جابر: قيل: يارسول الله أيّ الايمان أفضل؟ قال: الصبر والسماحة .

وعن النبي عليه السلام : أقسم الله بعزّته وعظمتـه ، لايدخل الجنـة بخيل ولا شحيح .

وقال ابن عباس: سادة الناس في الدنيا الاسخياء وفي الاخرة الاتقياء .

وفي منثور الحكم: الجود علوّ موجود .

وقيل لبعضهم: انك قد سرفـت في بذل المال، فقال : ان الله عو دني أن يتفضل عليّ ، وعوّدتـه أن أتفضل على عباده ، فأخاف ان قطعت العادة، أن

---

(١) جبلة الشيء : طبيعته ، والجبلة أيضاً : الخلقة (لسان العرب) .

(٢) سورة الحشر: ٩/٥٩ وسورة التغابن : ١٦/٦٤ .

(٣) سورة الليل : ٥/٩٢ ــ ١٠ .

يقطع عنّي المادة .

وكتب بخيل الى كريم يأمره بالابقاء على نفسه، ويخوّفه من الفقر ، فكتب اليه : «الشيطان يعدكم الفقر، ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا»[١] .

(١) اقتباس من قوله تعالى في (سورة البقرة: ٢/٢٦٨) .

فصل

وحدّ الشحّ يعلم من حدّ السخاء، لان الشيء يعرف بضدّه، وفيه من المذام بقدر مافي ضده من المحامد .

قال الله تعالى : « ولايحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم، بل هو شر لهم سيطوّقون مابخلوا به يوم القيامة» (١) .

وقال علي «رضي الله عنه» : البخل جامع لمساوىء العيوب .

وقال بعضهم: البخل والجبن غريزة واحدة يجمعهما سوء الظن بالله .

وقال بعضهم: بشّر مال البخيل بحادث أو وارث .

وقال بعض الحكماء: البخل جلباب المسكنة .

وقال بعض الادباء: البخيل حارس نعمته، وخازن ورثته .

وقال بعض الشعراء في هذا المعنى :

اذا كنت جمّاعاً لمالك ممسكا	فأنت عليه خازن وأمين
تؤدّيه مذموماً الى غير حامد	فيأكله صفواً وأنت دفين

وحيث عرفت أنّ البخل جامع لمساوىء العيوب كما قال علي (رضي الله عنه) فلنذكرمنها أربعة ناهيك بها قبحاً، وهي: الحرص ، والشره، وسوء الظن، ومنع الحقوق .

---

(١) (سورة آل عمران: ٣/ ١٨٠) .

اما الحرص: فهو غريزة يبعث على شدة الكدح والاسراف في الطلب لحبّ الجمع .

واما الشره: فهو استقلال الكفاية والاستيثار لغير حاجة .

وهذا هو الفرق بين الحرص والشره .

قال النبي ﷺ : من لم يجزه من العيش مايكفيه ، لم يجد ـ ماعاش ـ ما يغنيه .

وقال بعض الحكماء: الشره من غرائز اللوم .

واما سوء الظن: فهو عدم الثقة بمن هو لها أهل، فان كانت بالخالق كانت شكاً يؤول الى ضلال، وان كانت بالمخلوقين كانت استهانة يصير بها خوّاناً وكانت دليلا على خبث نفسه .

لان ظن الانسان بغيره بحسب مايراه من نفسه ، فان وجد فيها خيراً ظنه في غيره، وان كان فيها شراً عدّه بالناس، ويرشح الجلد بمافيه .

قال المتنبي :

اذا سآء فعل المرء سائت ظنونه وصدّق مايعتاده من توهّم

وأما قول الحكماء: من الحزم سوء الظن بالناس .

فقد قيل: المراد به قلّة الاسترسال اليهم والتعويل عليهم، لاعتقاد السوء فيهم .

وامّا منع الحقوق : فلأن نفس البخيل لاتسمح بفراق محبوبها ، و الانقياد الى ترك مطلوبها، فلاتذعن لحق، ولاتجيب الى انصاف .

ولو ركن البخيل الى هذه الاوصاف المذمومة والشيم اللئيمة، لم يلق معه خير معمول ولا صلاح مأمول .

فصل

واما السرف فهوالزيادة عن حد السخاء وهو بالذم جدير .

قال تعالى: «ولاتسرفوا انه لا يحب المسرفين»[1] .

وقال النبي عليه السلام: ماعال من اقتصد .

وقال بعض البلغاء: لا كثير مع اسراف ولا قليل مع احتراف[2] .

نكتة .

السرف والتبذير: قديفترق معناهما، فالسرف: هوالجهل بمقادير الحقوق فيزيد عليها، والتبذير: هوالجهل بمواقع الحقوق، فيبذل في غيرها .

وكلاهما مذموم ، وان كان ذمّ التبذير أعظم ، لان المسرف مخطىء في الزيادة، والمبذّر مخطىء في الجميع .

ومن جهل مواقع الحقوق وتقاديرها ـ بماله ـ فاخطأها، كان كمن جهلها ـ بفعاله ـ فتعدّاها .

وكما أنه بتبذيره يضع الشيء في غيرموضعه، فهويعدل به عن موضعه، لان المال أقل من أن يوضع في كل موضع من حق وغيره .

قال بعضهم: في مقابلة كل سرف حق مضيع .

---

(١) (سورة الانعام: ٦/ ١٤١) و (سورة الاعراف: ٧/ ٣١) .

(٢) الاحتراف: الاكتساب .

وقال سفيان الثوري : الحلال لايحتمل السرف .

وقال بعض الحكماء: الخطأ في اعطاء مالاينبغي، ومنع ماينبغي واحد .

وأعلم: أنه ليس يتمّ السخاء ، حتى يسخو عما في يد غيره .

قال بعضهم : لاينبل الرجل حتى يكون فيه العفّة عن أموال الناس ، و التجاوز عنهم .

وقال بعض الحكماء : السخاء سخاءان : فأشرفهما : سخاؤك عما في يد غيرك .

وكتب كسرى الى ابنه هرمز : يابني استقل الكثير مماتعطي، واستكثر القليل مماتأخذ ، فان قرّة عين الكرام في الاعطاء ، وسرور اللئام في الاخذ ، ولايعد الشحيح أمينا، ولاالكذاب حراً، فإنه لا عفة مع الشح، ولا مروءة مع الكذب .

فصل

والبذل اما ابتداءاً، واما عن طلب: والاول فضل .

سئل علي رضي الله عنه، عن السخاء ؟

فقال: ماكان ابتداءاً ، وأما ماكان عن مسئلة فهو حياء وتكرم[1] .

وقال بعضهـم : أفضل النوّال ما وصل قبل السؤال [2].

وهذا يكون لاحدأسباب :

الف: أن يرى خلـّة يقدر على سدها، وفاقـة يتمكن من ازالتها، فلايدعه الكرم الا أنيكون زعيم ازالتها واصلاحها، رغبة في الاجر، أو حباً للشكر .

ب : أن يرى في مالـه فضلا عن حاجته ، فيضعها حيث يكون لـه ذخراً معـدّاً .

قال الشاعر :

ولا ضاع مال أورث المجد أهله ولكن أمـوال البخيل تضيـع

ج: أن يكون لتعريض تنبـّه عليه بفطنته ، فحداه كرمه على البذل، كما حكى: أن رجلا ساير بعض الولاة، فقال له: ما أهزل برذونك ؟!

---

(١) في الغرر والدرر ج٢ ص١١٧: وتذمم بدل وتكرم وهكذا في وسائل الشيعة ج٦ص٣٢٠ .

(٢) الغرر والدرر ج٢ ص٤١١ .

فقال: يده مع أيدينا .

فوصله بمال .

فهذا تعريض يبلغ ما لا يبلغه التصريح .

د: أن يكون ذلك جزاءاً على صنيعة، فيرى تأدية الشكر واجباً .

قال بعضهم : الاحسان رقّ والمكافأة عتق .

هـ: حب الرئاسة والترفّع على الناس ، فيستعطف النفوس ويرغبّها فيه بالاسعاف .

قال بعضهم: بالاحسان يرتبط الانسان .

وقال بعض البلغاء: من بذل ماله أدرك آماله .

و: أن يستعطف به سطوة أعداءه ، اما لصيانة عرض، أو حراسة مجد ، أو نفس .

ز : أن يرب[1] به سالف صنيعة أولاها، ويراعي به قائم نعمة أسداها ، كي لاينسي ماأولى، لان مقطوع البر ضائع .

قال الشاعر :

بدأت بنعمى أوجبت لى حرمـة ... عليك فعد بالفضل فالعـود أحمد

ح: محبة البذل واللذة به، لجبل النفس على ذلك، فهي تشتاق اليه .

قال الشاعر [2] :

وما زرتكم عمداً ولكنّ ذا الهوى ... الى حيث يهوى القلب تهوي بهالرجل

وهذا والخامس والسادس ، من أقسام العطاء لا السخاء وانما ذكرناها

---

(١) يرب : يزيد .

(٢) هو صالح بن عبدالقدوس وهذا البيت امير شعره الذى لم يقل مثله فى اللفظ والمعنى (الايجاز والاعجاز ص٥٤) .

لدخولها تحت البذل .

ط : أن يفعل البذل لانــه سجيّة قد فطر عليها وطبــع بها فلايمـّيز بين مستحق ومحروم، ولا بين محمود ومذموم .

وقد اختلف في تسمية هذا سخاء فيحمد، أولا فيذم .

فقيل: هذا هو السخاء طبعاً، وهو أحق بالحمد .

وقالوا: التقدير والتمييز شطر البخل .

وقال الحسن بن‌سهل: اذا لم أعط الا مستحقاً فكأنما أعطيت غريماً .

وهو الذي قال: الشرف في السرف .

فقيل له: لا خير في السرف .

فقال: لا سرف في الخير .

وقيل : هذا تبذير مذموم ، لان العطاء اذا كان لغيـر سبب كان المنـع لغير سبب.

لان المال يقل عن كل الحقوق ، فكيف عن بذله في كل محل ؟ ـ كما قدّمنا ـ [1] فاذا أعطى غير المستحق، فقد منـع المستحق، ومايناله من الذم بمنـع المستحق أكثر ممايناله من المدح باعطاء غير المستحق، وحسبك ذمّاً لمن كانت فعاله تصدر من غيرتمييز، وتوجد بغير علة .

ولاشك أن ماقدمناه في تعريف السخاء[2] ومابعده يشهد بقوة هذا .

---

(١) في صفحة (٢٣٠) .

(٢) في صفحة (٢٢٥) .

فصل

واما اذا كان البذل عن سؤال فللسائل شروط ثلاثة :

ألف: أن يكون السؤال لحاجة موجبة، ليسقط عنه اللوم .

قال بعضهم: الضرورة توقّح الصورة .

قال بعض الشعراء :

ألا قاتل الله الضرورة انّها تكلّف أعلى الخلق أدنى الخلائق

وقال الشاعر(١) :

ولولم يكن الاّ الاسنّة مركب فلا رأي للمضطر الاّ ركوبها

أما اذا دعته الحاجة، ولم تكن موجبة ضرورية، فالنفس المسامحة تغلب الحاجة، وتسمح في الطلب، لاستقامة الحال وانتظام الامر، والنفس الشريفة الابيّة، تغلّب الصيانة، وتراعي النزاهة .

قال الشاعر :

وليس الليث من جوع بعاد على جيف تحيط بها الكلاب

فكيف بالانسان الفاضل، الذي هو أكرم أنواع الحيوان نفساً، هل يحسن أن يرى لوحشي البهائم عليه فضلا و ...(٢) .

وأما اذا كان السؤال من غير حاجة، فهو صريح اللؤم، ومحض الدناءة ،

---

(١) هو الكميت بن زيد (الايجاز والاعجاز ص٤٣) .

(٢) كلمة غير مقروءة .

ومجمع العيوب .

ب ـ اختبار المسئول ، بأن يكون مرجوّ الاجابة ، اما لحرمة السائل ، أو كرم المسئول .

فان سأل لئيماً لايراعي حرمة، فهو الملوم بابتذاله، المحروم بسؤاله .

قال بعض الحكماء: المخذول من كانت له الى اللئام حاجة .

وقال بعض البلغاء: أذلّ من اللئيم سائله، وأقلّ من البخيل نائله .

وقال الشاعر :

من كان يأمل أن يرى   من ساقط أمراً سنيّاً
فلقد رجى أن يجتني   من عوسج رطباً جنيّاً

ج: التلطف في الطلب واتيانه به على الوجه اللائق به ، فربما انطلقت الانفس وانشرحت بلطيف السؤال ، وامتنعت وانقبضت بجفاء السائل ، وفظاظة سؤاله .

ولهذا قالت الحكماء: حسن الاستمناح سبب النجاح .

فصل

وأما مايجب على المسئول فأمران :

ألف : ان يكتفي بالتعريض والتلويح ، ولايلجيء الى صريح السؤال ليصون السائل عن ذلّ الطلب .

ب ـ أن يتلقي بالبشر والترحيب ، واللطافة والتقريب ليكون مشكوراً ان أعطى، معذوراً ان منع .

فقد قيل: البشر أحد البذلين .

حتى ان ابن دريد اللغوي رحمه الله قصد بعض الصدور في حاجة فلم يقضها ، وظهر له منه ضجر ، فكتب اليه :

يا خير من وقف العفاة ببابه	مسترفدين نواله المبذولا
لايدخلنك ضجر من سائل	فلخير دهرك أن ترى مسؤلا
لاتجبهن بالرّد وجه مؤمّل	فبقاء عزّك أن ترى مأمولا
يلقى الكريم فيستدل ببشره	ويرى العبوس على اللئيم دليلا
وأعلم بانّك عن قليل صائر	خبراً فكن خبراً يروق جميلا

فصل

أحوال السائل والمسئول أربعـة :

ألف: أن يكـون السائل مستوجباً [1] والمسئول متمكنا ، فالاجابـة هنا تستحق كرما وتلزم مروءة .

ولا سبيل الى الردّ الا لمن استولى عليه البخل، وهان عليه الذم .

قيل لبخيل: لم حبست مالك ؟

فقال : للنوائب .

فقيل: قد نزلن بك .

ثم ان كان التأخير مضراً عجّل لـه وقطع مطلبه .

قالت الحكماء: من مروءة المطلوب اليه ان لايلجيء الى الالحاح عليه .

وان كان في الوقت مهلـة ، وفي التأخير فسح ، فذهب بعضهم الى أنّ الاولى تعجيـل الوعد قولا ، ثم يعقبه الانجـاز فعلا ، ليكون السائل مسروراً بعاجل الوعد ، ثم بآجل الانجاز، ويكون المسئول مرهوناً بالكرم، ملحوقاً بالوفـاء .

حكى : أنّ يحيى بن خالد سأله رجل حاجة ، فوعده بقضائها .

فقيل له : أتعد ، وأنت قادر ؟

---

(١) مستوجباً: مستحقاً .

فقال: نعم ، ان الحـاجة ان لم يتقدمهـا وعد ينتظر صاحبهـا نجحه ، لم يجدها سروراً ، لان الوعد طعم والانجاز اطعام .

وذهب بعضهم : الى أنّ تعجيل البذل فعلا من غير وعد أولى .

قالوا: انما يقدم الوعد أحد رجلين :

اما معوز ينتظر جدة(١) أو شحيح يروض نفسه الى حينه (٢) .

وليس لوعد في غيرهاتين الحالتين وجه .

قالوا : وفي توقع الـوعد من مرارة الانتظـار مايكـدره ، ويوهن عن شكره .

ب : أن يكون السائل غير مستوجب ،والمسئول غير متمكن .

ففي الردّ هنا فسحة ، وفي المنع عذر ، الا أنه يلزمه أن يلين عند الـرد لينا يقيه الذم ، ويظهر عذراً يدفع عنه اللـوم اذ ليس كل مقل يعـرف اقلاله .

ج : أن يكون السائل مستوجباً ، والمسؤل غير متمكن .

فيحمل النفس ما أمكن من يسير يسد خلة ، ويدفع مذمة ان أمكنه ذلك.

ثم يظهر من أعذار المعوزين وتوجّـع المتألمين ما يوضح به عذره .

د : عكسه (٣) .

فانخاف بالرد قدح عرض ، او قبح هجاء كان الىالبذلأجدر، صيانة لا جوداً .

فعن النبي ﷺ : ماوقي به العرض فهو صدقة .

(١) الجدة : الغنى .

(٢) كذا ظاهراً والكلمة غير واضحة .

(٣) اى عكس الحالة الثالثة وهو ان يكونالسائل غير مستوجب والمسؤل متمكناً.

وان أمن ذلك فمن الناس من أمر بالبذل ، لئلا يقابل الرجاء بالخيبة ، و لئلا يعتاد الرد ويستسهل المنع .

ومنهم من اعتبر الاسباب وندب الى المنع ، ليقوى على الحقوق اذا عرضت .

قال الشاعر :

لاتجد بالعطاء في غير حق	ليس في منع غير ذي الحق بخل
انما الجود أن تجود على من	هو للجود والندى منك أهل

خاتمة هذا الفصل :

رأما من وعد بالبذل فقد صار مرهونا ، فلا سبيل الى مراجعة نفسه بالرد ولا اعتبار باستحقاق السائل وعدمه ، فاذا رد استوجب مقت الخلف ، وهجنة الكذوب .

واعلم : انه لاسبيل الى المطل بعد الوعد لما فيه من تكدر الصنيع ، و تمحيق الشكر .

والعرب تقول : المطل احد المنعين [١] .

---

(١) كذا ، وورد في احاسن المحاسن ص ١٥٨ : شر المنعين .

فصل

وللمعروف شروط لايتم الابها :

منهــا : ستره : لئلا يستقلّ به ، ولا يستزل باشاعته[1] .

قــال بعض الحكماء: اذا اصطنعت المعروف فاستره ، واذا اصطنع اليك فانشره .

على أن ستره من أقوى أسباب ظهوره ، لما جبلت عليه النّفوس من اظهار ما خفي .

قال سهل بن هارون ، في مدح بعضهم :

حفيّ اذا جئته يــوماً لتسأله … أعطاك ما ملكت كفّاه واعتذرا

يخفي صنائعه والله يظهرهـا … ان الجميل اذا أخفيته ظهـرا

ويجب استصغاره واستقلاله لئلا يكون مدلا به .

قال العباس رضي الله عنه : لايتم المعروف الابثلاثــة خصال ، تعجيله ، وستره ، وتصغيره .

ومنها : مجانبة الامتنان به ، وترك الاعجاب بفضله .

لما فيهما من احباط الاجر واسقاط الشكر .

قال النبي ﷺ : ايّاكم والامتنان بالمعروف فانه يبطل الشّكر ، ويمحق

---

(١) فالمعنى : لايستخس به ولاينتقص به .

الاجر ، ثم تلا : « لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى » [١] .

قال بعض الحكماء : المن مفسد[٢] للصنيعة .

وقال الشافعي (رضه) :

لا تحملن لمن يمـن [٣] مـن الانام عليك منّة

واختـر لنفسك حظّها واصبر فان الصبر جنّة

منـن الرجـال على القلـــــوب أشدّ من وقع الاسنة

هداية :

لا يمكنك أن توسع جميع الناس معروفاً فاعتمد بذلك أهل الفضل والدين والحفاظ ليقع المعروف موقعه :

فعن رسول الله ﷺ : لاتضع الصنيعة الاعند ذي حسب أو دين.

وقال ﷺ : اذا أراد الله بعبد خيراً جعل صنائعه في أهل الحفاظ .

وقال بعض الحكماء : على قدر المغارس يكون اجتناء الغارس .

نصيحة :

ينبغي أن لايحقّر القليل اذا كان الكثير متعذراً ، لان فعل القليل من الخير أفضل من تركه .

قال عبدالله بن جعفر : لاتستحي من القليل ، فان البخل أقل منه .

وقال الشاعر :

اعمل الخير ما استطعت وان كان يسيرا فلـن تحيـط بكلّه

ومتى تفعـل الكثيـر من الخيـر اذا كـنت تاركـا لاقلـه ؟

---

(١) سور البقرة : ٢/٢٦٤ .

(٢) كذا ظاهراً والكلمة غير واضحة ، ويحتمل كونها : يفسد الصنيعة .

(٣) هذا الشطر غير مقروء في الاصل وهو مأخوذ من ديوان الشافعي ص٨٧ .

فصل

وأما من أسدي اليه المعروف فقد صار في أسره موثقاً ولزمه ـ ان كان من أهل المكافأة ـ أن يكافيء عليه بمثله أو أزيد ، لان المعروف رقّ والمكافأة عتق .

وان لم يكن من أهلها وجب أن يقابل المعروف بنشره ، ويجازي عليه بما أمكن من شكره .

فعن النبي ﷺ : من أودع معروفاً فلينشره فان نشره فقد شكره ، وان كتمه فقد كفره .

وعنه ﷺ : أيما عبد صنع الى أخيه معروفاً وصنيعة ، فلم يجد لها الا الدعاء والثناء ، فقد كافأه [٢] .

وقال بعضهم : الشكر قيد النعمة ، ومفتاح الزيادة ، وثمن الجنة [١] .

وقال الرضا : ان قصرت يدك بالمكافأة ، فليطل لسانك بالشكر .

وقال عبدالحميد : من لم يشكر على الانعام . فأعدده من الانعام .

وفي منثور الحكم : قيمة كل نعمة شكرها [١] .

وقال الشاعر :

ولو كان يستعلي عن الشكر ماجد ... لعزة ملك[٢] أو علو مكان

---

(١) كذا ظاهراً والكلمة غير واضحة .

(٢) في الايجاز والاعجاز ص٥٤ : لعزة نفس .

لما أمـر الله العبـاد بشكـره فقال: اشكروني أيها الثقلان

وأما من ستر النعمة،ولم يشكرها، فقد كفرها ،وارتكب مذموم الخلائق وأسوء الطرائق .

قال النبي ﷺ : لايشكر الله من لايشكر الناس .

وقال بعض الادباء : من لم يشكرالنعمة ، استحق قطع النعمة .

وقال ايضاً [١] : من أنكر الصنيعة ، استوجب قبح القطيعة .

هذا كله في النّعم الحقيرة اليسيرة الفانية الصادرة من الامثال والاشباه.

فكيف بـك أيها العاقل اللبيب ـ أرشدنا الله واياك ـ بـالنعم الجسمية ، والعظيمه التي قد حباك بها مولاك ، التي لايسع الدهر كله ، ولاتحتمل الطاقة البشرية القيام بشكر أيسرها .

قـال بعض . . . [٢] في مناجاته : الهي كيف أبلغ حق حمدك ، وكلما قلت : «لك الحمد» ، وجب علي بذلك أن أقول : «لك الحمد» .

فهل يحسن بك أيها اللبيب أن تغفل عمّا تسعه طاقتك من الشكر ، بعدأن علمت وجوب الشكر وأمرت به [٣]، ووعدت عليه بالزيادة [٤] ؟ !

وهل[٥] أنت خائف من قطع النعمة وتبديلها والعياذ بالله ! ؟

فان من يكن[٦] رشيداً عاقلا ، فلا يغفل عن ذلك ، الا اذا استحوذ عليـه الشيطان، و(أودى به في لحـّة) [٧] الفسق والعصيان .

---

(١) كذا ظاهراً والكلمة غير واضحة .

(٢) الكلمة غيرمقروءة في نسخه الاصل .

(٣) في قوله تعالى : « فاذكروني أذكركم واشكروالي ولاتكفرون » (سورة البقرة : ١٥٢/٢)

(٤) في قوله تعالى : « لئن شكرتم لازيدنكم » (سورة ابراهيم : ٧/١٤) .

(٥ ، ٦ ، ٧) كذا الظاهر والعبارات غير واضحة في نسخة الاصل .

باب حسن الخلق

من تمام سعادة المرء ، وأدل الاشياء على شرف نفسه ، حسن الخلق . لانه اذا حسنت أخلاق المرء ، كثر مصافوه ، وقل معادوه ، فتسهلت له الامور الصعاب ، ولانت له القلوب الغضاب .

على أن الحسن الخلق من نفسه في راحة ، والناس منه في سلامة ، والسيء الخلق نفسه منه في عناء ، والناس منه في بلاء .

وعن النبي ﷺ: حسن الخلق وحسن الجوار ، يعمران الديار ، ويزيدان في الاعمار .

وعنه ﷺ : ان الله ارتضى لكم الاسلام ديناً ، فأكرموه بحسن الخلق والسخاء ، فانه لايكمل الابهما .

وعنه عليه السلام : أثقل ما يوضع في الميزان، الخلق الحسن .

وقال رجل : يا رسول الله ما الدين ؟

فقال : الخلق الحسن .

فقال : يا رسول الله فما الشؤم ؟

فقال : سوء الخلق .

وقال صلى الله عليه : انكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم ببسط الوجه ، وحسن الخلق .

وسئل ﷺ : أيّما الاعمال أفضل ؟

فقال : حسن الخلق .

واذ قد سمعت ما تلوناه ، فحسن الخلق عبارة عن : سهولة العريكة [١] ، ولين الجانب [٢] ، وطلاقة الوجه ، وقلّة النفرة [٣] وطيب الكلمة .

واذا عرف ذلك ، فليعلم أنّ لهذه الاوصاف حدوداً مقدّرة ، ومواضع مستحقّة .

ففي أمثالهم : لاتكن حلواً فيأكلوك ، ولامرّاً فترمى .

وقال الشاعر :

أصفو وأكدرأحيانا لمختبري وليس مستحسناًصفو بلاكدر

وليس يريد الكدر الذي هو البذاء وسوء الخلق، فان ذلك ذم لايستحسن وعيب لايرتضى ، وانّما يريد الكف والانقباض في موضعه اللائق به .

واذا كان لمحاسن الاخلاق حدوداً مقدرة ، ومواضع مستحقة، فان تجاوز بها الحد صار ملقاً ، وان عدل بها عن مواضعها صارت نفاقاً ، والملق ذل ، والنفاق لؤم .

---

(١) : الطبيعة . وفلان لين العريكة: اى سلس .

(٢) : يقال : فلان لين الجانب اى:هادىء لطيف.

(٣) النفرة : هو الخروج عن الاعتدال والتأثر السريع والشديد لمتغيرات الاحوال يقال نفر القوم: اذا أعرضوا وصدوا .

فصل

ربماتغيّر حسن الخلق فيصير اللين خشونة ، والطلاقة عبوساً ، ولذلك أسباب :

منها : الولاية ، والكلام فيها على نحوما تقدم في الكبر والعجب [1] .

ومنها : العزل عنها ، وذلك : امّا لشدة أسف ، أو لقلّة صبر .

ومنها : الغنى ، ولذلك قيل : من نال استطال .

قال الشاعر :

لقد كشف الاثراء منك خلائقاً من اللّوم كانت تحت ثوب من الفقر

ومنها: الفقر، فقد يتغير به الخلق، اما للانفة من ذل الاستكانة ، أو للاسف على فائت الغنى .

ولذلك قال النبي ﷺ : كاد الفقر أن يكون كفرا [2] .

ومنها : الهموم التي تذهل اللب ، وتشغل القلب ، فلا يتّسع الاحتمال، وما يقوى على صبر .

ومنها : الامراض التي يتغير بها الطبع ،كما يتغير بها الجسم ، فلاتبقى الاخلاق على الاعتدال ، ولايقدر معها على الاحتمال .

ومنها : علوّ السن ، وحدوث الهموم ، المؤثرين في الجسد والنفس ، فكما يضعف الجسد عما كان يحتمله بطبعه من الافعال ، كذلك تضعف النفس عما كانت تصبر عليه من المخالفة في الاعمال والاقوال .

---

(١) الباب ١١ الفصل الرابع ص ٢٠٨ .

(٢) راجع هامش ص ١٥٥ .

باب الحياء

ان الخير والشر معان كامنة تعرف بسمات ظاهرة دالة عليها، فسمة الخير : الدعة والحياء ، وسمة الشر : القحة والبذاء .

فعن النبي ﷺ : الحياء من الايمان ، والايمان في الجنة ، والبذاء من الجفاء ، والجفاء في النار .

وقال بعض الحكماء : من كساه الحياء ثوبه ، لم ير الناس عيبه .

وليس لمن سلب الحياء عنه صاد[1] عن القبيح ، ولا راد عن الفحش ، فيقدم على مايشاء ويفعل كلما يهواه .

ولذلك جاء : اذا لم تستح فاصنع ما شئت .

وفي مثله يقول الشاعر :

اذا لم تخش عاقبة الليالي	ولم تستحي فاصنع ماتشاء
فلا والله ما في العيش خير	ولا الدنيا اذا ذهب الحياء

وقد قال بعضهم في معنى ذلك [1] غير ما قاله الاصوليون ، فقال: المعنى اذا عرضت أفعالك التي هممت بفعلها ، فلم تستح منها، فاعمل منها ما شئت. الا أن ما عليه الاصوليون أشبه ، لان الكلام خرج منه ﷺ مخرج الذم ، لامخرج الامر ، ولايخلو من شيء، اذ ربما لايسلم ذلك.

---

(١) كذا ظاهر الكلمة .

فصل

والحياء يكون على ثلاثة أنحاء :

الاول: حياءالانسان منالله تعالى ، والباعث عليه العقل الصريح، والنظر الصحيح ، حيث يرى الله تعالى أحق بان يستحى منه لعظمة عزته ، وجزيل نعمته .

ولذلك قال رسول الله (ص) : قلة الحياء كفر .

وهذا الحياء يدعو الىامتثال ماأمر الله تعالى به ، والكف عمّا زجر عنه فيحصل السعادة الابدية .

قال النبي ﷺ : الحيـاء نظام [١] الايمان ، فاذا انحل نظام الشيء تبـدد مافيه وتفرق .

وقال ﷺ : استحيوا من الله عزوجل حق الحياء .

قيل : يارسول الله ، وكيف نستحي من الله حق الحياء ؟

فقال ﷺ من حفظ الرأس وماحوى، والبطن وماوعى ورفض زينة الحياة الدنيا، وذكر الموت والبلى ، فقد استحى من الله حق الحياء[٢] .

وعن علقمة أنه قال : يارسول الله ، عظني .

فقال ﷺ : استحي من الله استحياؤك من ذي هيبة من قومك .

---

(١) النظام : هوفى الاصل الخيط الذين ينظم به اللؤلؤ ونحوه .

(٢) الجامع الصغير ج١ ص٣٩ ــ ٤٠ .

الثاني : حياؤه من الناس ، وهو يبعث على كف الاذى وترك المجاهرة بالقبيح .

روي عنه ﷺ ، أنه قال : من تقوى الله تقوى الناس .

وروي أن حذيفة بن اليمان (أتى)[1] الجمعة، فوجد الناس قد انصرفوا منها ، فتنكّب الطريق[2] وقال : لاخير فيمن لايستحي من الناس .

وهذا النوع يكون من كمال المروءة وحب الثناء .

قال الشاعر :

ورب قبيحة ما حال بيني وبين ركوبها الا الحياء

اذا رزق الفتى وجهاً وقاحاً تقلّب في الأمور كما يشاء

الثالث : حياؤه من نفسه ، وهو يبعث على العفّة وصيانة الخلوات .

والباعث عليه علوّ الهمّة ، وشرف جوهر النفس .

قال بعض الحكماء : من عمل في السر عملا يستحي منه في العلانية فليس لنفسه قدر .

وقال الشاعر يفتخر بشرف نفسه :

فسرّي كاعلاني وتلك خليقتي وظلمة ليلي مثل ضوء نهاري

فمن كمل حياؤه من الوجوه الثلاثة ، فقد كملت فيه أسباب الخير ، وانتفت عنه أسباب الشر .

وان اختل منها شيء لحقه من النقص باخلاله أضعاف مايلحقه من الفضل بكماله .

اللهم ألبسنا ثياب التقى ، وأحمنا عن موبقات الردى ، واجعل سعينا فيما تهوى ، انك أنت اللطيف الخبير .

---

(١) كذا ظاهراً وفي نسخة الاصل بياض .

(٢) تنكب الطريق : عدل عن الطريق وتجنبه وأقبل نحو غيره .

باب المصاحبة والاصدقاء

اعلم ان صحبة العقلاء والاخيار الافاضل ، ومجالستهم ، ومحادثتهم ، تثمر الزيادة في العقل والعلم والعمل ، ومحاسن الاخلاق والاداب ، ومعرفة مواقع الخطاب .

لان اللبيب اذا رأى ماهم عليه من ذلك بعثه عقله وهمّته على أن يقتدي بهم في أقوالهم وأفعالهم وآدابهم ، ولا يرضى أن يقصر عنهم لما يعلمه كل أحد من قبح النقص .

بل قد تبعثه الحميّة على الزيادة عليهم فيكون ذلك سببا لسعادته وباعثا على أستزادته .

فقد قال النبي (ص): المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل .

وقال الشاعر :

عليك بأرباب الصدور فمن غدا ... مضافاً لارباب الصّدور تصدّرا

[وايّاك أن ترضى صحابة ناقص ... فتنحط قدراً من علاك وتحقرا](1)

فرفع «أبو من» ثم خفض «مزمل» ... يصدق قولي مغرياً ومحذّراً(2)

---

(١) هذا البيت ليس في نسخة الاصل .

(٢) في نسخة الاصل : منبئاً ومخبراً ،وماأثبتناه هو الصحيح على مافي جامع ←

وقال النبي ﷺ : مثل الجليس السوء كصاحب الكير، ان لم يحرق ثوبك آذاك بدخانه ، ومثل الجليس الصالح كالعطار، ان لم يصبك من عطره أصبت من ريحه .

ـــالشواهد، وقائل هذه الابيات هو الشيخ أمين الدين العروضى المحلى كما فى كتاب (جامع الشواهد) .

وهو يبين ان مرافقة الاشراف وأهل الرفعة والشأن يوجب ارتفاع شأن الانسان، فى حين ان مصاحبة السوقة والسفلة يوجب استرذال الانسان وانتقاص قدره .

ويقول : فى الاخر الابيات : ان التأمل فى هذين المثالين يبين قولى

حال كونى مغرياً (من الاغراء : وهو بقوله : عليك بارباب الصدور) .

وحال كونى محذراً (من التحذير: وهو بقوله : واياك أن ترضى صحابة ناقص).

و أما المثالان فأولهما : حالة الرفع فى «أبو من» ، فى نحو قولك : علمت أبو من زيد ، فكلمة (أبو) مرفوعـة ، مع ان محلهما النصب ، بناءاً على المفعولية لـ (علمت) ، و حاله الرفع هذه ليس الا من جهة اضافتها الى (من) الذى يقتضى التصدر فى الكلام .

وأما المثال الثانى هو : «مزمل» فى قول امرىء القيس فى معلقته :

كـأن أبانـاً فى عرانين وبلـه ... كبير أنـاس فـى بجاد مزمل

وهـو يريد تشبيه جبل (أبان) عندما يبدأ المطر بالنـزول عليه برجل عظيم كسى بكساء مخطط (فان البجاد : هو الكساء المخطط) و المزمل : الملفوف بالثوب و نحوه ومنه قوله تعالى : ياأيها المزمل قم الليل الا قليلا (سورة المزمل : ١/٧٣).

فكلمة (مزمل) فى هذا البيت نعت لـ (كبير) ، وحيث ان المنعوت مرفوع فلابد أن يتبعه النعت فى الاعراب .

فى حين انه ـ فى البيت ـ ورد مخفوظاً ، وليس ذلك الا لمجاورته كلمة (بجاد) المجرور بحرف الجر.

وقد استشهد ابن هشام بهذا البيت فى موضعين من كتاب (مغنى اللبيب) ، فى أواخر الباب الرابع وفى القاعدة الثانية من الباب الثامن : (أن الشىء قد يعطى حكم شىء آخر اذا جاوره) .

وقال بعض البلغاء : خير الاختيار صحبة الاخيار ، وشر الاختيار مودّة الاشرار .

وماذاك الالتاثير المصاحبة في اكتساب الاخلاق ، فتصلح أخلاق المرء بمصاحبة اهل الصلاح ، كما قدمناه ، وتفسد بمصاحبة أهل الفساد .

قال الشاعر :

اذا اجتمع البخس (١) اللئيم بمعشر   كرام السجايا ضرّهم باجتماعه
كما البحر (٢) تاتيه المياه جميعها   عذابا فيودنها(٣) بمرّ طباعه

فكما ينبغي مصاحبة أهل الصلاح رجاء الفلاح ، كذا يجب مجانبة أهل العصيان خوف النكبان .

قال الشاعر :

يخاف على الف من (... ...) (٤)   صحاح اذا ماخالط الالف اجرب
فهلايخاف المرء من ألف اجرب   يخالطه وهو الصحيح المجرّب ؟

وحينئذ ينبغي أن يصحب من فيه خمس خصال: الفضل ، والعلم، وحسن الخلق ، والتقوى ، والصنع السليم الذي يصدرعنه الانصاف .

فمصاحبة مثل هذا ، لو لم يحصل منها الا الحياء منه ـ المانع من معصية الله ـ لكفى .

كيف، ومجالسة العقلاء ومحادثتهم من الذّ اللذات النفسانية عند العقلاء .

---

(١) البخس : الناقص القدر .

(٢) في هامش نسخة الاصل : (ما) في قوله : (كما البحر) زائدة ، و (البحر) مجرور بالكاف ، ويجوزأن يكون اسماً مقصوداً عن مد للضرورة الشعريه، فيكون(البحر) مجروراً بالاضافة .

(٣) كذا ظاهراً ويحتمل كونه : فيردنها .

(٤) كلمتان ممسوحتان في نسخة الاصل ..

فقد قيل في قوله تعالى: «على سرر موضونة، متكئين عليها متقابلين»[1] أي : يقابل بعضهم بعضاً ، فيتصاحبون ويتحادثون، فيكون ذلك من أكبر اللذات في الجنة .

وقال المأمون: لولا عزّة السلطان لما منعت أحد من الدخول عليّ أبدا ، لحبي محادثة الرجال .

وقال بعضهم : أنا بالصديق آنس مني بالاخ .

فقال له ابن المقفع صدقت ، لان الصديق نسيب الروح ، والاخ نسيب الجسم .

(١) سورة الواقعة : ١٥/٥٦ .

فصل

وحيث كانت مصاحبة الاخيار بهذا القدر من الفضل ، فاعلم : أنّها لاتتم الاّ بعد حسن المداراة ، والصفح عن الهفوات ، وفتح باب العذر والتأويل للزلات لان الانسان مغمور بالنقص ـ الا من عصمه الله تعالى ـ لما تدعوه اليه نفسه، ويهوي به اليه هواه .

ثم ـ ولو فرض استقامته من كل الوجوه ـ فارادات الناس وآراؤهم تختلف كاختلاف صورهم ، فربما يفعل ماهو حسن في نفس الامر ، ويسبق الى وهمك قبحه ، فتبادره باللوم وأنت أحق به منه .

ولهذا قيل : رب ملوم لاذنب له ، ولائم أحق باللوم .

وقال بعضهم ، رب سامع بخبري لم يسمع بعذري، فان صدر منه مالم تجد له تاويلا ، فاعلم أن ذلك لقصورك عن معرفة التاويل .

فقد روي عن النبي عليه السلام هذا المعنى في قوله : التمسوا لاخوانكم العذر في زلاتهم ، فان لم تجدوا لهم العذر في ذلك ، فاعتقدوا أن ذلك منكم لقصوركم عن معرفة العذر .

وقال الشاعر :

وليس صديقي من اذا قلت كلمة	تصور في آثار موقعها أمرا
ولكنه من لو قطعت بنانه	تصوّره قصداً لمصلحة أخرى

وحكي : أن بنت عبد الله بن مطيع قالت لزوجها ، طلحة بن عبد الله بن عوف ، وكان أجود قريش مارأيت الامر"(١) من اخوانك .

فقال لها : ولم ؟

قالت : رأيتهم اذا أيسرت لزومك ، واذا أعسرت تركوك.

فقال لها : هذا ــ والله ــ من كرمهم يأتوننا في حال القوة لنا عليهم ، ويتركوننا في حال الضعف بنا عنهم .

فانظر كيف تأوّل بكرمه هذا التأويل ، فجعل قبيحهم حسناً ، وهذا محض الكرم ، وبمثل هذا يلزم ذوي الفضل أن يتأولوا هفوات اخوانهم .

قال الشاعر :

اذا شئت أن تدعى كريماً مكرما
أديباً لبيباً فاضلا فطناً حرا
اذا مابدت من صاحب لك زلة
فكن أنت محتالا لزلّته عذرا
(أحب) (٢) الذي ينفي الفواحش سمعه
كأن به عن كل فاحشة وقرا

والداعي الى هذا التأويل ، التغافل الحادث عن الفطنة ، والتألف الصادر عن الوفاء .

قال بعض الحكماء : وجدت أكثر أمور الدنيا لاتجوز الا بالتغافل .

وقال أبو تمام :

ليس الغبي بسيّد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

وقال بعضهم : من شدد نفرّ ، ومن تراخى تألّف ، والشرف في التغافل .

---

(١) الامر : الاكثر مرارة .

(٢) كذا ظاهر الكلمة، وهي غير واضحة في نسخة الاصل .

فصل

فان تحققت عدم وجود التأويل ، وأنــه صادر عــن عمد وقصد اضرار ، فافتح عند ذلك باب العفو والتجاوز، لان المرء غير معصوم، وانسب ذلك الى ما يصدر من باقي الناس ، فانك تجده قليلا .

بل انسبه الى مايصدر منك من الزّلات والهفوات فربما تجده أصغر وأقل خطراً مما قد فعله .

فان لم يرتكب المرء في أصدقائه هذا النهج الذي أوضحناه ، فلا صديق له البتة .

قال بعض بلغاء الشعراء[1] :

اذا كنت فــي كـل الامور معاتبا
صديقك لــم تـلق الـذي لا تعاتبـه

وان أنت لم تشرب مراراً على الاذى[2]
ظمئت وأيّ الناس تصفو مشاربـه

ومن ذا الذي تـرضى سجاياه كلها
كفــى المــرء نبلا أن تعدّ معائبـه

---

(١) هو بشار بن برد على ما فى (الايجاز والاعجاز ص ٤٥) .

(٢) فى نسخه الاصل القذى والتصحيح من المستطرف ج١ ص١٢٠ .

وقال بعض أشراف الاشراف في الصاحب:

كذّب عليه اذا أرضاك ظاهره
شهادة الصادقين : السمع والبصر

فان سمعت فقل ما كان عن أذن
وان رأيت فقل ما كان عن بصر

ان كنت لا ترتضي الا أخا ثقة
فاخلق لنفسك اخوانا على (قدر) (١)

(١) بياض فى نسخه الاصل .

فصل

ومن محاسن مايترتب على هذا : التفضّل والاغضاء لتألّف الاعداء، بحيث يثنيهم عن البغض أوالاذية ، وهذا يكون مع ماذكرناه بصنوف اخرى من البرّ والملاطفة، ويختلف ذلك بحسب اختلاف الرجال والاحوال .

وهو من أكبر الحزم ، وأدل دليل على كمال العقل، لانّ من أغفل تألّف الاعداء ــ مع وفور النعمة وظهور الحسد ــ ربما توالى عليه مكرهم وحيلهم وبادره سفههم بالاذية .

ولهذا قال رسول الله ﷺ : رأس العقل بعد الايمان التودد الى الناس .

وقال بعض البلغاء : من استصلح عدوّه زاد في عدده ، ومن استفسد صديقه نقص من عدده .

وقال الشافعي :

أني أحيّي عدوّي عندرؤيته	لادفع الشرعني بالتحيات
وأظهر البشر للانسان أبغضه	كانما قد حشى قلبي محبات

وقال بعض الحكماء : تكثروا من الاخوان فانكم لاتدرون ممن تنتفعون منهم .

---

(١) هكذا ورد في ديوان الشافعي ص٢٨ وفي نسختنا جعل العجزمن البيت الثاني للاول ، والعجز من البيت الاول للثاني .

وقال سليمان بن داود عليه السلام لابنه : لاتستكثر أن يكون لك ألف صديق ، فألف قليل ، ولاتستقل أن يكون لك عدو واحد فالواحد كثير .

فأخذه ابن الرومي ، فقال :

تكثر من الاخوان ماستطعت انهم	بطون اذا استنجدتهم وظهور
وليس كثيراً ألف خل وصاحب	وان عدواً واحداً لكثير

فصل

وحيث قد ندب الى تألّف الاعداء وملاطفتهم، فلايجوز أن يكون المرء اليهم راكنا، وبهم واثقاً .

بل يجب أن يكون منهم على حذر تام، فان العداوة اذا استحكمت كانت طبعا لايستحيل ولايزول، وانما يستكف ـ بالتألّف ـ أضرارها أواظهارها، كالنار يستدفع بالماء احراقها ويستفاد انضاجها ، وان كان احراقها بالطبع لا يزول ، وجوهرها لايتغير .

قال ابن نباتة :

واذا عجزت عن العدو فداره	وامزح له ان المزاح وفاق
النار بالماء الذي هو ضدهـا	تعطي النضاج وطبعها الاحراق

باب المزاح والضحك

اما المزاح فهو ازاحة عن الحقوق، ومخرج الى القطيعة والعقوق، يصم المازح، ويؤذي الممازح .

فوصمة المازح أنـه يذهب عنه المهابة والبهاء، ويجرّئ عليه غوغـاء السفهاء .

وأما أذيّة الممازح فلانه معقوق[1] بقول كذب، أوفعل ممضّ ان أمسك عنه أحزن قلبه، وان قابل عليه خان أدبه .

فحق على العاقل أن يتّقيه، وينزه نفسه عن وصمة مساويه .

فعن النبي ﷺ: المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى .

وقال عمر بن عبدالعزيز: المزاح سباب، الا أن صاحبه يضحك .

وقيل: انما سمي مزاحاً، لانه يزيح عن الحق .

وقال بعضهم: لو كان المزاح فحلا لم ينتج الا شراً .

وقال بعض الادباء: من كثر مزاحه زالت هيبتـه .

وقال بعض البلغاء: من قلّ عقله كثر هزله .

على أنه قل مايخلو من المزح من كان سهل الاخلاق لطيف النفس .

فالعاقل يتوخي من مزحه احدى خصلتين لاثالث لهما :

اما: استيناس المخاطبين، والتودد الى المخالطين .

---

(١) مملوء ، يقال عقت الدلو: اذا طلعت من البئر مملوءة .

وهذا لايكون مستملحاً الا بالاقتصاد[١] ثم بماآنس من جميل القول و مستحسن الفعل .

قال بعضهم لابنه : اقتصد في مزاحك فان الافراط فيه يذهب البهاء ويجرّيء السفهاء والتقصير فيه يفض عنك المؤانسين ، ويوحش منك المصاحبين .

واما: أن يتّقي به ماحدث من همّ ، وأضر من تعب أو غم .

فقد قيل: لابد للمصدور أن ينفث .

قال أبوالفتح البستي :

أفد طبعك المكدور بالجد راحة براح[٢] وعلله بشيء من المزح
ولكن اذا أعطيته ذاك فليكن بمقدار ماتعطي الطعام من الملح

وقد كان النبي صلوات الله عليه يمزح على أحد هذين الوجهين .

وقال عليه السلام: اني لامزح ،ولاأقول الا حقاً .

فمن مزاحه: أن عجوزاً من الانصار قالت: ادع لي بالمغفرة .

فقال لها : أما علمت أن الجنة لايدخلها العجائز ؟ !

فصرخت، فقال لها: اما قرأت قوله تعالى: «انا أنشأناهن انشاءاً، فجعلناهن أبكارا، عرباً أترابا» [٣].

ومنه : أنه دخل يوماً على عائشة (رضه) ، فوجدها نائمة ، فربط قرنها بالسرير، ثم حركها، فقصدت القيام فلم تقدر، وهو عليه السلام يضحك.

ولذلك كان الخلفاء الراشدون بعده، و كثير من أصحابه يمزحون .

---

(١): اى الاقلال فى المزح .
(٢) كذا الظاهر ، ويحتمل ان يكون ماورد فى النسخة: يصح .
(٣) فى(سورة الواقعة: ٥٦ / ٣٥ — ٣٧) .

حكي : ان رجلا أتى علي بن أبي طالب ، وقال : ياأمير المؤمنين،اني احتلمت على امي .

فقال : أقيموه في الشمس ، واضربوا ظله الحد .

وكان صهيب بن سنان مزّاحاً ، فقال له النبي ﷺ: أتأكل تمراً وبك رمد؟!

فقال : يارسول الله انما أمضغ على الناحية الاخرى .

وانماساغ لصهيب أن يعرّض لرسول الله بالمزح في جوابه،لان استخباره تضمّن المزح فأجابه بمايوافقه، والافليس لاحد أن يجعل جواب رسول الله مزحاً.

وقال النبي ﷺ : مزاح المؤمن عبادة ، وضحكه تسبيح .

وقال : المؤمن دعب لعب ، والمنافق عبس قطب .

وكان الناس يحيدون عن مجلس الثوري لكثرة مزاحه .

وقال الاحنف : من ترك ممازحة أخيه فقد فارقه .

وقال يحيى بن أكثم: المزاح لسان المحبة ، ورسول المودة، وسبب الراحة ، وثمرة التصافي ، ونزهة التلاقي .

وحيث قد مزح النبي ﷺ ، فالمزاح سنّة .

وقد سمعت ماتلوناه من اقتداء الأماثل به ﷺ ، ووجهة حسنه .

فماتقدم فيه من الذم(١): محمول على ماشيب بكذب،لقبح الكذب في نفسه ، أوعلى الافراط فيه ، ومجاوزة القدر المستملح ، فانه هجنة ومذمة، لانه خلاعة، ومفض الى كثرة الضحك ، وهي تميت القلب وتسقط المهابة .

أومحمول على المداومة عليه، فانها اشتغال باللعب والهزل، وهما مذمومان.

أو على ما كان منه في غير محله ، ومع غير أهله كممازحة الاعداء فانها تجعل للعدو طريقاً الى الاستخفاف ، واظهار المساوىء .

---

(١) فى أول هذا الباب ص٢٦٢ .

فصل

وأما الضحك : فاعتياده شاغـل عن النظر في الامور المهمة ومذهل عن التفكرفي النوائب الملمـّة .

وليس لمن أكثرمنه هيبة ولاوقار ، ولالمن وسم به خطر ومقدار .

قال رسول الله ﷺ : اياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب ، ويذهب بنور الوجه .

وعن ابـن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : « مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولاكبيرة الا أحصاها»[1]أن الصغيرة التبسم، والكبيرةالضحك.

وفي منثور الحكم : ضحك المؤمن من غفلة قلبه .

ونظر بعضهم الى قوم يضحكون ، فقال : ان كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين ، وان لم يغفرلهمفما هذا فعل الخائفين .

وعلى كل حال ، فالقول في الضحك كالقول في المزاح : ان تجافاه[2] الانسان بالكلية ، تنفـّر الناس عنه واستوحشوا منه، وان ألفه وأفرط فيه كان حاله ماوصفنا .

فليكن بذل الضحك بمقداره المستحسن على سبيل البشر والايناس .

علـى انه الاكثار منه في المـرة النادرة لاينكر، اذا كانلطارىء استغفل القلب عن دفعه .

فان رسول الله ﷺ وهو أملك الخلق لنفسه ، ضحكحتى بدتنواجذه .

---

(١) سورة الكهف : ١٨/٤٩ .

(٢) تجافاه : ابتعد عنه .

باب الحسد و المنافسة

حقيقة الحسد : شدة الاسى على الخير أن يكون للناس الافاضل .

وحقيقة المنافسة : طلب التشبّه بالافاضل وحصول مثل مالهم من غير ادخال ضرر على الفاضل، وقد يعبّر عنها بالتغبيط، وهي محمودة في الجملة، لانها داعية الى اكتساب الفضائل ، ولان الباعث عليها علو الهمّة ، وفضيلة النفس .

روي عن النبي ﷺ أنه قال المؤمن يغبط والمنافق يحسد .

أما الحسد فهو خلق ذميم ، لاضراره بالبدن وافساده للدين حتى أمر الله نبيه بالاستعاذة من شره فقال تعالى : «ومن شر حاسد اذا حسد»(١).

وقال بعض السلف : الحسد أول ذنب عصي الله تعالى به في السماء ـ يعني : حسد ابليس لعنه الله ـ وأول ذنب عصى به في الارض ـ يعني: حسد قابيل ـ .

وقال بعض الحكماء : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحسود ، نفس دائم ، وهمّ لازم ، وقلب هائم .

وقال بعضهم : يكفيك من الحسود أنه يغتمّ في وقت سرورك .

وفي منثور الحكم : عقوبة الحاسد من نفسه .

---

(١) سورة الفلق : ١١٣/٥ .

وقال ابن المعتز :

اصبر علـى كيد الحسود فـان صبـرك قاتلـه
يكفيـك منـه أنـه حيّ تـذوب مفاصلـه

ودواعي الحسد :

اما : بغض المحسود ، فيأسي عليه لفضيلة تحمد له ، وهذا النوع أضر الحسد ، الا أنه لايكون عاماً ، فهو قد لايبغض كل الناس .

واما : بان يظهر للمحسود فضل يعجز عنه الحاسد ، فيكره تقدمه فيـه ، واختصاصه به ، فيثير[1] بذلك حسداً .

وهذا أدنى من الاول ، لانه يمتزج به ضرب من المنافسة، ولكنهامع عجز فمن ثم صارت حسداً، ولانه يختص بمن علا، لابمن سفل .

واما : أن يكون في الحاسد شح بالفضائل ، وبخل بالنعم، وليست موكولة اليه فيمنع منها ، فيسخط من الله تعالى في قضائه ، ويحسد ما منح من عطائه، وان كانت نعم الله عنده أكثر.

وهذا أغم أنواع الحسد ، وأخبثها ، اذ ليس لصاحبه راحة ، ولا لرضاه غاية .

(١) كذا ظاهراً، والكلمة غير واضحة .

فصل

ينبغي لمن مالت نفسه الى الحسد حسم مادته ، والتخلص منه ، ليسلم من ضرره وخبث عاقبته ووزره .

ويستعين على ذلك باتباع الدين ، والرجوع الى الله تعالى ، فيقهرنفسه على ذميم خلقها ، ويقطع [1] عن لئيم طبعها ، وان كان نقل الطباع عسراً ، لكن يكون بالرياضة والتدريج، والتخلّق والتهذيب .

قال أبو تمام :

ولم أجد الاخلاق الا تخلّقاً ولم أجد الافضال الا تفضلا

أو بالرجوع الى العقل الذي يستقبح نتائج الحسد ، فيغلب عقله على نفسه ، فتصيرمقهورة ، فيذعن لرشدها .

أو بأن يستسلم للقضاء والقدر ، فلايرى أن يغالب قضاء الله تعالىفيرجع مغلوباً ، ولا أن يعارضه فيرد محزوناً .

فان أظفرته السعادة بأحد هذه الاسباب ، أرشد الى الصواب ، واستبدل بالنقص فضلا .

وان صدّته الشقوة ، فانقاد للطبع اللئيم ، وغلب عليه الخلق الذميم ، فظهرحسده واشتدكمده ، فقد باء بثلاث حسرات :

---

(١) كذا ظاهراً والكلمة غير واضحة .

أحدها : سقام الجسد ، ثم لايجد لحسرته انتهاء ، ولايأمل لسقامه شفاء .

وثانيها : انخفاض المنزلة ، وانحطاط الرتبة ، لانحراف الناس عنه ، ومقتهم له .

فقد قيل : الحسود لايسود .

وثالثها : سخط الله تعالى في معارضته ، واحتطاب الاوزار في مخالفته اذ ليس يرى قضاء الله عدلا .

ولذلك قال النبي ﷺ: ان الحسد ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .

وقال ابن المعتز : الحاسد المغتاظ على من لاذنب له، بخيل بما لايملكه طالب لما لايجده .

وقد قيل : حاسد النعمة لايرضيه الا زوالها .

فالعاقل بالبعد عن الحاسد حقيق ، وكتم النعمة عنه من أكبر التوفيق .

قال عبد الحميد : أسد يقارب ، خير من حسود يراقب .

باب الطيرة والفال

لاشيء أضر بالرأي ولاأفسد للتدبيرمن اعتقادالطيرة ، ومن ظن أن خوار بقرة ، أو نعيب غراب يرد قضاءاً ، أو يدفع مقدوراً ، فقد جهل .

فعن النبي ﷺ أنه قال : لاعدوة ولاهامة ولاطيرة ولاصفر.

أما العدوى : فما يظنه الناس من تعدي الامراض والعلل .

قيل [1] يارسول الله : انا نرى النقبة من الجرب في مشفر البعير يتعدى الى جميعه .

فقال ﷺ : فما أعدى الاول ؟.

وأما الهامة : فهوماكانت العرب فيالجاهلية يعتقدون من أن القتيل اذا ظل دمه فلم يدرك بثأره صاحت هامته في القبر : اسقوني .

واما الصفر: فهوكالحيـّة يكون في الجوف يصيب الماشية والناس،وهو أعدى عندهم من الجرب .

ثم أنه قد كانت العرب اذا أرادت سفراً ، نظرت أول طائر تلقاه ، فـان طار يمنة سارت وتيمـّنت ، وان طار شمالا رجعت وتشائمت .

فنهى النبي عن ذلك وقال : طرق [2] الطيرعلى وكناتها .

(١) فى نسخة الاصل : فقيل .

(٢) هكذا ظاهراً وفى الاصل غير واضح .

قال لبيد :

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى

ولا زاجرات الطير ما الله صانع

ومع ذلك قل مايخلو من الطيرة أحد ، لا سيما من عارضته المقادير في اراداته وصده القضاء عن طلباته ، فيجعل الطيرة عذر خيبته، ويغفل عن ارادة الله تعالى ومشيته .

فاذا تطيّر مرة أخرى أحجم ويئس من الظفر، وظن أن القياس فيه الطيرة ، ثم يصير ذلك له عادة فلاينجح له قصد ، ولايتم له سعد .

وأما من ساعدته المقادير فهو قليل التطيّر، ثقة باقباله، وتعويلا على سعادته فلايصده خوف ولايؤوب الاظافراً ، لان الغنم بالاقدام ، والخيبة مع الاحجام .

فالطيرة من سمات الادبار ، واطراحها من امارات الاقبال ، فيلزم من بلي بها أن يصرف نفسه عن وساوس النوكى ، ولا يجعل للشيطان سلطاناً في نقض عزائمه ، ويعلم أن قضاء الله تعالى غالب ، وأن الحركة سبب جاذب ، وليمض في عزائمه ، واثقاً بالله تعالى ان اعطي ، وراضياً ان منع .

فعن رسول الله عليه‌السلام : في الانسان ثلاثة من أخلاق الجاهلية : الطيرة ، والظن والحسد ، فمخرجه من الطيرة أن لا يرجع ومخرجه من الحسد أن لا يبغي .

وعنه عليه‌السلام : كفارة الطيرة التوكل على الله .

وفي منثور الحكم : الخيرة في ترك الطيرة .

روي أن رجلا أتى النبي عليه‌السلام فقال : يارسول الله انا نزلنا داراً فكثر فيها عددنا ، وكثرت فيها أموالنا ، ثم تحولنا عنها الى اخرى ، قلّت فيها أموالنا، وقلّ فيها عددنا .

فقال النبي ﷺ : ذروها ، وهي ذميمة .

وليس هذا منه ﷺ على وجه الطيرة ، ولكن علـى طريق التبرك [١] بما فارق ، وترك ما استوحش منه الى ما أنس به .

(١) كذا ظاهراً والكلمة غير واضحة .

فصل

وأماالفأل: ففيه تقوية على العزم وباعث على الجد ومعونة على الظفر .

فقد تفأل النبي عليه السلام في غزواته وحروبه .

فينبغي لمن تفأل أن يتأوله بأحسن تأويلاته، ولايجعل لسوء الظن طريقاً الى نفسه .

فقد قال رسول الله ﷺ: البلاء موكّل بالمنطق .

حكي: أن يوسف الصديق عليه السلام شكى الى الله تعالى السجن .

فأوحى الله تعالى اليه : يايوسف ، أنت حبست نفسك حيث قلت: « رب السجن أحب اليّ» (١) ولو قلت :«العافية احب» لعوفيت .

وحكي: أن المؤمّل الشاعر لماقال :

...(٢)المؤمل يوم الحيرة(٣)النظر   ليت المؤمل لم يخلق له بصر

عمي ، وأتاه آت في منامه ، وقال له : هذا ماطلبته .

---

(١) ورد قوله هذا في(سورة يوسف: ١٢/٣٣) .

(٢) كلمة غيرمقروءة .

(٣)كذا ظاهراً، والكلمة غيرواضحة .

باب الامل والتسويف والرجاء والمنى

قال رسول الله ﷺ، لعبدالله بن عمر (رضه): اذا أصبحت فلاتحدّث نفسك بالمساء، واذا أمسيت فلاتحدث نفسك بالصباح، وخذ من حياتك لموتك، ومن صحتك لسقمك، فانك ياعبدالله لاتدري ما اسمك غداً.

وقال ﷺ أكلكم يحب أن يدخل الجنة؟

قالوا: نعم يارسول الله.

فقال: قصّروا الامل، واستحيوا من الله حق الحياء.

وقال سلمان رضي الله عنه: ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني: مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك بملء فيه، ولايدري أساخط رب العالمين عليه أم راض عنه.

وقال بعضهم: الزهد في الدنيا قصر الامل، لا لبس العباءة[1].

وقيل في بعض الكتب: يابن آدم، فرحت ببلوغ أملك؟ وانما بلغته بانقضاء أجلك، ثم سوفت بعملك، كأن منفعته لغيرك.

وقال مسعر: كم من مستقبل يوماً وليس بمستكمله، ومنتظر غداً وليس من أجله، ولو رأيتم الاجل ومسيره لابغضتم الامل وغروره.

---

(١) كذا ظاهراً، والعبارة غير واضحة.

نبـذة :

وقديكون الامل باعثاً على العمل الديني، وهوالمقرون بالرغبـة ، وهو من أكبر المصالح وأجلّها اذ بـه جاء الامر من قبـل الله « عزوجل » وصدع الشرع على لسان نبيّه .

الا أنـه لما كان وعد الله محقق الوفاء بـه ، كان نوعاً آخر من الامل ، وأشبه بالتحقيق، بل كان تحقيقاً، لولا أن الموافاة غيرمعلومة .

وقد يكون الامل باعثاً على العمل الدنيوي، وقدّمنا من الكلام فيهطرفاً كـافياً ان شاء الله تعالى [1] .

(١) تقدم الكلام في الامل في الباب ٥: الدنيا/الفصل : ٥ ص١٣٦.

فصل

وأمّا التسويف : فان كان في فعل المعاصي قبل حضور وقتها أعني: ما تتحدث به النفس وتضمره فلايخفى قبحه، لانه ربما أفضى الى الفعل.

فحقّ على ذي الحجى أن يردع نفسه عنه بوعد الله تعالى ووعيده ، و يخوّفهما ويحذّرها من قبح عواقبه .

وتوهمه يعرض كثيراً للبطّالين، فليشغل اللبيب فكره فيماينفعه ، والا ففي المباحات ، والظاهر أنه لا وزر فيه، والله تعالى أعلم .

وان كان التسويف في فعل المعصية عندحضور وقتها ـ بمعنى تركها الان، مع العزم على فعلها فيمابعد ـ فهو محمود، من حيث أنه قدترك به المعصية الان فربما لايتيسر له فعله فيما بعد، أو ربما يسبقه بالتوبة .

ومن ثم قال علي رضي الله عنه : تأخير الاساءة من الاقبال .

وان كان التسويف مؤدّيا الى التواني فيما ينفع عاجلا أو آجلا، فهو العجز الناشيء عن غلبة النفس وقهرها على الاحجام عما ينفع، فيجعل التسويف ذريعة الى الترك، وخديعة للعقل، فان انخدع، تأدى صاحبه الى الفشل والوهن والتأسف .

فحق على العاقل أن يكذب نفسه فيما أمّلته ، ويبادر العمل فيما أمهلته ، وأن لاينخدع فيما خدعته .

قال بعض الحكماء : الجاهل يعتمد على أمله، والعاقل يعتمد على عمله .

وقال بعض البلغاء : الامل كالسراب غرّ من رآه، وخاب من رجاه .

تبصرة :

وقد يكون التسويف في فعل التوبة ، لاجل المبادرة الى الحوبة .

وهذا من أعظم المصائب، وأكبر النوائب، لانه قد باع السعادة بالشقاوة .

رجاء أن يشتريها فيما بعد فمن أخسر صفقة من هذا الامن ؟!

لانه قد يأتيه الموت بغتة، وان لم يأته بغتة. فانه ربما سوّف مرة أخرى أو مرات لان نفسه قد غلبت عليه ، واستولى عليه مقود الشهوة ، فردع نفسه وشهوته بعد ذلك شديد جداً ، بل ربما لاتتأتى له بعد ذلك توبة اصلا ، مؤاخذة له .

قال أبو حازم : نحن لانريد أن نموت حتى نتوب ، ولا نتوب حتى نموت .

وقال بعض البلغاء : الامهال رائد الاهمال .

وقال محمد بن بشير :

مضى أمسك الماضي شهيداً معدلا	ويومك هذا بالفعال شهيد
فان تك بالامس اقترفت[1] اساءة	فثنّ باحسان وأنت حميد
ولاترخ فعل الخير منك الى غد	لعل غداً يأتي وأنت فقيد

(١) في نسخة الاصل : أقرحت أساءة .

فصل

وأما الرجاء :فان كان فيما عند الله فهو المحمود،لانه «عزوجل»أكرم وأعظم من أن يخيّب راجياً ، وربما كان باعثاً على العمل ، وهو قريب الشّبه ممّا قدمناه في الامل [1].

وأما اذا كان باعثاً على ترك العمل وارتكاب المعاصي ، فهو من أقبح القبائح ، لان الله تعالى لا ينال ما عنده الا بطاعته فالراجي على هذا النحو ، غرّه بالله الغرور [2] .

وان كان الرجاء لما يناله من حظوظ الدنيا من المطامع ، اما من النّاس أو من سعيه ، فهو أيضاً مذموم، لانّ الاغلب على الرجاء المعقود أن بالطمع ينحلّ باليأس .

قال علي رضي الله عنه :كلما لاترجوا خيرمما ترجوا [3].

وقد وجدنا صدق هذا الكلام ـ وجوداً ـ كالعيان ، حتّى صار الرجاء قاطعاً للرجاء ، لكثرة مارأينا من تعقب الخلف والفشل بعده ، وحصول ما لم يطمح اليه الرجاء على أسهل الوجوه .

---

(١) في أول هذا الباب ص :٢٧٥.

(٢) اشارة الى قوله تعالى : ولا يغرنكم بالله الغرور (الحديد:١٤/٥٧ ، راجع تفسيره في ص ٤٨.

(٣) كذا في نسخة الاصل والمروي عنه (ع) في لئالي الاخبار ج ٢ ص ٣٩ وص٥٠ :كن لما لاترجوا أرجى منك لما ترجوا .

فصل

وأماالمنى : فهي بضائع النوكى ، وتثبيط عن الاخرة والاولى ، قلّ أن يهذي بها الا دني النفس سخيف العقل .

قال بعض الشعراء :

ان خانك الدهـر فكن عائذاً   بالبيض و الظلمـاء والعيس

ولا تكن رب المنى ، فالمنى   رؤوس أمـوال المفاليس

الا أنه ربمايتسلى بالاماني ، وان قل صدقها ، لكن يعتاض بها سلوة من هم ، ومسرّة من غم .

قال أبو العتاهية :

حرك منـاك اذا اغتـــــــــممت فـانهـن مـراوح

وقال الشاعر:

و تمنيـت مالا و بت مغتبطا   انالمنىرأس أموالالمفاليس

باب الموت

فهو من حكم الله تعالى وألطافه ، والا لضاقت الارض بنوع الانسان ، ولاسرفوا في الفساد والطغيان .

قال النبي ﷺ : تحفة المؤمن الموت .

وجه ذلك : أن المؤمن في دار الدنيا في سجن ، لعنائه برياضة نفسه على ترك ماتدعوه اليه من الشهوات ، التي قد ألفتها النفس ، باعتبار ملابستها هذا الجسم ، المتحلل ، المتخلخل ، الشديد الحاجة، وفي بلاء السعي في اصلاحه وفي عذاب من مدافعة مايوسوس له الشيطان، وينصب له من مكائده، والموت مخلّص لنفسه النورانية من هذه الجثة الظلمانية ، وملحق نفسه برفقائها فتستأنس بهم .

والى ذلك الاشارة في قوله تعالى : «ياأيتها النفس المطمئنّة ارجعي الى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي»[1].

قيل للنبي ﷺ : من أكيس الناس ؟

فقال ﷺ : أكثرهم ذكراً للموت، وأشدهم استعداداً له، أولئك الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا ، واكرام الآخرة .

وقال ﷺ : أكثروا ذكر هادم اللذات .

---

(١) سورة الفجر ٨٩/٢٧ – ٢٩ .

وقال عيسى عليه السلام : كما تنامون كذلك تموتـون ، وكما تنتبهون كذلك تبعثون .

وقال بعضهم : عجبت لمن يعرف أن الموت حق كيف يفرح ؟ وعجبت لمن يعلم أن النارحق ،كيف يضحك ؟ وعجبت لمن يرى تقلب الدّنيا بأهلها كيف يطمئن اليها ؟

وحكي : أن بشر بن منصور لما حضرته الوفاة، فرح .

فقيل له : أتفرح بالموت ؟ !

فقال : أتجعلون قدومي على خالق أرجوه ،كمقامي مع مخلوق أخافه ؟

وحكي : أن عمربن عبدالعزيز(رضه)كان يجمع عنده جماعةويتذاكرون الموت والقيامة ، فيتباكون حتى كأن بين أيديهم جنازة .

وقال الحسن : فضح الموت الدنيا ، ماترك لذي لب فيها فرحاً .

وقال بعضهم : شيئان قطعا عني ارادة الدنيـا : ذكر الموت ، والوقوف بين يدي الله عزوجل .

وقال بعضهم : ان بقائك (١) الى فناء ، وفناءك الى بقاء ، فخذ من فنائك ـ الذي لايبقى ـ ، لبقائك ـ الذي لايفنى ـ .

وقال الرشيد لابن السماك : عظني وأوجز.

فقال : اعلم انك [لست](٢) أول خليفة يموت .

فاستيقظ أيها الراقد لعمل آخرتك ، واغتنم بقية أجلك بخيرعملك، فان من قصـّر أمله ، واستقل أجله ، حسن عمله.

قال عمر لابي الدرداء (رضه) : عظني .

---

(١) في نسخة الاصل : بقاك .

(٢) ليس في النسخة وانماأضفناه لسياق الكلام .

فقال : ارض بالقـوت ، وخف الفوت ، واصل صومك الدنيـا وفطرك الموت .

وقال الجاحظ في كتاب البيان : وجد مكتوباً على حجر:

«يابن آدم ، لو رأيت يسيرمابقي من أجلك ، لزهدت في طويلماترجوا من أملك ، ولرغبت في الزيادة من عملك ، ولقصّرت من حرصكوحيلك ، وانما يلقاك بغتة ، وقد زلتبك قدمك، وأسلمك أهلك وحشمك ، وتبرأ منك القريب ، وانصرف عنك الحبيب»[1].

وقال بعضهم :

الليـل يعمـل والنّهـار كلاهمـا	ياذا التغافل فيك فاعمل فيهما[2]
وهمـا جميعـاً يفنيانـك فاجتهد	بصنائـع الخيـرات أن تفنيهما

وقال ابن المعتز:

نسير الى الاجال [3] في كل ساعة	وأيامنـا ـ تطوى ـ وهنّ مراحل
ولم أر مثل الموت حقاً كأنّه	اذا ما تخطّته الامانيّ باطل
و ما أقبح التفريط في زمن الصبى	فكيف به و الشّيب للرأس شامل
ترحّل من الدنيا بزاد من التقى	فعمرك أيّام تعد قلائل

وقال بعض الصلحاء : لنا من كل ميت عظة بحاله ، وعبرة بمآله .

وقالبعضهم:اعملعملالمرتحلفانحادى الموتيحدوكليوم ليسيعدوك.

---

(١) قد ذكر الاستاذ المحقق الكبير السيد محمد حسين الجلالى اختلاف النسخ فىهذا النص عند تعرضه لمصادر الكتاب (راجع التقديم) .

(٢) كان ابن سمعون الواعظ يقول : لم أسمع فى المواعظ أبلغ وأوجزمن قول من قال : ان الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما ، الايجاز والاعجاز ص٣٥ .

(٣) كذا ظاهرالعبارة وهى فىنسخة الاصلغير واضحة .

وحكى : أن سليمان بن عبد الملك نظر يوماً في المرآة، فقال: أناالملك الشاب .

فقالت جارية له :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للانسان

ليس فيما بدا لنا منك عيب قد علمناه غير أنك فان

ولما مات الاسكندر قال بعض الحكماء : كان الملك أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس .

وكتب رجل الى صالح بن عبد القدوس :

الموت باب وكل الناس يدخله ياليت شعري بعد الباب ما الدار

فأجابه :

الدار جنة عدن ان عملت بما يرضي الاله، وان خالفت فالنار

هما محلا"ن ماللناس غيرهما فانظر لنفسك أي" الدار تختار

وسمع بعضهم صراخاً على ميت فقال : العجب من قوم مسافرين يبكون على مسافر قد بلغ منزله .

فصل

في القبر

حكي : أن الربيع حفرفي داره قبراً ، وكان اذا وجد في قلبه قسوة، جاء فاضطجع فيه ، ثم يمكث فيه ما شاء ، ثم يقول : «رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً»(١).

ثم يرد على نفسه فيقول : قد رجعتك ، فاعمل .

فيجد في نفسه بذلك قوة ونشاطاً على الطاعة .

وقيل لبعض الزهاد : ماأبلغ العظات ؟

فقال : النظر الى محلة الاموات .

ووجد مكتوباً على قبر: قهرنا ، ثم قهرنا ، ثم صرنا للناظرين عبر.

ووجد على آخر: من أمّل البقاء ، وقد رأى مصارعنا ، فهومغرور.

وحيث كان الانتهاء الى هنا فها أنا ذا قد قطعت الكلام حامداً لله تعالى ، شاكراً له على أنعمه الجسام ، مصلياً على محمد النبي وآله، وأصحابه الائمة الاعلام .

---

(١) اقتباس من قوله تعالى : «حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي اعمل صالحاً فيما تركت ،كلا، انها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون» . (سورة المؤمنون : ٢٣/ ٩٩ — ١٠٠)

سائلا من كرم الله تعالى أن ينفع به المسترشدين والطلاب ، وأن يجازيني عليه الجزاء الاوفى يوم الحساب .

مستمداً من تفضل الناظر فيه ، أن يكون نظره بعين الاغضاء لا الاستقصاء فليسدل ثوب الستر، وليفتح باب العذر ، والا فليجعل جزاء كدحي في تأليفه وترصيفه قريحتي وفكري ، المجاوزة عن تهافتي فيه ووزري ، فاني :

قـد تتبعت فيه جهدي ولكن   ليس مـن هفوة الجنـان أمان
ولقد قال صاحب الفضل قدماً   ليس يخلـو من هفوة انسان

مع علمي بأني لم أصل الى مثل هذا التأليف الا بمعونة العزيز اللطيف .

فرغ من مشقـّة مشقه، مؤلـّفـه ، فقير رحمة ربـه الغني ، حسين بن عبد الصمد الحارثي الهمداني ، أدخله الله في مراضيه ، و جعل مستقبله خيراً من ماضيه ، لثلاث خلت من شهر شعبان المعظم ، من شهور سنة خمس وأربعين وتسعمائة هجرية نبوية ، علـى من شر ّفت به أفضل الصلاة وأكمل السلام ، آمـّين .

استدراك

ص٣٧ الهامش (١) يضاف عليه :

فقد ذكر فخر الدين محمد بن عمر الرازي ، المتوفى سنة ٦٠٦ هـ مضمون ماذكره المؤلف ، في كتابه : (ملخص أفكار المتقدمين والمتأخرين) ، راجع الكتاب طبعة القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ ، ص٧٢ .

ص٤٠ سطر٩/ كلمة : وأقول ، تجعل بين قوسين، هكذا : (وأقول :).

هذا وقد فاتنا اضافة (وآله) في أغلب الموارد التي وردت الصلاة فيها على الرسول ﷺ خالية من ذكر (الال) .

فقد وردت : نصوص كثيرة تؤكد على ضرورة ذلك في الصلاة والسلام على النبي ﷺ ، وتنهى عن الصلاة البتراء .

الفهارس

١ ـ فهرس الايات

٢ـ فهرس الاحاديث

٣- فهرس المصطلحات

٤ ـ فهرس أقوال العرب وأمثالهم السائرة

٥ ـ فهرس القوافي

٦ـ فهرس الكتب ومصادر التحقيق

البيان والتبيين : لعمرو بن بحر الجاحظ (ت/٢٥٥ هـ)ط مصر/١٣٦٨ هـ .

بهجة المجالس : لابن عبدالبر النمري القرطبي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ط الدار المصرية .

الجامع الصغير : للسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ طبع عبد الحميد أحمد حنفي/مصر .

خمس رسائل: ويحتوي على منتخبات عدة كتب ومنها: الايجاز والاعجاز لابي منصور الثعالبي ، وأحاسن المحاسن لابي الحسن الرخجي/طبع هـذا الكتاب في مطبعة الجوائب في الاستانة سنة ١٣٠١ هـ .

الدّرة اليتيمة: لعبدالله بن المقفّع المتوفى نحو١٤٣ هـ طبع دار النجاح ـ بيروت ١٩٧٤ م .

سفينة البحار : (فهرس « بحار الانوار » للعلامة المجلسي) وضعه الشيخ عباس القمي/طبع ايران .

عيون الاخبار: لابن قتيبة الدينوري المتوفى/ ٢٧٦هـ طبع مصر/١٩٦٣م.

الغرر والدرر : للامدي في ستة أجزاء طبع جامعة طهران سنة ١٣٦٠هـ .

المستطرف : لمحمد بن أحمد الابشيهي المحلي المتوفى سنة ٨٥٠هـ طبع داراحياء التراث العربي ـ بيروت سنة ١٣٧١ هـ .

المحاسن والمساوىء : للشيخ ابراهيم البيهقي من علماء القـرن الثالث الهجري طبع دار صادر سنة ١٣٩٠ هـ .

المخلاة : لبهاء الدين محمد بن حسين العاملي (ابن المؤلف) المتوفـى سنة ١٠٠٣ هـ طبع الميمنية بمصر سنة ١٣١٧ هـ .

نهج البلاغة : من كلام الامام علي عليه السلام جمع الشريف الرضي طبع مصر.

فهرس المحتويات